

معجزة نهاية القرن العشرين

ابراهيم نافع

الطبعة الأولى
١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م

الناشر : مركز الأهرام للترجمة والنشر
مؤسسة الأهرام - شارع الجلاء - القاهرة
تليفون : ٥٧٨٦٠٨٣ - فاكس : ٥٧٨٦٨٣٣

تصميم الغلاف :
الفنان : هشام بهجت

المحتويات

الصفحة

مقدمة

تأشيرة دخول
إلى بلاد الأرقام الكبيرة

ترتبط الصين في الأذهان بثروة من الأساطير الملونة بالسحر والغموض، لعل أشهرها ذلك التنين الأصفر الهائل المسترخي في هدوء وسكينة، ملقيا بالعالم وراء ظهره، مبتعدا عنه في إحساس بأن تلك الأرض الواسعة التي يحرسها هي دولة هائلة فريدة، حضارتها تنافس الزمن في عمقه وقدمه. أما أرضها فشاسعة متنوعة التضاريس والمناخ، وكأنها قارة مستقلة. وفي البداية والنهاية نحن أمام لغز احتارت في فهمه العقول، وإن جذب إليه النفوس التواقة للمعرفة.

إن العالم لم يعرف حضارة حافظت على نقاء شخصيتها وهويتها مثل الحضارة الصينية. فهي واحدة من أقدم الحضارات، بل إنها ـ باستثناء الحضارة المصرية ـ أقدمها. وقد أثرت فيمن حولها عبر دياناتها التي تضفي حالة من النور واليقظة لامتلاك المعرفة المباشرة للأشياء والطبيعة وحقيقة الكون. وإذا كانت الحضارات التي حولها في معظمها مزيج من تفاعلات مختلفة متناقضة فإن الحضارة الصينية كانت متجانسة، ومنصهرة في وحدة واحدة بحكم العزلة التي فرضتها الطبيعة على الصين، والتي أكدها الصينيون ببناء سورهم العظيم، وهي عزلة جعلت كل الاختلافات تنصهر في

بوتقة واحدة، وتتجانس فى شعب واحد. وبرغم أن الصين من أقدم الحضارات فإن ذاكرة هذه الحضارة لاتزال حاضرة، ونشيطة، ومؤثرة، وفعالة حتى الآن.

ولا يتباهى الصينيون بثقافتهم، فهم يرون أن الثقافة ليست مطلوبة لذاتها، وإنما هى مطلوبة من أجل المعرفة التى تتحول إلى حياة أفضل. فالكتب ليست مطلوبة لذاتها، بل هى مطلوبة بوصفها وسيلة للوصول إلى الحكمة، «فأن تعرف ليس إلا أن تفعل». إنهما شىء واحد، ولو انفصلت المعرفة عن الفعل لتحول المثقف إلى ثرثار أو إلى فأر كتب.

وفى التاوية الصينية مخاطبة لروح الإنسان، والتاوية من التاو، والتاو عنوان كتاب يمتد عمره إلى ٢٥٠٠ سنة قبل الميلاد، ووضع فيه مؤلفه «لو تسو» (وكان رفيقا قريبا لكونفوشيوس صاحب الفلسفة الشهيرة التى كانت تهتم أكثر بالحياة اليومية) خلاصة الحكمة فى ٨١ قطعة أدبية وفلسفية أشبه بالقصيدة، جُمعت فى هذا الكتاب الذى هو من أكثر الكتب انتشارا فى العالم. وطبقا للأسطورة القديمة فإن «لو تسو» هجر الحياة كلها، ورفض أن يسجل الحكمة يأسا من أحوال الناس وشرورهم، وعدم جدارتهم بالحكمة، وانطلق وحيدا مع حماره إلا أن حراس الحدود أجبروه على تسجيل كلماته، ثم جمعوا هذه الكلمات فكانت حكمة التاو التى أثرت فى الروح البشرية والثقافة الآسيوية.

ولعل بعضا من ترانيم التاوية يفصح بوضوح عن جوهر حكمة حضارة الصين الفريدة:

من غير أن تطل من النافذة يمكنك أن ترى دروب السماء

وبقدر ما تذهب بعيدا تعرف قليلا

وهكذا، فالحكيم يعرف دون أن يسافر

ويرى دون أن يحدّق

وينجز كل شىء دون أن يفعل.

وفى قطعة أخرى من الحكمة يقول «لو تسو» إن الغنى والفقر ينبعان من الذات نفسها، والصعوبة والسهولة تكمل كل منهما الأخرى، والخلف والأمام يتبع كل منهما الآخر.

ويقول، بما يشبه السحر: معرفة الآخرين حكمة، ومعرفة النفس جرأة، وقيادة الآخرين تتطلب قوة، وقيادة النفس تقتضى القدرة.

ويقول، بما يتجاوز الخبرة: الذى ينكمش لابد أن يتمدد، هذا الذى ينهار لابد أنه كان متينا من قبل .. ما يطرح أرضا لابد أنه كان مرفوعا من قبل .. قبل الأخذ لابد أن يكون العطاء.

ومهما نعرف من هذه الحكمة فلن نشبع ولن نرتوى، فهى حكمة تعكس المعنى العميق للحضارة الصينية التى عرفت فضيلة العزلة عن العالم، والبناء فى صمت بعيدا عن الصخب الآتى منه، وهى عزلة جعلت الصين لغزا محيرا. فقد كانت قادرة على الاحتفاظ بسر صناعة الحرير الطبيعى الذى اشتهرت به، وكان عمر هذا السر أكثر من ألفى سنة. ولكنها برغم ذلك بادلت الحرير بالسلع التى تحتاجها ولا تنتجها، وإنما تنتجها البلاد الواقعة إلى الغرب، وتم هذا التبادل عن طريق أحد أعظم الطرق التجارية فى العالم وأطولها، وهو طريق الحرير ... طريق التجارة والحضارة والديانة والسياسة والاستراتيجية والفتوحات العسكرية. وقد عبره الإسكندر الأكبر، وجنكيز خان، وتيمور لنك، ومارك بولو، ورسل الخليفة الصحابى عثمان بن عفان، والرحالة العربى الشهير محمد بن عبداللاه بن إبراهيم اللواتى الطنجى الشهير بابن بطوطة.

وفى كتابه «تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار»، يفرط ابن بطوطة فى وصف الصين قبل أكثر من ٩٠٠ سنة، فيقول: «إن بيض الدجاج عندهم أضخم من بيض الأوز عندنا، ويكون الديك بها على قدر النعامة». ويقول: «إن أهلها فى رفاهية وسعة عيش، إلا أنهم لا يحتفلون بطعام ولا ملبس، وترى التاجر الكبير منهم الذى لا تحصى أمواله كثرة، وعليه جبة قطن خشنة». وهم أيضا «أعظم الأمم إحكاما للصناعات وأشدهم إتقانا لها، وذلك مشهور من حالهم».

ويقول ابن بطوطة: «أما التصوير فلا يجاريهم أحد فيه، فإن لهم فيه اقتدارا عظيما». وتعجب ابن بطوطة من أنه فى كل مدينة كان يدخلها كانوا يرسمون صورته على الجدران، أو على القماش وفى الأسواق. ولاحظ ابن بطوطة أن الصينيين يحتفظون

بأوان من الذهب والفضة، وأن لكل منهم عكازا يعتمد عليه فى المشى. ثم يقول: «والحرير عندهم كثير جدا، لذلك هو لبس الفقراء والمساكين، أما القطن فلبس الأثرياء والموسرين».

وفى ذلك الوقت كانت الصين قد سبقت العالم فى تداول ورق النقد، ولم يكن مسموحا بتداول النقود المسكوكة من الذهب والفضة، وسبقت العالم كذلك فى نظام الجمارك وأشياء كثيرة أخرى.

لقد أعطت الصين الكثير للعالم، ولم تأخذ منه إلا أقل القليل، مكتفية بما لديها، محتفظة بهويتها. ومادمنا نتحدث عن التراث العربى والصين، فلابد أن نستعيد ما قاله أبو حيان التوحيدى عندما سئل من أحد الوزراء فى ساعة صفاء ومؤانسة: أتفضل العرب على العجم أم العجم على العرب؟ فقال: إن هذا السؤال سبق أن سأله ابن المقفع إلى أصحابه بطريقة أخرى هى: أى الأمم أكثر عقلا؟ ولأنه من الفرس فقد ظن أصحابه أنه يريد الفرس فى إجابتهم، فأعطوها له. لكنه قال: كلا، ليس ذلك لها ولا فيها، هم قوم علموا فتعلموا، ومثل لهم فامتثلوا، وبُدئوا بأمر فصاروا إلى اتباعه، ليس لهم استنباط ولا استخراج. فقالوا لابن المقفع: إذن الروم؟ فقال: ليس كذلك، بل هم أبدان وثيقة، وهم أصحاب بناء وهندسة، ولا يعرفون سواهما ولا يحسنون غيرهما. فقالوا له: الصين، قال: أصحاب أثاث وصنعة لا فكر لها ولا روية.

بلاد كالمحيط تبتلع الغريب

المقصود أن عزلة الصين لم تهمش دورها فى التاريخ، ولم تهبط بسمعتها بين الشعوب، والمقصود أيضا أن العرب عرفوا قدرها فجاءت قرينة للحضارة الفارسية والرومانية، وإن لم يحاول العرب تفسير أغوار فلسفتها للوقوف على أحوالها وسر عبقريتها.

وفى كتاب «طبقات الأمم» للقاضى أبو القاسم صاعد الأندلسى: أن الصين «أكثر الأمم عددا وأفخمها مملكة وأوسعها دارا». وأضاف: «وحظهم من المعرفة التى برزوا

فيها عن سائر الأمم إتقان الصنائع العملية، وإحكام المهن التصويرية، فهم أصبر الناس على مطاولة التعب والتجديد فى الأعمال وتحسين الصنائع».

ولم يكن هذا هو رأى العرب فحسب، وإنما كان رأى الغرب أيضا الذى كان يتابع التجربة الصينية على اختلاف مراحلها التاريخية، ويرصد الكثير مما يؤكد تفردها. فقد قال فولتير الفيلسوف والسياسى الفرنسى المعروف: «لقد دامت هذه الإمبراطورية أربعة آلاف سنة دون أن يطرأ عليها تغير يذكر فى القوانين أو العادات أو اللغة أو حتى أزياء الناس».

وأجدنى أشارك الدكتور جمال حمدان رأيه الذى يؤكد فيه «أن ضخامة حجم الصين الساحق - سكانها وعمقها الجغرافى - جعلها كالمحيط الذى تذوب فيه كل العناصر الدخيلة، وتبيد كل الضربات الخارجية. من هنا امتازت الصين بقوة امتصاص نادرة (لكل ذلك) وهضمت كل انبعاثات، أو إضافات غريبة، ومثلتها فى جسمها فى صبغة متميزة».

إننى أشارك الدكتور جمال حمدان هذا التفسير، فخلال زياراتى للصين لم يكن من الصعب اكتشاف التجانس والتناغم فيها، برغم كل الاختلافات والفوارق التى لاحظتها فى كل مكان، وجاء بها الزمان. اختلافات فى كل شىء، اللغة، العنصر، الأصل. لكن المحصلة التى نراها فى النهاية هى دولة موحدة، ولغة مكتوبة واحدة، وجنس مغولى أصفر. وملامح تكاد تكون متشابهة، وتحتاج التفرقة بين أصحابها إلى بعض التعود والفراسة وسرعة البديهة.

وبرغم الإيمان الصينى الحديث بقيمة العلم والعقل فإن الصينيين لم يتخلوا عن غرامهم الآسر بالأساطير، ومن أشهر الأساطير التى يتداولونها ويتوارثونها أسطورة «بان لو» أو آدم على الطريقة الصينية، الذى ظل يكدح ثمانية عشر ألف عام على الأرض حتى تكاثفت أنفاسه، فكانت سحبا ورياحا، وانتهى صوته إلى أن أصبح هو الرعد، أما عروقه فقد جرت أنهارا فى جسد الأرض، وطال شعره ليصبح نباتا وأشجارا باسقة،

وانتهت عظامه إلى أن أصبحت هى المعادن، وكان البشر بعده هم الكائنات الحية التى علقت ببدنه.

لكن الأساطير الحديثة فى الصين أشد جاذبية من الأساطير والخرافات القديمة، فهذا العملاق الأصفر تجاوز فى الواقع، ويحكم البشر والجغرافيا والطبيعة، كل الأساطير القديمة. ففى نهاية عام ١٩٩٧ كان عدد سكان الصين مليارا و٢٣٦ مليونا و٢٦ ألف نسمة، يعيشون على مساحة ٩,٦ مليون كيلو متر مربع، ويبلغ طول حدود الصين مع جيرانها ٢٢ ألفا و٨٠٠ كيلو متر. وإذا كانت الصين - التى تقع على الساحل الغربى للمحيط الهادى فى الجزء الشرقى من آسيا - تحتل بوضوح المرتبة الأولى فى عدد سكانها بين دول العالم فإنها تحتل المرتبة الثالثة من حيث المساحة، بعد روسيا وكندا.

وتزداد أهمية الصين من ناحية الجغرافيا السياسية لو ألقينا نظرة على جيرانها، والبحار التى تطل عليها. إن الصين لها حدود مشتركة مع ١٤ دولة، وهو رقم قياسى بكل تأكيد، كوريا من الشرق، منغوليا من الشمال، روسيا من الشمال الشرقى، قازاقستان وقرغيزيا وطاجيكستان من الشمال الغربى، وأفغانستان وباكستان والهند ونيبال وبوتان من الغرب وجنوب الغرب، وميانمار ولاوس وفيتنام من الجنوب. وقد كانت معظم هذه الدول - إن لم تكن كلها - أطرافا فى صراعات ومشكلات مع الصين، مما أفقدها الكثير من التركيز فى عملية التنمية. ولكنها الآن على علاقات حسنة معها، مما ضاعف من قوتها الإقليمية والاقتصادية والتجارية.

وهناك دول مهمة أخرى مجاورة للصين عبر البحار المشتركة، أهمها اليابان وبروناى وماليزيا وإندونيسيا والفلبين.

وتطل الصين على بحار عديدة: البحر الأصفر، بحر الصين الشرقى، بحر الصين الجنوبى، وبحر بوهاى، وهو بحر داخلى يقع بين عدة مقاطعات، هى: لياو ونينج وخبى وشاندونج، ويتصل بالبحر الأصفر عبر مضيق يسمى بوهاى أيضا، وهو مضيق ممتد من القرن الغربى لجبل لاوتيه فى جنوب شبه جزيرة لياو دونج إلى قرن بنجلاى فى

الطرف الشرقى لشبه جزيرة شاندونج، وتبلغ مساحته ٧٧ ألف كيلو متر مربع، ومتوسط عمقه ١٨ مترا. ويبلغ طول السواحل الصينية على البحار الأخرى - ماعدا بحر بوهاى - ٣٢ ألف كيلو متر، منها ١٨ ألف كيلو متر من السواحل على اليابسة، و١٤ ألف كيلو متر من سواحل الجزر التابعة لها. ويقع على سواحل الصين الممتدة على هذا النحو الذى لا يتكرر كثيرا، عدد كبير من الموانىء الشهيرة، أكبرها ميناء شنغهاى.

ويتبع الصين عدد هائل من الجزر يزيد على ٥٤٠٠ جزيرة، وأكبر هذه الجزر جزيرة تايوان التى تصر الصين على أنها جزء من الوطن الأم (الصين)، وتصر على أنها ستعود إليها كما عادت فى عام ١٩٩٧ جزيرة هونج كونج. وتبلغ مساحة جزيرة تايوان ٣٦ ألف كيلو متر مربع. وثانى أكبر جزيرة صينية هى جزيرة هاينان، وتبلغ مساحتها ٣٤ ألف كيلو متر مربع، ثم جزيرة شونجمينج. ويوجد حوالى ٥٠٠٠ جزيرة من هذه الجزر فى بحر الصين، و٢٠٠ جزيرة منها فى البحر الجنوبى، وهى تشكل عدة مجموعات تسمى تشونجشا (أى المجموعة المتوسطة) ونانشا (أى المجموعة الجنوبية). ومن الجزر الشهيرة جزيرة هوانجيان التى تقع فى الحد الأقصى الجنوبى للصين.

إنها بلاد الأرقام الكبيرة.

وهناك أدلة أخرى على ذلك تتمثل فى موارد الصين وثرواتها الطبيعية، وهو ما يضاعف من أهميتها الإقليمية والدولية. ففى الصين عدد هائل من الأنهار، معظمها يجرى من الغرب إلى الشرق ليصب فى النهاية فى المحيط الهادى. أما باقى هذه الأنهار فهو موجود فى جنوب غرب البلاد. وتبلغ أطوال الأنهار الصينية مجتمعة ٢٢٠ ألف كيلو متر، وبعضها تزيد مساحة حوض كل منها على ١٠٠٠ كيلو متر مربع، وعددها ١٥٠٠ نهر. وكمية المياه المنصرفة من هذه الأنهار سنويا تعادل كميات المياه المنصرفة من جميع أنهار قارة أوروبا، وهو ما جعل الصين غنية بموارد الطاقة التى يمكن أن تتولد من قوة اندفاع المياه فى الأنهار. وهى تحتل مرتبة متقدمة فى العالم باحتياطيات تصل إلى ٦٨٠ مليون كيلو وات.

وأطول أنهار الصين على الإطلاق هو نهر يانجتسى وطوله يصل إلى ٦٣٠٠ كيلو متر، وهو أيضا أهم الأنهار التى تستخدم فى النقل الداخلى، ثم يليه فى الأهمية النهر

الأصفر الذى يمتد طوله إلى ٥٤٦٤ كيلو مترا. وعلى ضفاف هذا النهر ولدت حضارة الصين القديمة، وعليها توجد ثروة هائلة من المواقع التاريخية والأثرية التى لايزال الكثير منها مطمورا تحت الأرض فى حاجة لمن يخرج كنوزه فوقها.

وفى الصين مجرى مائى مشهور من صنع الإنسان، يسمى «القناة الكبرى». وحفر هذا المجرى فى القرن الخامس قبل الميلاد، واستخدمه الأباطرة فى نقل البضائع، وفى السفر، وفى التمتع بجمال المياه. وهو مجرى يبدأ من بكين العاصمة، ولايزال الجزء الجنوبى منه مفتوحا للملاحة إلى اليوم بعد مرور أكثر من ٢٥٠٠ سنة على شقه.

وهناك نهر شهير كذلك هو نهر يالو، وعند مصب هذا النهر شمالا يبدأ الخط الساحلى الصينى (فى نقطة التقاء حدود الصين وكوريا الشمالية)، وينتهى الخط الساحلى جنوبا عند مصب نهر آخر هو نهر بيلون (فى نقطة التقاء حدود الصين وفيتنام). ويصل طول الخط الساحلى إلى أكثر من ١٨٠٠ كيلو متر، وتتناثر عليه كثير من الخلجان الساحرة والموانىء المهمة التى نشأت عليها مدن كبيرة ومتوسطة الحجم، منها (من الشمال إلى الجنوب) داليان، وإنجداو، وتيانجين، ويانتاى، وليانيو نكانج، ونانتونج، وشنغهاى (أكبر مدن الصين وأهم الموانىء، والمركز الصناعى والتجارى والمالى الكبير الذى تنطلق منه حركة النقل فى المحيط الهادى) وتينجبوه، ونتشو، وشيامن، وشانتو، وشين جين، وتشوهاى، وكوانجتشو، وسنكيانج، وبيهاى، وغيرها.

ونظرا لأن هذه المدن الساحلية تتمتع بسحر الطبيعة وبأسس اقتصادية مغرية، وبسهولة النقل البحرى والتصدير والتجارة الخارجية، فقد أصبحت الآن أكثر مناطق الصين حيوية وانفتاحا على العالم الخارجى، وأصبحت مدنا مشهورة بعد أن كانت من قبل قرى مغمورة.

وتتوافر فى الحدود البحرية للصين ثروات طبيعية هائلة، منها الملح الذى تعد ملاحة تشاجلو على بحر بوهاى أشهر مصادره. وأيضا ملاحة هوايبى بمقاطعة جيانجسو، وملاحة ينفكهاى فى مقاطعة هاينان. ولعلنا لا نعرف قيمة هذه الملاحات إلا إذا عرفنا أن الملح كان مصدر ثراء الصين قديما، عندما كانت أول من توصل إلى أفضل طريقة

صحية للحصول عليه من تجفيف مياه البحر. وقد كانت صادرات الصين من الملح إلى الدول المجاورة تنافس فى يوم من الأيام صادراتها من الحرير.

وعمق المياه فى كثير من السواحل الصينية لا يتجاوز ٢٠٠ متر، وهو عمق يصلح لتكاثر ونمو الثروات السمكية والأحياء البحرية. وتتسع مناطق هذه الثروات لتصل إلى مليون ونصف المليون كيلو متر مربع، وهو ما يعادل ربع مساحة الصيد الإجمالية عند السواحل القريبة لدول العالم. وتعتبر المنطقة المحيطة بجزر تشوشان أكبر مصايد الصين. ويمتاز الصيد البحرى الصينى بوفرة الكميات، وكثرة الأنواع، فهناك ١٥٠٠ نوع من السمك، معظمها يعيش فى المياه الدافئة، ومنها ٢٠٠ نوع ذات قيمة اقتصادية مرتفعة. وأشهر الأنواع هى: السمك الأصفر الكبير، والسمك الأصفر الصغير، وسمك السيف، والحبار. وفى الصين نوع من الجمبرى يحظى بشهرة كبيرة فى أسواق العالم، وأنواع خاصة من المحار والسرطان تحظى بالشهرة نفسها.

أما الثروة البترولية والغاز الطبيعى فتتوافر بكثرة فى الجروف القارية للصين، وقد اكتشفت ٦ حقول كبيرة منها فى السنوات الأخيرة، ومعظمها فى حوض البحر الشرقى، ومساحتها تزيد على ٨٠٠ ألف كيلو متر مربع.

ومن غير المتصور أن تخلو هذه البلاد من البحيرات، بل إن فيها الكثير منها، وأكبر بحيرات الصين العذبة مساحتها ٣٥٨٣ كيلو مترا مربعا، واسمها يونانج. أما أكبر بحيرة مالحة فى الصين فمساحتها ٤٥٨٣ كيلو مترا مربعا، وتقع فى غرب البلاد.

وتتمتع الصين بكل اختلافات المناخ وأنواعه المعروفة فى العالم. فدرجات الحرارة تتفاوت بصورة كبيرة من منطقة إلى أخرى، ومن وقت إلى آخر، وفى المكان الواحد أحيانا. فالصيف فى شمال الصين دافىء وقصير، والشتاء بارد وطويل. وفى المناطق المدارية وشبه المدارية فى جنوب الصين تظل الأشجار وغيرها من المزروعات خضراء طوال العام. والمناطق الساحلية الشرقية من الصين حارة ورطبة وتشهد الفصول الأربعة على التوالى خلال شهور الصيف. أما أغرب طقس فى الصين فهو فى المناطق الداخلية فى شمال غرب البلاد، حيث تتفاوت درجات الحرارة بصورة كبيرة جدا فى

اليوم الواحد. وهناك مثل صيني يقول: «أهل هذه البلاد يرتدون معاطف الفراء صباحا وثياب الحرير ظهرا». وطوال العام يوجد الجليد (وما يسببه من درجات حرارة منخفضة) في سلاسل الجبال العالية في غرب الصين.

إطعام أكثر من مليار نسمة

برغم هذه الأرقام الصاعقة في الموارد فإن الناس في أي مكان في العالم لا يكفون عن ترديد السؤال الصعب: كيف تُطعم الصين كل أفواه شعبها المفتوحة بما يزيد على المليار نسمة؟ إنهم في الصين يأكلون كل ما يجري على الأرض ماعدا السيارات، وما يجري في الماء ماعدا الغواصات، وما يطير في السماء ماعدا الطائرات. ولكن هذه الإجابة التي تحمل - إلى جانب الدعابة - قدرة فائقة على استغلال الموارد وترشيدها، لا تكفي.

ويمكن أن تكون الإجابة المناسبة هي أن الصين تزرع مساحات شاسعة من الأراضي تزيد على ١٠٨ ملايين هكتار، أي ٤٠ ضعف المساحة المزروعة في مصر. ولأن المناخ متنوع في الصين فإن المحاصيل متنوعة أيضا، منها: القمح، والشعير، والذرة، وقصب السكر، وفول الصويا، والفول السوداني. وغيرها من المحاصيل. كما تنمو أنواع الفاكهة والخضراوات في جميع المناطق على مختلف ضروبها.

وهناك إقليم كبير في الصين معروف باسم «أرض الأرز والسمك». ففي هذا الإقليم تتداخل زراعة الأرز مع تكاثر الأسماك في المياه التي تغمر شتلاته. والمعروف أن السمك والأرز هما الوجبة الرئيسية في الصين واليابان ودول جنوب شرقي آسيا، ومن ثم فإن هذه المنطقة هي أهم منطقة غذائية في الصين. وفي الصين أيضا غابات تزيد مساحتها على ١٣٨ مليون هكتار. أما مساحة الأراضي التي تنمو فوقها الأعشاب وتصلح للرعي فتصل إلى ٤٠٠ مليون هكتار.

ولكن هذه الموارد الضخمة سرعان ما تبتلع ناتجها الأفواه المفتوحة المطالبة بالطعام كل يوم، ومن ثم كان لابد أن تستغل هذه الموارد بدون أي فاقد ولو بنسبة تافهة. وكان

لابد أيضا أن تستغل باقى الموارد عند الحد الأقصى لكى تخرج الصين من عنق الزجاجة وتتجاوز خطوط الفقر.

وفى الصين موارد جيولوجية ومعدنية يمكن الاستفاضة فى الحديث عنها فهناك توجد جميع أنواع المعادن المعروفة، وهى ١٥١ معدنا. ولدى الصين ثالث احتياطى ثابت من المعادن المختلفة على مستوى العالم. ولديها كذلك ثروة من مصادر الطاقة، الفحم، والبترول، والغاز الطبيعى. وتقدر احتياطيات الصين من الفحم مثلا بألف مليار طن. ويوجد خام الفحم أساسا فى شمال البلاد. وتتركز احتياطيات البترول فى شمال غرب البلاد، وشمال شرقها، وفى الشمال، وفى الرصيف القارى فى الشرق.

وتتمتع الصين بثروة من المعادن المشعة مثل اليورانيوم، والثوريوم، والمعادن النادرة مثل التنجستن، والزنك والرصاص، والقصدير، والزئبق.

إنها دولة الأرقام الكبيرة فعلا.

ويمكن أن تكون هذه الأرقام دافعا كافيا للكتابة عن الصين، فالكتابة عنها - حسب هذه الأرقام - هى كتابة عن دولة كبرى بمقاييس السكان والمساحة والموارد والسواحل وعناصر القوة الطبيعية. ولكن دافعى للكتابة عن الصين هو واقع آخر فرض نفسه علينا، أى على العالم، وأقصد تجربة التنمية الصينية المذهلة التى حققت أعلى معدلات للنمو فى وقت تعانى فيه تجارب التنمية الأخرى من الهبوط أو الفشل أو التراجع. وقد وضعت هذه التجربة الصين على أعتاب القرن الحادى والعشرين، ورشحتها لأن تكون إحدى القوى العظمى، وأهلتها لأن تلعب دورا سياسيا على المسرح العالمى ينتظره الناس فى كافة أنحاء الكرة الأرضية على أحر من الجمر، حتى لا يخضعوا لقوة واحدة، وحيدة، وأحيانا تكون باطشة. غير عادلة.

إن الصين بلد كبير يتزايد تأثيره فى ضمير العالم وسياساته، خاصة بعد انهيار الاتحاد السوفيتى ونجاة الصين من هذا الانهيار برغم أنها تنتهج السياسة الشيوعية المركزية، ولكنها فى الوقت نفسه تصرفت بمرونة واستجابت لكثير من التغيرات الحادة التى اعترت العالم دون أن تفقد توازنها أو معظم أفكارها. كما أنها وجدت فى تاريخها وحضارتها حماية لها من الزلازل والبراكين السياسية التى غيرت المجتمع الدولى.

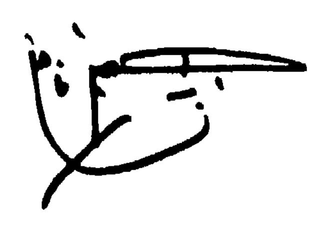
ويصبح السؤال هو: هل أضحت الصين مؤهلة لأن تلعب دور الخصم الكفء للقوى التى تنفرد بالعالم؟

لست أريد أن أذهب مع من يذهبون إلى أن الصين سوف تكون قوة عظمى فى القرن الجديد فى مواجهة الولايات المتحدة الأمريكية، فأى تنبؤ بهذا القدر ليس سهلا أبدا، خاصة أن الصين لم تتوافر لها بعد ملامح نظام سياسى قادر على الاستمرار بوتيرة واحدة متناغمة ومستقرة. فهناك تغير فى القادة بحكم ظروف التقدم فى العمر والتصفيات السياسية التى يجرى بعضها ولا نعرفه، إلا بعد مرور سنوات طويلة.

وربما يؤكد ما أقول أن أحدا لم يكن قادرا - فى أى مكان فى العالم - على التنبؤ بانهيار الاتحاد السوفيتى وسقوط حلف وارسو وتوحيد ألمانيا قبل وقوع هذه الأحداث التاريخية الخطيرة بسنوات. لكن على الجانب الآخر ربما يتغير النظام السياسى الصينى بالمرونة نفسها التى يتغير بها النظام الاقتصادى. وكذلك تتدخل الحضارة الصينية العريقة لحماية البلاد من التفتت الذى أصاب الاتحاد السوفيتى. وساعتها قد تجد الصين نفسها لاعبا مؤثرا على الرقعة الدولية.

وبرغم ذلك يظل السؤال عن مستقبل الصين سؤالا ملحا وضروريا، ولا يمكن الفرار منه، وهو سؤال على قلة كلماته هو أحد الأسئلة الحيوية التى سترافقنا فى القرن القادم، وهو أيضا تأشيرة الدخول إلى هذا الكتاب الذى تمنيت كثيرا أن أسجله، وهو حصيلة مشاهدات وزيارات للصين فى أوقات مختلفة، وحصيلة لقاءات مع قادتها ومفكريها. يضاف إليها ما سجلته من انطباعات وملاحظات عن الحياة اليومية، وعن الإنسان البسيط الذى هو أساس الحياة فى هذه البلاد الساحرة المثيرة.

وبعد أن وجدنا التأشيرة المناسبة أرى أنه حان الوقت لطرق الأبواب والدخول.



الفصل الأول

الفقر والفساد .. والشين تشين

لاتزال الصين بلد التناقضات، شيوعية ورأسمالية معا فى نظام واحد، أو رأسمالية يطبقها شيوعيون، ومدن حديثة تضارع المدن الأوروبية والأمريكية، وأحياء فقيرة تبدو خارج العصر، عمل جاد يصل إلى حد المعجزة وفساد على وشك أن ينخر فى الجسد الصينى.

إن شين تشين منطقة فى الصين من نوع خاص.

تبدو كقطعة من أوروبا، أو الولايات المتحدة، حدائقها مترامية، ساحرة، ومبانيها الزجاجية شاهقة. طرقها واسعة. فنادقها فاخرة. أسواقها عامرة. ومصانعها لا تتوقف عن العمل. فى شين تشين أنت لست فى الصين التى يعرف صورتها العالم منذ آلاف السنين.

والصينيون يقولون إنها الدليل الحى على قدرة الشعب الصينى على التخيل والإبداع وتصور المستقبل. فحتى عام ١٩٨٠ كانت شين تشين، أو شين جين (بتعطيش الجيم كما ينطقها الصينيون أيضا) مجرد منطقة مغمورة، فقيرة، لكن كان هناك كذلك من يحلم بأن تصبح منطقة عصرية بعد أن ملأت رياح الانفتاح شراع الصين. وبعد أن سارت فى طريق التغيير، وهو طريق ثبت أنه طريق واعد بمستقبل مشرق مزدهر.

وخلال الأعوام الخمسة عشر الماضية أصبح على أرض شين تشين أكثر من ١٠ آلاف مشروع تم تنفيذها باستثمارات أجنبية. واحتلت المنطقة بهذا الإنجاز أخيرا المركز الأول بين مناطق الصين فى مجال الاستثمار الخارجى. واعتمادا على مساحتها الشاسعة (٢٠٢٠ كيلو مترا مربعا، وهى أكثر من عشرين مثل مساحة جارتها الأشهر هونج كونج) وبالاستعانة بالخبرات الأجنبية والاقتراض من الخارج، بدأت شين تشين مشوار الانطلاق الاقتصادى الناجح والمتواصل لتصبح واحدة من أهم المناطق الاقتصادية الخاصة على أرض الصين.

إن شين تشين والمعجزة التى وقعت فيها هى وحدها يمكن أن تحكى قصة الانفتاح الصينى الكبير الذى بدأه الزعيم الراحل دنج شياو بنج، وهو الانفتاح الذى انتقلت به الصين إلى مرحلة مختلفة عما سبق من مراحل تاريخها الطويل. وهى مرحلة مختلفة اختلافا جذريا عن مرحلة الشيوعية التى بدأتها الصين مع محررها وزعيمها الراحل ماو تسى تونج منذ نهاية الأربعينيات.

فعلى امتداد تاريخها ظلت شين تشين مجرد منطقة ساحلية هادئة تطل من موقعها البعيد فى أقصى جنوب شرق الصين على مياه خليج دابنج ونهر اللؤلؤ، إلى أن تغير قدرها فى عام ١٩٨٠ بقرار مفاجىء من دنج شياو بنج رجل الصين القوى فى ذلك الوقت. وكان القرار يقضى بتحويلها هى و٣ مناطق أخرى إلى أول نماذج المناطق الاقتصادية الخاصة فى تجربة الإصلاح الاقتصادى التى كانت قد بدأت فصولها الأولى.

وسرعان ما تبدد الهدوء القديم الذى تعودت عليه شين تشين طوال عمرها فى الصين أمام القوة الجارفة للتغيير. وبدلا من الآلاف القليلة التى كانت تعيش فى بيوتها التقليدية البسيطة أصبح يعيش فيها قرابة ٤ ملايين نسمة، من بينهم مليون نسمة يقيمون بصورة دائمة بعد أن جذبهم بريق التجربة فانتقلوا إليها.

ويقول المؤرخون عادة إن نمو أى منطقة هو نتاج عملية هجرة كثيفة على امتداد سنوات طويلة. ولكن شين تشين اختصرت القصة وأصبحت منطقة شابة لا يتجاوز

متوسط الأعمار فيها ٢٨ عاما فقط. عمال، ومزارعون فى مقتبل العمر، وجامعيون تخرجوا لتوهم، ومهندسون وأساتذة فى بداية الحياة العملية. وكلهم جاءوا إلى هذه المنطقة من خلف نهر اليانجتسى والنهر الأصفر، ومن كل بقاع الصين ليضيفوا حياة وطاقة جديدة تسرى فى عروقها.

وبسرعة ودقة نجحت المنطقة فى الاستعانة بخبرات من كل مكان فى العالم لتساعدها على التحول إلى مركز لصناعات الخدمات ولاجتذاب الاستثمارات. وبالسرعة نفسها تضخمت سوق المال فيها وأصبحت تضم عددا كبيرا من شركات تداول الأسهم وأعدادا كبيرة من الوكالات المالية التى تضمن عمليات عدد كبير جدا من الشركات المسجلة، وإلى جانبها نمت شبكة واسعة من البنوك المتخصصة والتجارية وبنوك عديدة برؤوس أموال أجنبية تغطى كل ركن وكل نشاط على أرض المنطقة التى يحيا فيها الناس وكأنهم فى قلب أوروبا بكل إيقاع الحياة اللاهث، وبشبكة طرق بالغة التقدم، ونظام اتصالات سريع التطور، وإتقان يقترب من الكمال فى مجال السياحة.

وبالأرقام، سجل إجمالى الإنتاج المحلى للمنطقة خلال عام ١٩٩٣ ما قيمته ٤١,٤ مليار يوان صينى (حوالى ٦ مليارات دولار أمريكى) وتجاوز إنتاجها الصناعى ٤٨ مليار يوان (ما يقرب من ٧ مليارات دولار). وقدرت قيمة صادراتها بـ ٥٦ مليار يوان (حوالى ٨ مليارات دولار)، متفوقة بذلك على جميع مناطق الصين الكبرى. وكان نشاطها قد حقق هذه الأرقام أيضا فى العام السابق ١٩٩٢.

وبالمهارة نفسها التى حقق أهل المنطقة من خلالها أرباحا سريعة، فإنهم تعلموا كيف يستغلون وقتهم، ويستمتعون بأوقاتهم بالدرجة نفسها، دون أن ينسوا البساطة التى تتسم بها فنونهم وتقاليدهم أمام زحف الحياة الحديثة وتقاليدها. وهكذا فإنهم حولوا الجدران والميادين والأرصفة إلى ما يشبه قطع الموسيقى، وجمعوا فى أكبر ساحات المنطقة - التى أعطوها اسم «نافذة على العالم» - بين برج إيفل، وأعمدة الكرنك، وجسر جولدن جيت. كما أقاموا حديقة للحيوان على غرار سفارى كينيا التى تتجول فيها الحيوانات بحرية، وأقاموا ملاعب للجولف، وحلبات للتزلج على الجليد.

ويتمثل المستقبل الذى ينتظر المنطقة فى أن تزحف بالعمران من الجنوب إلى الشمال، لتضم أحياء للأعمال، ومناطق للتصنيع، والزراعة، وكانت خطتها منذ سنوات تعتمد فى الحصول على طعام يومها، على مزارع ضخمة كانت تستصلحها، وذلك حتى لا تحتاج إلى حفنة أرز واحدة من العاصمة أو مناطق البلاد الأخرى.

وبعد عودة هونج كونج إلى الوطن الأم، بعد أكثر من ١٥٦ سنة من الاحتلال البريطانى، صارت لدى الصين درتان للاستثمار والأعمال الحرة هما: هونج كونج، العائدة بنظامها الاقتصادى القديم، وشين تشين التى طبقت هذا النظام منذ بداية الانفتاح. وبهما معا وبغيرهما من المناطق الأخرى المتطورة بسرعة ـ بما فى ذلك مدينة المال والتجارة شنغهاى والعاصمة بكين ـ تدخل الصين بوابة القرن القادم بنظام اقتصادى فعال يؤذن بثورة فى الإنتاج والتقدم.

ولكن لابد أن يكون وراء ذلك تخطيط دقيق، وعلم وعمل، وبحث ودراسة. فالإنجاز لا يتم أبدا فى فراغ، أو من فراغ، ولا يتم فى جو من الفوضى. إن سلطات المنطقة، التى تبذل محاولات لا تتوقف لاجتذاب المستثمرين، لا تترك أى تفاصيل للمصادفة، وبالتالى أعدت عشرات المراكز لخدمة وتنشيط ومتابعة الاستثمارات، وأقامت شبكة معلومات هاتفية آلية بالغة التخصص للرد على أى استفسار، وتقديم أى بيانات أو استشارات من أى نوع للمستثمرين الذين يريدون اختيار مشروعات، أو يرغبون فى استئجار أو شراء أراض أو مصانع.

وأى معلومة مهما بدت هامشية يمكن الحصول عليها من عشرات المراكز فى شين تشين.

وبهدف تنشيط الاستثمارات وخدمتها، يمكن أن يعهد المستثمرون إلى هذه المراكز بمشروعاتهم لمتابعتها، وتنفيذها نيابة عنهم.

وعلى الرغم من أن إجراءات التقدم للاستثمار فى مشروعات المنطقة تبدو فى الظاهر مطولة، فقد مرت بأكثر من مرحلة لتبسيطها. وهناك حرص شديد على ضمان جدية المشروعات المقترحة، بما فى ذلك تقديم تقرير بدراسة الجدوى للمشروع، وخريطة

للأرض التى سيقام عليها، واستخراج إذن بحق استخدامها. كما حددت المنطقة مجالات بعينها تسمح فيها بالاستثمار، بعد عرض الفكرة على مكتب الاستثمارات الخارجية التابع لبلدية شين تشين، وعلى رأسها المشروعات التى تتطلب رأس مال يزيد على ٣٠ مليون دولار، أو تلك التى يتعين تخصيص أرض لها، على أن يراعى فى تنفيذها عدم التعارض مع قوانين حماية البيئة.

إطار أساسى للاستثمار

«الدليل الشامل» الذى تقدمه «شين تشين» لزوارها يثبت بشكل قاطع - على الرغم من بساطته - أن هذه المنطقة تعرف بوضوح ما تريده لنفسها. فهذا الدليل يضع إطارا أساسيا للاستثمار فيها، وخطة تفصيلية لتطوير مشروعاتها. فهو يشدد مثلا على:

- ضرورة تركيز الجهود الرسمية على مشروعات البناء، والبنية الأساسية، بما فيها شبكة الطرق والمواصلات والاتصالات بأنواعها المختلفة.
- تطوير المنتجات الصناعية التى يمكن أن تفتح أمام الصين أسواقا خارجية، إلى جانب المنتجات الزراعية والحيوانية التى تستهدف أسواق المنطقة نفسها، وهونج كونج أيضا.
- تطوير منتجات متقدمة تكنولوجيا ذات ربحية أعلى وقدرة أكبر على المنافسة دوليا، إلى جانب توفير بدائل لتقليل الاعتماد على الواردات لتغطية حاجة السوق المحلية.
- إقامة مشروعات بتمويل أجنبى، ومشروعات مشتركة لتطوير صناعات التجميع التكميلية.
- تعزيز الخدمات المرتبطة بقطاعات التجارة والتمويل، والعلوم والمعلومات، والتخزين لتمكين الصناعات الخدمية من تغطية احتياجات الاقتصاد الموجه للتصدير.

وهناك قائمة محددة بالأولويات والمشروعات التى تفضل المنطقة أن توجه إليها الاستثمارات، وتشمل:

- مشروعات تستهدف تحسين مرافق البنية الأساسية، وإيجاد بيئة مواتية للاستثمار.
- مشروعات تركز على منتجات التصنيع بغرض التصدير أساسا.
- مشروعات تضاعف القدرة على تكوين أنظمة إنتاج متكاملة، وتوفير المواد الخام المهمة.
- مشروعات مدنية كبرى تساعد فى تنشيط الصناعة المحلية.
- إنتاجية ذات قيمة مضافة أعلى، تسهم فى تحسين جودة المنتجات وتعزيز الصادرات ومضاعفة فرص الحصول على العملة الأجنبية.
- مشروعات تنتج معدات تحتاجها السوق المحلية، ومواد جديدة، وبدائل للاستغناء عن المستورد، أو مشروعات تنفذ بتكنولوجيا متطورة وتحتاج إليها البلاد بشدة، أو يمكنها تحسين وظائف الإنتاج من خلال إنتاجية أعلى وفائدة اقتصادية أكبر، ومستوى إدارى أعلى.

وفيما عدا هذه المجالات، فإن السلطات الصينية تشجع أيضا أى مشروعات تعتمد على المواد الخام المستوردة، والتى تنتج بغرض التصدير، بشرط أن تتوافق مع البنية الأساسية المحلية للمنطقة.

وفى المقابل، هناك حظر صارم على أنواع من الصناعات والمنتجات لا تقرها السلطات فى منطقة شين تشين، وهى المنتجات التى لها إنتاجية عالية ولكن سوقها محدودة. أى تلك التى تتسم برداءة المستوى، أو التى تصنع من مواد خام لا تتوافر بكميات كبيرة فى الصين، أو تصنع بمواد خام مستوردة ولا تصلح للتصدير. وهناك أيضا الصناعات التى تعتمد على تكنولوجيا عتيقة، وتستهلك كميات كبيرة من المياه، أو الطاقة، أو تسبب تلوثا خطيرا، ثم الصناعات التى تستخدم أعدادا كبيرة من الأيدى العاملة لإنتاج مصنوعات رديئة المستوى باستخدام مواد مستوردة، وأخيرا المنتجات التى تعتبر الدولة أن الزمن قد عفا عليها.

ولكن ما هى الضمانات التى توفرها الصين لحماية الاستثمارات الخارجية ؟

وقعت حكومة الصين اتفاقات مع عشرات الدول لحماية الاستثمار الصينى والأجنبى، واتفاقات بالعشرات أيضا لتجنب التهرب الضريبى والازدواج الضريبى، إلى جانب أن الدورة الخامسة عشرة للجنة الدائمة لمؤتمر الشعب الخامس (البرلمان) أقرت اللوائح المنظمة للمناطق الاقتصادية الخاصة فى إقليم جوان دونج وأسبغت على منطقة شين تشين وضعا قانونيا.

ولكن منطقة شين تشين لم تكتف بالقوانين الرسمية للبلاد، وإنما أصدرت لنفسها مجموعة أحكام وقواعد اقتصادية يتجاوز عددها ٧٠٠ حكم وقاعدة لتنظيم عمليات ملكية الأرض، وتسجيل المشاريع، والعمالة، والأجور، وتملك المساكن، ونقل التكنولوجيا، والتعاقد مع مستثمرين أجانب. ومنذ يوليو عام ١٩٩٢ دخلت المنطقة فصلا جديدا من التطور التشريعى مع موافقة «مؤتمر الشعب» على منحها سلطة تشريعية. وينتظر أن يكتمل خلال ٣ سنوات وضع الإطار القانونى الذى يحكم «اقتصاد السوق الاشتراكية» كما يسمونه هناك. كما أنشئت فى المنطقة أجهزة وهيئات قضائية للتحكيم والتوثيق، ولتقديم الاستشارات القانونية والتنسيق، وذلك لضمان عدم تعرض مشروعات المستثمرين لأى تعديات أو تجاوزات.

وفى الصورة أيضا رتوش إضافية لابد من الإشارة إليها لاستكمال ملامح النموذج الذى تمثله منطقة شين تشين، التى يحكمها - أو يديرها - المجلس البلدى الشعبى.

- فى مارس عام ١٩٧٩ تقرر ضم مدينة ومنطقة شين تشين إداريا إلى مقاطعة كوانج دونج الجنوبية التى بدأ منها دنج مسيرة الانفتاح الاقتصادى فى العام نفسه.

- فى أغسطس عام ١٩٨٠ تم اقتطاع مساحة ٢٢٧ كيلو مترا مربعا لتصبح منطقة اقتصادية خاصة، بساحل يمتد نحو ٢٣٠ كيلو مترا.

- يعد أهم أسرار نجاح تجربة شين تشين فى تحقيق تنمية سريعة ومطورة، حرصها على تهيئة مناخ ملائم للاستثمار باتباع إجراءات على درجة كبيرة من المرونة،

والاستقلالية، والاستفادة القصوى بكل ما أتيح للمنطقة من موارد (ثروة معدنية هائلة عبارة عن ٢٧ نوعا من المعادن، وأكثر من ٩٠ نوعا من الحيوانات، ومحمية طبيعية، وثروة سمكية ضخمة كما ونوعا، ومزروعات خضراء طوال العام، ومناخ ساحلي مميز، ودرجة حرارة بمتوسط ٢٢,٤ درجة، وأقصى ارتفاع لها لا يتجاوز ٣٧ درجة، وأقصى انخفاض هو ٤ درجات. ويضاف إلى ذلك إمكانات سياحية كبيرة، ومزارات يجب تطويرها باستمرار، إلى جانب تقديم إعفاءات من تأشيرة الدخول للأجانب القادمين من هونج كونج.

■■ الاستثمار الخارجي هو المصدر الأساسي للتمويل في المنطقة. وبين عامي ١٩٧٩ و١٩٩٤ نجحت شين تشين في توقيع ١٥٧١٣ اتفاقية وعقدا مع شركات ورجال أعمال أجانب التزموا بتقديم ١٧ مليارا و٨١٦ مليون دولار. وحتى نهاية عام ١٩٩٤ كانت قد أقامت ١١٢٥١ مصنعا ومؤسسة بتمويل خارجي.

ومع توجيه اهتمام كبير إلى توطيد التعاون الاقتصادي والتكنولوجي مع باقي مناطق الصين، تمكنت المنطقة بالاعتماد على استثمارات من المقاطعات والمدن ومناطق الحكم الذاتي والوزارات والوكالات الحكومية من إقامة ٨٠٠٠ مشروع تغطي جميع أنواع الأنشطة التجارية والصناعية.

■■ لتوسيع الانفتاح على الخارج وجذب الاستثمارات الأجنبية، أقامت الصين ما يسمى المناطق المحتجزة جمركيا في بلدة شاتو جياو، ومنطقة موتيان في مرفأ هوانج كانج الذي يصل جنوب شين تشين بهونج كونج. وهاتان المنطقتان تشبهان مناطق التجارة الحرة والموانيء الحرة في العالم، وتلعبان دوريهما معا، إذ تجمعان بين تصنيع منتجات التصدير وممارسة التجارة الخارجية، وتديرهما الجمارك وتطبق فيهما سياسة جمركية خاصة، وسياسة إدارية خاصة.

■■ استكملت المنطقة خلال سنوات قليلة جميع مقومات الاستمرار والنمو، على النحو التالي:

١-الطرق

ـ ١٠٠ طريق رئيسى ومجموعة من الكبارى العلوية وشبكة طرق بامتداد ١٠٠٠ كيلو متر.

ـ أسطول شحن يربط الطرق الرئيسية وشبكة الطرق بـ ١٨ مقاطعة صينية، بالإضافة إلى هونج كونج.

ـ خطوط سكك حديدية سريعة لنقل الركاب والبضائع، وإنشاء محطة رئيسية للسكك الحديدية يمكنها استقبال وتفريغ ٩٠ قطار شحن يوميا فى الاتجاهين.

٢- الطاقة والمياه

ـ إقامة شبكة عملاقة لتوفير الطاقة لمنازل ومصانع المدينة.

ـ ١٠ مشروعات للمياه للاستهلاك المدنى والصناعى والتجارى.

٣- الموانىء والمطارات

ـ تضم المنطقة ٨ موانىء و١٢ رصيف شحن رئيسيا و٩٢ مرسى، بينها ٢٠ يمكنها التعامل مع سفن بحمولة تزيد على ٥٠٠ طن.

ـ يمتد من المنطقة ٣٠ خطا للشحن إلى ١٠ دول و٣ قارات، إلى جانب مطار شين تشين الدولى الذى خصص لبنائه مليار يوان صينى، ليصبح خامس أكبر مطار فى الصين، ومهبط ضخم لطائرات الهليكوبتر بمساحة ٣٠٠ ألف متر مربع.

٤- الصحة والتعليم

ـ تضم المنطقة ٤٠٠ مؤسسة طبية و٤٥ مستشفى، بطاقة ٥١٦٨ سريرا، و٣ مؤسسات للتعليم العالى، و٧ كليات فنية، و١٧ مدرسة صناعية للتدريب المهنى، و٥١

مدرسة ثانوية، و٢٦٧ مدرسة ابتدائية، و٢٨١ حضانة، بينما أنشئت كليتان و٦ مدارس ثانوية ومهنية صناعية بتمويل غير حكومى.

٥- البحث العلمى

حرصت شين تشين على إقامة سلسلة من مراكز البحث العلمى لتطوير وإجراء الأبحاث على المنتجات والتكنولوجيا الجديدة، ضمت ١٢٥ مركزا فى معظم المصانع الكبرى والمتوسطة، بمشاركة العشرات من رجال الجامعات ومعاهد البحث العلمى الصينية.

وفى زحام اهتمامها بالعمل، والرغبة فى التجويد، لم تغفل شين تشين أهمية المناخ الثقافى والترفيهى، وأنشأت مسارح، ومكتبات، ودور سينما، واستديوهات إذاعية وتليفزيونية، ومتاحف، ومراكز ثقافية، بالإضافة إلى أكبر مركز ترفيهى من نوعه فى جنوب الصين.

واستحدثت المنطقة مراكز لممارسة جميع أنواع الرياضات، وسلسلة متكاملة من مراكز التسوق على أحدث طراز، فضلا عن مجموعة من المتاجر والأسواق الحرة التى تبيع المنتجات بدون رسوم جمركية Duty Free، كما افتتحت السلاسل التجارية العالمية الشهيرة فروعا لها فى المنطقة.

الصين تسبق

كانت الطفرة الاقتصادية اليابانية فى السبعينيات وأوائل الثمانينيات قد أذهلت العالم، وقد سماها الخبراء وقتئذ «المعجزة الاقتصادية اليابانية». وبينما كان العالم يواصل دهشته لهذه المعجزة التى خرقت نواميس النمو الاقتصادى فوجىء بتطور مماثل يتسلل إلى عدد من دول القارة الآسيوية، وهى الدول التى عرفت وقتها بـ «النمور الآسيوية». ومنذ سنوات أصيب العالم بدهشة مضاعفة عندما وجد الصين قد حققت

تقدما اقتصاديا هائلا ومتسارعا عاما وراء عام. وقد غير هذا التقدم معالم الحياة الصينية، وغير أيضا موقع الصين على خريطة التأثير العالمية.

بل إن الصين تحولت فى نظر العديد من المراقبين الغربيين إلى مارد اقتصادى فاق فى جبروته الدول الآسيوية الناهضة الأخرى، وبدأت تظهر أوصاف مختلفة للصين صاحبة هذه المعجزة مثل «التنين الأصفر الجديد». وكان سبب هذا الوصف وغيره، هو أن الصين تمكنت من خلال النمو الاقتصادى السريع فى الأعوام الخمسة عشر الماضية من أن تحقق صعودا صاروخيا دفع بها إلى مرتبة متقدمة بين أقوى الاقتصادات فى العالم، وهى اقتصادات الولايات المتحدة، واليابان، وألمانيا.

وإذا طبقنا معيار الناتج القومى الإجمالى مقوما بالقيمة الشرائية للعملة المحلية بالمقارنة بالدولار الأمريكى، يكون الاقتصاد الصينى هو الثانى فى قوته فى العالم بعد الاقتصاد الأمريكى وقبل اقتصاد اليابان، وهو الثانى فى العالم من ناحية الضخامة. والأهم من ضخامة الاقتصاد الصينى والتزايد الكبير فى الناتج القومى الإجمالى هو أن الاستثمارات الجديدة يجرى تنفيذها وفق أحدث تكنولوجيا موجودة فى العالم، بما يعنى أن هذا الاقتصاد يتجه إلى أن يؤكد فى السنوات العشر أو الخمس عشرة الأولى من القرن المقبل مكانته باعتباره ثانى أضخم اقتصاد فى العالم، ثم يصبح بعد ذلك بعشر سنوات أو خمس عشرة سنة أضخم اقتصاد على وجه الأرض، سابقا الاقتصاد الأمريكى.

وقد نما الاقتصاد الصينى بنسبة ٩,٦٪ سنويا فى المتوسط فى الفترة من عام ١٩٨٠ إلى عام ١٩٩٣. وخلال الفترة نفسها حقق قطاع الصناعة نموا بلغ ١١,٥٪ سنويا فى المتوسط، وحقق قطاع الصناعة التحويلية نموا بلغ ١١,١٪ سنويا فى المتوسط. وقد حدث النمو الأكبر للاقتصاد الصينى فى سنوات الخطة الخمسية الصينية للنصف الأول من التسعينيات. وكانت تلك الخطة قد وضعت على أساس أن يحقق الاقتصاد الصينى نموا سنويا يبلغ معدله ٦٪ فى المتوسط، فإذا به يمر بازدهار وصعود يتجاوز أهداف الخطة، ويحقق نموا بلغ ١١,٧٪ سنويا فى المتوسط خلال الفترة بين عامى ١٩٩١ و١٩٩٥، وارتكز هذا النمو بالأساس على التطور السريع للقطاع الصناعى الذى زاد بنسبة ١٧,٤٪ سنويا خلال هذه السنوات من الخطة.

ولم يقتصر أمر التوسع الكبير على النمو السريع للاقتصاد، ولكن العلاقات الاقتصادية للصين شهدت تطورا هائلا وغطت مجالات التجارة والاستثمارات، ودفعت بالصين لأن تصبح عاشر أكبر قوة تجارية فى العالم منذ عام ١٩٩٣. فمنذ سنوات كسرت الصادرات الصينية حاجز المائة مليار دولار، وكسرت الواردات الصينية الحاجز نفسه، واقترب الفائض فى الميزان التجارى لمصلحة الصين من عشرين مليار دولار، وهو اتجاه توسع أكثر فى السنوات التالية، وزاد بعد استعادة مستعمرة هونج كونج من السيادة البريطانية، وكانت هونج كونج وقت استعادتها المركز الرئيسى لتجارة الترانزيت فى الشرق الأقصى، ولاتزال لها أهمية اقتصادية دولية كبيرة على الرغم من أنها قد تأثرت سلبيا بالأزمة المالية فى دول النمور الآسيوية.

وإلى جانب أن حصيلة الضرائب فى الصين تجاوزت رقم المائة مليار دولار، فإن الاحتياطيات المالية الصينية قفزت لتصبح عشرات المليارات من الدولارات.

وكانت الصين قد أصبحت منذ عام ١٩٩٣ أكبر دولة مستقبلة للاستثمارات فى العالم، فقد استقبلت استثمارات أجنبية قيمتها نحو ٢٧,٥ مليار دولار فى ذلك العام، واستقبلت فى عام ١٩٩٤ استثمارات تدور قيمتها حول مستوى عام ١٩٩٣ نفسه، كما استقبلت استثمارات أجنبية بلغت قيمتها ٢٢,٥ مليار دولار فى الأشهر الثمانية الأولى من عام ١٩٩٥. وقد تفوقت الصين منذ ١٩٩٣، وحتى الآن، كدولة مستقبلة للاستثمارات الأجنبية على الولايات المتحدة التى كانت تحتل المركز الأول بين الدول المستقبلة للاستثمارات الأجنبية لفترة طويلة. وقد بلغت قيمة الاستثمارات الأجنبية فى الصين فى الفترة من ١٩٩١ إلى ١٩٩٥ نحو ١١٣,٨ مليار دولار.

وعلى صعيد نجاح اقتصادى آخر، تمكنت الصين من تخفيض معدلات التضخم بصورة كبيرة. ومن المرجح أن تتمكن الحكومة الصينية من السيطرة بصورة أكبر على معدل التضخم فى الخطة الخمسية الأخيرة، وتولى هذه الخطة أهمية خاصة لإنتاج الغذاء لرفع معدلات الاكتفاء الذاتى منه، وللسيطرة على أسعار السلع الغذائية التى كانت مسئولة إلى حد كبير عن ارتفاع معدلات التضخم قبل سنوات.

وإذا كانت هذه هى أهم ملامح الإنجاز الاقتصادى الصينى الهائل، فإن الأسس التى قام عليها هذا الإنجاز كانت هى الأهم كخبرة يمكن الاستفادة منها فى التجارب الأخرى للنمو والتقدم الاقتصادى فى العالم. ويمكن القول إن الصين قد استندت فى تحقيق إنجازها الاقتصادى الهائل على عدد من المبادىء والسياسات الداخلية والخارجية.

● **فعلى الصعيد الداخلى** اعتمدت الصين سياسة مالية متوازنة، وأبقت الإنفاق العام فى مجمله لا يزيد على ٧,٥٪ من الناتج القومى الإجمالى للصين، وهو واحد من أدنى مستويات الإنفاق العام فى العالم. كذلك اعتمدت الصين على سياسة نقدية مرنة بدأت بتخفيض سعر اليوان (العملة الصينية) لإنعاش الصادرات، وتشجيع الاستثمارات الأجنبية، فانخفض سعره من ٥,٣ يوان لكل دولار أمريكى واحد فى بداية عام ١٩٩١ إلى نحو ٨,٧ يوان لكل دولار فى عام ١٩٩٤ قبل أن يبدأ اليوان الصينى فى الصعود ليصبح ٨,٣ يوان لكل دولار بعد ذلك بسنوات فى ظل الاحتياطيات الصينية الكبيرة من العملات الأجنبية، والفائض المتواصل للميزان التجارى الصينى، والثقة المحلية والدولية فى قوة العملة الصينية. وطفقت الصادرات الصينية تتنامى بمعدلات تزيد على ٢٠٪ سنويا دون الحاجة إلى خفض قيمة اليوان، بل إنه ظل يرتفع سنة بعد سنة فى مقابل الدولار.

وكان سبب هذه الطفرة كلها أن الصين اعتمدت آليات السوق كموجِّه للإنتاج وتخصيص الموارد، حتى بالنسبة للقطاع العام والاستثمارات العامة الجديدة.

وعلى الرغم من أن الصين اتجهت لطرح أسهم العديد من المشروعات العامة لتمليكها للمواطنين، إلا أن ذلك لا يعكس اتجاها عاما للخصخصة، فقد ركزت على تحسين المناخ أمام القطاع الخاص الصينى والأجنبى لإنشاء مشروعات جديدة. وعملت الصين على تطوير الأسواق المالية، خاصة البورصات، لتعبئة المدخرات المحلية كآلية لتمويل الاستثمارات، ولجذب الاستثمارات الأجنبية.

● **أما على الصعيد الخارجى**، فإن الصين تجيد ترويج سوقها الاستهلاكية الهائلة كحافز للمستثمرين الأجانب لضخ استثماراتهم فى اقتصادها، كما تستخدم

ضخامة سوقها المحلية كورقة مهمة فى مفاوضاتها التجارية مع شركائها الرئيسيين، خصوصا مع الولايات المتحدة وفرنسا وألمانيا. وتركز أيضا على تطوير مهارات التسويق الخارجى، واختراق الحواجز غير الجمركية التى تواجه صادراتها إلى أسواق العالم المختلفة.

وفضلا عن كل ذلك فإن الاستقرار السياسى فى الصين الذى تأكد بانتقال السلطة فى هدوء من الزعيم الراحل دنج شياو بنج قبل وفاته بسنوات إلى جيانج تسه مين، وغياب أى صراع على السلطة، أسهم فى زيادة ثقة المستثمرين فى استقرار الصين السياسى، وهو ما أدى إلى تحسين مناخ الاستثمار. وعلى الرغم من أن الصين لا تستبعد الخيار العسكرى فى مجال تحقيق هدف استعادة تايوان، فإنها أثبتت طوال قرابة ٥٠ عاما أنها قادرة على ضبط النفس، والتحلى بالحكمة، والبعد عن الدخول فى صراعات عسكرية تستنزف قواها الاقتصادية، وتعطل تقدمها، خاصة أنها استردت هونج كونج بالصبر والحكمة، وإن لم تخل عودة هونج كونج من التوقعات السوداء للشامتين.

صين واحدة ذات نظامين

حين كانت هونج كونج على وشك العودة إلى الصين تباينت التوقعات حول مستقبلها، فقد رسم البعض صورة مظلمة لها، وبدا لهؤلاء أن العودة هى يوم القيامة للجزيرة. وكان السؤال المطروح هو: هل ستستطيع هونج كونج أن تبقى حية بعد العودة إلى الصين؟.

ومنذ عودة هونج كونج التزمت الصين بمبدأ «دولة واحدة ذات نظامين». وهونج كونج تتمتع بدرجة عالية من الحكم الذاتى، حيث يديرها أبناؤها. وبقاء النظام الاقتصادى والاجتماعى، وأسلوب الحياة فى هونج كونج بدون تغيير، وبقاء القوانين كما هى يعد أمرا أساسيا.

وتدير الحكومة المركزية الشئون الخارجية والدفاعية فقط للجزيرة. وخلال السنوات الماضية استمر النظام الاقتصادى والاجتماعى بهونج كونج يعمل بصورة طبيعية،

فأجهزة الإعلام تقول ما تشاء بدون تدخل فى عملها، والعمل مستمر فى البورصة، وباستطاعة البعض - إذا أراد - تنظيم المظاهرات مادامت تلتزم بالقانون.

كل هذا يوضح أنه منذ عودة هونج كونج لم يحدث تغير كبير فى مجتمعها، أو أسلوب حياتها، وكما قالت المصادر الغربية فإن عدم حدوث تغير كبير يعتبر خبرا جيدا فى حد ذاته. كما يعمل الموظفون المدنيون فى هونج كونج باستقلالية، وتتمتع أجهزة الإعلام - كما أشرت - بحرية كاملة.

ولكن اللافت للنظر أنه بعد عودة هونج كونج إلى الصين اجتاحت الأزمة المالية جنوب شرق آسيا، وتأثرت هونج كونج أيضا بشدة من هذه الأزمة وأصابها قدر ليس هينا من الركود، ولكنها صمدت أمام الاختبار القاسى. وإلى جانب قوتها الذاتية كانت مساعدة الصين لها عاملا مهما فى صمودها، فاستقرار الصين سياسيا، ونموها اقتصاديا واجتماعيا، وتوافر احتياطيات ضخمة من النقد الأجنبى لديها «المركز الثانى فى العالم» والاستقرار المالى كل ذلك ساهم فى تصدى الجزيرة للأزمة.

ويزداد فهم أبناء هونج كونج يوما بعد يوم لسياسة «دولة واحدة ذات نظامين»، ويشعرون فى الواقع بعزم الحكومة الصينية المركزية على تطبيق هذه السياسة بصورة مستمرة. وقد أشار استطلاع للرأى بهونج كونج، أجرى بعد انتخاب قادة الدولة فى مارس عام ١٩٩٨ إلى أن ثقة أبناء هونج كونج بمستقبل الصين وصلت إلى أعلى نقطة منذ عودة هونج كونج إلى الوطن الأم. وتبين من الاستطلاع أن ٨٠٪ منهم متفائلون به. كما زادت الأرقام القياسية لأسعار الأسهم في البورصة بمعدل ٣٢٠ نقطة.

وفى تصريحات أدلى بها فى فرنسا، قال تونج تشى هوا المسئول الإدارى لمنطقة هونج كونج إن القانون الأساسى لهونج كونج هو الإطار الدستورى لهذه المنطقة الإدارية الخاصة. وقد حدد القانون الأساسى من الناحية القانونية نموذج دولة واحدة ذات نظامين، حيث أوضح أن نظام هونج كونج الاجتماعى والاقتصادى والسياسى يختلف عما فى الصين الأم نفسها. ويوفر القانون الأساسى الحماية لحقوق أبناء هونج كونج، وحرياتهم، وأسلوب حياتهم، كما يضمن القانون استقلالية التشريع،

والاستقلالية المالية لهونج كونج، وأن يدير أبناء هونج كونج شئونها، باستثناء الشئون الدبلوماسية والدفاعية.

ويعتقد تونج تشى هوا أن الحوار الديمقراطى سيزداد عمقا وتوسعا فى هونج كونج خلال السنوات العشر المقبلة، بما يتجاوز الحقوق التى حصل عليها أبناء هونج كونج خلال الفترة الاستعمارية التى استمرت ١٥٦ سنة.

وقال وزير الخارجية البريطانية فى كلمة أثناء زيارة قام بها لهونج كونج بعد عودتها إلى الصين: «لاتزال هونج كونج مجتمعا حرا مزدهرا حقيقيا، ويتمتع أبناؤها بحرية التعبير».

كما يرى الرئيس الفرنسى جاك شيراك أن المنجزات التى تحققت بعد عودة هونج كونج إلى الصين تثبت أن سياسة دولة واحدة ذات نظامين تعتبر سياسة جيدة. كما قدمت الحكومة الامريكية تقريرا إلى الكونجرس أشار إلى أن الحكم الذاتى بعد عودة هونج كونج إلى الصين يعتبر مرضيا، وأن الحكومة الصينية المركزية لم تتدخل فى شئون هونج كونج، ولاتزال الدوائر الإدارية الحكومية فى هونج كونج مستقلة عن الحكومة المركزية فى بكين. وفى اليوم نفسه الذى قدمت فيه وزارة الخارجية الأمريكية تقريرها أُعلن فى هونج كونج عن تشكيل اللجنة الانتخابية لأعضاء المجلس التشريعى، وضمت ٨٠٠ عضو وتم انتخاب ٥٨٨ عضوا، وهؤلاء الأعضاء مسئولون عن انتخاب عشرة أعضاء بالمجلس التشريعى.

ويدرس أبناء هونج كونج الآن اللغة الصينية الفصحى، ويجرون البحوث والدراسات عن الشئون الصينية، ويتلقون المحاضرات عن الثقافة الصينية، ويذهبون إلى الصين للزيارة والعمل والدراسة، وتملؤهم الثقة بمستقبل التنمية فى الصين، وبالتالى ينخرطون فى تعاون مشترك فى مجالات التجارة والعلوم والتكنولوجيا والثقافة والرياضة والسياحة.

وتهتم حكومة منطقة هونج كونج الإدارية الخاصة بغرس الوطنية فى نفوس الشباب والأطفال، ويهتم أبناء الجزيرة بالاعتراف بقيمة ثقافة الوطن. وتتخذ الأوساط المختلفة فى هونج كونج إجراءات لمساعدة الأطفال والشباب على التعرف على الوطن الأم.

وعلى سبيل المثال هناك محاضرات حول السياسة والاقتصاد والمجتمع فى الصين المعاصرة، وهناك منح دراسية قصيرة فى الصين لأبناء هونج كونج، فضلا عن نشاط التصوير فى الصين ومعارض الصور.

ومنذ تطبيق سياسة الإصلاح والانفتاح فى الصين تستثمر هونج كونج أموالا طائلة فى مشروعات داخل الصين، ونقلت شركات تعمل فى هونج كونج المصانع إلى منطقة دلتا نهر اللؤلؤ المجاورة لهونج كونج. وبعد عودة المقاطعة إلى الوطن الأم بسنوات قلائل بدأ العمل بنظام الاجتماع المشترك بين هونج كونج ومقاطعة كوانجدونج بجنوب الصين. ونظام التعاون بين هونج كونج ومقاطعة كوانجدونج يقوم على ثلاثة تحولات :

- □ **أولا** - التحول من التعاون الشعبى المحدود إلى التعاون الكامل الذى يجرى بمقتضى سياسة «دولة واحدة ذات نظامين» بدعم من الحكومة.
- □ **ثانيا** - التحول من التعاون المتفرق الذى تحكمه السوق إلى التعاون الذى يجرى حسب أحوال السوق والتنسيق بين حكومتى هونج كونج وكوانجدونج.
- □ **ثالثا** - التحول من التعاون بأسلوب أن هونج كونج هى المتجر وأن كوانجدونج هى المصنع، إلى التعاون فى جميع مجالات العلوم والتكنولوجيا.

وخلال ست سنوات متواصلة حافظ ميناء هونج كونج على مكانته كأكبر ميناء إشغالا فى العالم، وقد ازدادت تجارته فى سنة ١٩٩٧ بنسبة ٦٪. واليوم يقام فى هونج كونج ميناء جديد وأرصفة، لزيادة تجارتها بصورة متواصلة. ومن المتوقع أن يزداد حجم التفريغ والشحن بميناء هونج كونج بنسبة ٥,٨٪ سنويا خلال السنوات العشر المقبلة.

وتعد هونج كونج مركزا للتجارة والأعمال المالية والسياحية، وتتجاوز نسبة الدخل من الخدمات بها ٨٠٪ من إجمالى الناتج المحلى، كما تشير قيمة منتجات هونج كونج المصدرة إلى أن أعمالها الصناعية فى تطور مستمر. كما أن قطاع الصناعة راقية التكنولوجيا بهونج كونج ودوائر العلوم والتكنولوجيا فى دولة الصين من الممكن أن يكمل بعضهما بعضا حسب ميزاتهما المختلفة، مما يحقق المنفعة المتبادلة. وخلال

السنوات الثلاث الأخيرة عاد ١٨٠ ألف مهاجر إلى هونج كونج، وفى الوقت نفسه يتزايد قدوم الأجانب إليها. ويبلغ عدد الأجانب الذين يعيشون فى هونج كونج الآن حوالى ٥٠٠ ألف نسمة.

وقد أشارت التحليلات والتحقيقات التى قامت بها المنظمات الاقتصادية الدولية المعنية إلى أن مكانة هونج كونج كمركز للأعمال المالية والتجارية والملاحية والسياحية وخدمات المعلومات فى العالم لم تتغير خلال الأزمة المالية بآسيا، وأن قوة هونج كونج الاقتصادية الكامنة كبيرة، وأن مستقبلها طيب.

الرأسمالية ومثالبها

فى الوقت الذى بدأت فيه الصين تطبيق المبادىء الرأسمالية على الاقتصاد، وفى الوقت الذى ارتفعت فيه معدلات التنمية بسرعة غير مسبوقة فى العالم، بدأ المجتمع الصينى منذ سنوات يشهد سلبيات الرأسمالية أيضا. فقد ظهرت جرائم لم تكن معروفة تقريبا من قبل، مثل الخطف والقتل، وتهريب المخدرات.

وعلى الرغم من جهود الحكومة فى محاولة القضاء على هذه الجرائم، فإن النجاحات تظل محدودة. وقد انتاب السلطات القلق الشديد لأن بعض رجال القانون تورطوا فى بعض جرائم الاختطاف، وتورط بعض جنود الجيش الصينى المسرحين من الخدمة فى عمليات سطو مسلح على بعض البنوك، كما صارت الرشاوى من الأمور المألوفة فى الصين الحديثة.

وبسبب ارتفاع مستويات الدخل ظهرت أنواع جديدة من الجرائم، واتسع نطاق جرائم أخرى مثل تهريب المخدرات. وأهم سمات تهريب المخدرات الآن مايلى:

١- اتساع رقعة تهريب المخدرات إلى مقاطعات الشمال الشرقى والشمال الغربى، وكانت فى الماضى مقتصرة على مقاطعة يونان ومنطقة كوانج شى، وغيرهما من المقاطعات الصينية الحدودية.

٢- التهريب المسلح، إذ نجد أن عصابات التهريب مزودة الآن بالأسلحة والذخائر لمقاومة رجال الشرطة.

٣- تنوع وزيادة مهارة أساليب التهريب، إذ وصل الأمر إلى إخفاء المخدرات فى أماكن يصعب تفتيشها، وأيضا وضع المخدرات فى كيس بلاستيكى ثم ابتلاعه إلى حين الوصول إلى المكان المقصود.

وقد صدر قانون بمعاقبة مهربى المخدرات بالإعدام، سواء كانت الكمية المضبوطة كبيرة أم صغيرة (يعاقب كل من يهرب ٥٠ جراما فى المرة الواحدة بالإعدام). فالمهرب الذى أعماه بريق الطمع والجشع يعرف أن مصيره فى حالة القبض عليه هو الإعدام، سواء كانت الكمية المضبوطة كبيرة أم صغيرة، لذلك تشهد المناطق الصينية الحدودية قضايا تهريب لمقادير تزيد على ١٠٠ ألف جرام فى المرة الواحدة.

وقد ربط الخبراء بين تطبيق المبادىء الرأسمالية وظهور هذه الجرائم، لأنها تنتشر أكثر فى المناطق الأكثر تطبيقا للنظم الرأسمالية، والتى تكثر فيها المشروعات الاستثمارية الأجنبية والمحلية، خصوصا فى جنوب الصين. وعلى سبيل المثال، تم ضبط قضايا عديدة فى منطقة «شين تشين» تركزت فى مجال الكسب غير المشروع، وتورط فيها العشرات من أعضاء الحزب الشيوعى الصينى. وتلقت السلطات ألوف التقارير عن حالات فساد فى هذه المنطقة، وقد خضعت جميعها للفحص وتم التحقيق فى الصحيح منها وحفظ ما عداه.

ومنذ سنوات تعتبر منطقة شين تشين، جزءا من الطريق الذى يستخدمه مهربو المخدرات فى نقل الهيروين الخام من بورما ولاوس إلى الولايات المتحدة وأوروبا.

وقد أدى ظهور أعمال العنف فى هذه المنطقة إلى إنشاء شركات حراسة خاصة يتقاضى كل منها ألوف الدولارات شهريا مقابل توفير الحراس الشخصيين «بودى جاردن» لرجال الأعمال. ويقول بعض المراقبين إن السلطات الصينية اكتشفت بسرعة أن النظام الأمنى الذى كانت تطبقه فى ظل الشيوعية لم يعد ملائما بأى حال للأوضاع الرأسمالية. فقد نجمت عن هذا التحول ثغرة أمنية كبيرة تطلبت عملا شاقا لسدها والتغلب على عواقبها.

ومن الحقائق المهمة جدا فى الصين الحديثة أن السلطة الرسمية لم تدخر جهد مكافحة الفساد الناجم عن التطورات الاقتصادية ومواجهة المشكلات الناجمة وشنت منذ سنوات حملة لمطاردة الفساد على المستوى القومى أسفرت عن إدا ألف مسئول وإنزال العقاب بهم.

وكانت الصين قد شهدت على امتداد سنوات فى التسعينيات حملات شعواء الفساد، شملت مئات الألوف من الأشخاص من بينهم عدد كبير من المسئولي الحزب والحكومات الإقليمية، وحكومات المقاطعات وبلديات المدن والقرى. وصد أحكام رادعة ضد من أدينوا بتهم الفساد شملت السجن لفترات متفاوتة، والعز المناصب، والحرمان من المعاشات، كما صدرت ألوف الأحكام بالإعدام.

وخلال حملة مكافحة الفساد التى استمرت حوالى ست سنوات، طردت الس الصينية قرابة ١٢٥ ألف شخص من عضوية الحزب الشيوعى الحاكم، بعد تحق شملت مئات الألوف من المسئولين فى اتهامات تشمل الرشوة وتبديد المال العام.

وإلى جانب هؤلاء، تلقى حوالى ٦٧٠ ألف مسئول عقوبات تأديبية.

ولعل هذه الأرقام لا تسبب لك انزعاجا كبيرا، فعدد أعضاء الحزب الشيوعى مليون عضو.

وفى الوقت الذى كانت السلطات الصينية تطبق فيه هذه الأحكام، كانت عينها الفوضى الضاربة التى كان من الممكن أن تشهدها هذه البلاد المترامية الأطر المتعددة الأعراق، الكبيرة العدد بشكل غير تقليدى.

وقال المسئولون وقتها بصراحة: إن الفساد الذى استشرى فى البلاد يؤثر تـ مباشرا على استقرار الصين. وأشارت التقديرات وقتها إلى أن المحاكمات شملت مسئول كبير تبدأ مناصبهم من مستوى حكام المقاطعات. وامتدت حملات مكا الفساد لتشمل فرض حظر لمدة ٣ سنوات على بناء منشآت جديدة لمجلس بلدية ؛ أو منظمات الحزب الشيوعى فى المدينة. وأشارت صحيفة «تشينا ديلى» فى يونيو

١٩٩٧ إلى أن لجنة الانضباط فى مقر الحزب ببكين قررت إلغاء ١٨ مشروعا جديدا لبناء مكاتب فى العاصمة.

كما تقرر إلغاء خدمة الاتصالات الدولية فى التليفونات التى يستخدمها المسئولون على المستويين المتوسط والعالى. وشملت القرارات إلزام صغار المسئولين بدفع فواتير التليفونات لو تجاوزت المخصصات الحكومية، وهى ما يعادل ١٠ دولارات شهريا.

وعلى الرغم من الازدهار الاقتصادى الذى تشهده الصين منذ سنوات، والذى يكاد يمكنها من الانضمام إلى نادى الكبار فى دنيا الاقتصاد اليوم، فإنها لم تستطع التغلب على مشكلة الفقر التى باتت إحدى المشكلات الصعبة المعقدة التى تواجه البلاد. وتزداد المشكلة صعوبة فى الوقت الذى يترك فيه الملايين وظائفهم بعد تطبيق آليات السوق على الشركات والمصانع المملوكة للدولة. وفى الوقت نفسه، يشعر سكان الريف بأن الدنيا تتغير من حولهم، وأن الدخول ترتفع فى المدن فيهاجرون إليها بالملايين من الشبان والفتيات. وكل ذلك يجعل مشكة الفقر تزداد وطأة وصعوبة.

وقد رأيت شبانا ينامون تحت الكبارى فى بكين، لأنهم لا يجدون وظائف، أو مساكن. وأصبحت هناك مشكلة مشردين فى المدينة بعد أن ولت أيام إخفاء الرأس فى الرمال كالنعامة، ففى تلك الأيام كانت السلطات تقبض على المشردين، وتنفيهم إلى المناطق النائية إلى غير رجعة. وتشير التقديرات إلى أن عدد فقراء الصين الذين لا يجدون المأوى، أو الوظيفة، أو أى مورد رزق قد ارتفع إلى أكثر من مائة مليون شخص.

وكعادتها، اهتمت السلطات الصينية بهذه الظاهرة، وبذلت جهودا كبيرة للحيلولة دون استفحالها، وتطويق تداعياتها، وتدخلت بأكثر من طريقة لتخفيف الأعباء عن كاهل الفقراء، ولكن المخصصات المالية التى ترصدها لهذا الغرض كانت غير كافية. ولتحقيق الهدف المنشود طالبت السلطات القادرين من الصينيين، خاصة رجال الأعمال، بالتبرع للقضاء على ظاهرة الفقر. فالجهود الحكومية للقضاء على هذه الظاهرة بطيئة جدا وغير فعالة على النطاق الواسع المطلوب. وقد ساعدت السلطات الصينية سبعة ملايين شخص يعيشون فى المناطق الريفية على الخروج من دائرة الفقر فى الفترة من عام

١٩٩١ إلى عام ١٩٩٥ . لكن هذا العمل على الرغم من أهميته لم يخفف من وطأة المشكلة التى تتسم بتعقيد شديد فى المناطق الجبلية والصحراوية.

وتبلغ قيمة المساعدات التى يجب أن يحصل عليها الفقير للوفاء باحتياجاته الأساسية من الطعام والملبس ١٥٠٠ يوان (ما يعادل ١٨٠ دولارا) ولكن الدولة تقدم له ٧٠٠ يوان فقط.

الشرور الستة

لكل ذلك كان منطقيا وطبيعيا أن تعلن الصين الحرب على ما أسمته «الشرور» الستة، وهى: المخدرات، والإباحية، والدعارة، وخطف الإناث، والقمار، والإيمان بالخرافات. وفى بداية حملتها قالت السلطات الصينية إن هذه الشرور تشكل تحالفا ضد التنمية، وضد التحديث الجارى فى الصين منذ بداية الانفتاح الاقتصادى عام ١٩٧٩ .

وتهتم الحكومة بصورة كبيرة بمكافحة الجريمة لتحافظ على سيادة القانون، والنظام العام. وكان نظر الحكومة قد تحول بصورة رئيسية صوب مكافحة الجريمة بعد مقتل النائب البارز «لى بى ياو» فى فبراير عام ١٩٩٦ بأيدى مجموعة من اللصوص اقتحموا مسكنه، واعتبرت السلطات هذا الحادث موشرا إلى تردى الوضع الأمنى بالصين.

وتشن السلطات حملات مشددة على عصابات الغش والتزوير منعا لترويج السلع المغشوشة والشهادات الحكومية المزيفة والعملات المزورة، وتستهدف هذه الحملات أيضا المحتالين الذين يبيعون الوهم لأصحاب المصالح بعد أن يتظاهروا بأنهم مسئولون بجهاز أمن الدولة، أو تربطهم صلة بكبار المسئولين وأولادهم. وبين وقت واخر تحذر بعض الصحف القراء من التجار الجشعين، وأصحاب التصاريح ولوحات السيارات المزورة، والسلع المغشوشة مثل السجائر، والمشروبات الروحية، والادوية، فضلا عن تزوير العملات الأجنبية والمحلية، وأيضا المواد الكيميائية والأسمدة اللازمة للزراعة.

واستجابة لضغوط أمريكية هائلة، بدأت الصين حملات مكثفة لمكافحة جرائم السطو على الملكية الفكرية وحقوق المؤلفين، بعد ان تجاوزت هذه الجرائم كل مدى ممكن،

وصارت الموسيقى والأفلام والكتب الأمريكية نهبا للتجار وأصحاب الشركات العاملة فى هذه المجالات. وخلال هذه الحملات التى أسفرت عن إغلاق العديد من المصانع والشركات والمكاتب، تبين أن هناك غشا واسع النطاق للسلع الأجنبية. ومع ذلك مازال سكان العاصمة، خصوصا فى الحارات والشوارع الضيقة، يرون كالعادة الباعة الجائلين على دراجاتهم وهم يبيعون السلع المغشوشة، خصوصا السلع الاستهلاكية.

ومن المفارقات الساخرة أن هؤلاء الباعة الجائلين يدققون فى العملات التى يقبضونها ثمنا لسلعهم المغشوشة خشية أن تكون عملات مزورة.

ووسط هذه الحملات كانت هناك أخبار سعيدة تذيعها السلطات الصينية بين وقت وآخر، وكان منها هذا النبأ ذات يوم غير بعيد: حققت الحملة على الفساد فى الصين تقدما كبيرا، فقد أعلن أكثر من ١٧٢ ألف مسئول فى الحكومة والحزب، فى الأقاليم ومجالس البلديات ومناطق الحكم الذاتى، عن الهدايا التى حصلوا عليها فى العام الماضى، وسلموها للسلطات العامة!

ولم يكن غريبا فى ضوء هذه المشاكل والقلاقل والمخاوف السائدة على نطاق واسع فى المجتمع الصينى أن تشير التقارير إلى أن شعب الصين واحد من أكثر شعوب العالم تعاسة، ويتضح ذلك من معدل الانتحار السنوى الذى يفوق نظيره فى أمريكا أو انجلترا. وتبين التقارير أيضا أن الصين هى البلد الوحيد فى العالم الذى يزيد فيه معدل الانتحار بين النساء على نظيره بين الرجال.

ويقدر عدد المنتحرين فى الصين خلال السنوات الست الماضية بحوالى مليونى شخص. ويبلغ معدل الانتحار السنوى ٣٠ لكل ١٠٠ ألف نسمة. واللافت للنظر أيضا أن ٧٥٪ من حالات الانتحار تحدث فى الريف، بخلاف ما تشهده بلدان الغرب التى تبين الإحصاءات فيها أن الانتحار أكثر شيوعا بكثير بين سكان المدن.

ويعزو الخبراء الصينيون ارتفاع معدلات الانتحار بين النساء إلى استمرار معاناة المرأة الريفية وشقائها على الرغم من تحسن الأوضاع المعيشية للملايين من سكان القرى بفضل الإصلاحات الاقتصادية التى أطلقها الزعيم الراحل دنج شياو بنج.

ويقول خبير غربى زار الريف الصينى إن الرجال يرحلون بحثا عن العمل فى المدن، ويتركون زوجاتهم تحت رحمة أسرة الزوج التى غالبا ما تكون قاسية. وفى حالات أخرى تتحمل الزوجة وحدها المسئولية عن أعباء تنشئة الأطفال والعمل فى الحقل.

وتنشر مجلة نسائية واسعة الانتشار فى الصين مقالا أسبوعيا بعنوان «لماذا يقدمن على الانتحار؟» لتسليط الضوء على هذه المشكلة، وأسبابها، وعرض تفاصيل عن أوضاع النساء البائسة فى الريف ومشكلاتهن الاجتماعية.

أما أسباب انتحار الرجال فهى مختلفة، مثل انتحار فلاح عن طريق تجرع مبيد حشرى لأنه رزق بطفلة ثانية، واستنفد فرص إنجاب طفل ذكر. وفى كثير من الأحيان يكون سبب انتحار هذا الشاب هو أنه لم يعد قادرا على مواجهة والديه، فهو يشعر بالخجل من والديه لأنه لم يستطع إنجاب ذكر!

وتقول تقارير غربية إن نسبة كبيرة من محاولات الانتحار فى الصين تنتهى بالوفاة بسبب توافر مبيدات الحشرات على نطاق واسع، وسوء الرعاية الطبية.

الفصل الثانى

معجزة: الشيوعية تنافس الرأسمالية

القواعد العلمية والموضوعية تقول إن من عوامل نجاح الاستثمار وجود بيئة قانونية صحية للنشاط الاستثمارى. وكلما كان الإطار القانونى للاستثمار الأجنبى، أو الوطنى، سهلا ومبسطا، أقبل المستثمرون بأموالهم، واطمأنوا على مشروعاتهم. فكثرة القوانين وتشعبها وتداخلها يجعل البيئة الاستثمارية صعبة الفهم، شديدة المراس، وبالتالى يتجنبها المستثمرون إلى بيئات استثمارية أفضل.

ولقد لمست في الصين ـ من واقع روايات وشهادات عديدة سمعتها من خبراء ومراقبين ـ أن هناك قاعدة راسخة جعلت الصين قبلة للمستثمرين الأجانب، هى تبسيط الإجراءات والحزم فى تطبيقها. والقواعد القانونية واللائحية التى تضعها الصين للاستثمار سهلة ومريحة، وذلك على النحو التالى:

- ضريبة الدخل على أى مشروع ١٥٪ منه ولاتفرض ضرائب على أى مشروع لم يدخل مرحلة تحقيق الربح.

- تعفى من ضريبة الدخل، وأى ضرائب محلية إضافية، فى العامين الأولين (بعد عام تحقيق الربح) المشروعات العاملة فى مجالات التصنيع، والنقل، والزراعة، وتنمية الغابات، وتربية الحيوان، بشرط أن تكون فترة عملها ١٠ سنوات أو أكثر. ثم تعفى من ٥٠٪ من الضريبة فى الأعوام الثالث والرابع والخامس.

●● تمنح إعفاءات ضريبية للمصانع التى تبلغ نسبة صادراتها ٧٠٪ من إنتاجها ، وللمصانع التى تتخصص فى مجال التكنولوجيا المتطورة.

●● يسمح للمستثمرين الأجانب الذين يعيدون استثمار أرباحهم فى الصين لفترة لا تقل عن ٥ سنوات، باسترداد ٤٠٪ من ضريبة الدخل المسددة خلال الفترة الجديدة لإعادة استثمار أموالهم، وتزداد نسبة الإعفاء بالنسبة للمشروعات التى تتعامل فى استثمارات أجنبية تزيد على ٥ ملايين دولار أمريكى.

وبموجب قوانين الاستثمار فى شين تشين يسمح بتنفيذ مشروعات مشتركة صينية - أجنبية، أو مشروعات مملوكة بالكامل للأجانب (شركات ذات مسئولية قانونية محدودة) أو بقيام الجانب الصينى بشراء المعدات والتكنولوجيا والمواد الخام من مستثمرين أجانب، من خلال قروض تسدد على أقساط. كما تأخذ الاستثمارات شكل التعاون فى التصنيع والتجميع باستخدام مواد خام ومكونات وقطع غيار يقدمها الشريك الأجنبى، أو بتأجير المعدات من شركات دولية.

وتتمتع شين تشين - كغيرها من المناطق الاستثمارية والمناطق الاقتصادية الخاصة - بدرجة كبيرة من الاستقلال عن الحكومة المركزية فى مجال اتخاذ القرارات الاقتصادية والإصلاحات، بموجب تعليمات الزعيم الراحل دنج شياو بنج صاحب مبادرة الإصلاح الاقتصادى فى الصين، التى أدى تنفيذها فى النهاية إلى تحول المناطق الخاصة إلى ما يشبه «الدول المستقلة».

وترتبط هذه المناطق بعلاقات على درجة غير قليلة من الاستقلالية وحرية اتخاذ القرار مع الدول الأخرى، وذلك لكى تقل فرص البيروقراطية فى عرقلة عملية التحديث الاقتصادى.

وتولى الحكومة الصينية أهمية بالغة لجذب المستثمرين من المغتربين الصينيين، وتقدم جميع التسهيلات لإغرائهم بالاستثمار فى وطنهم الأم، خاصة فى مناطق الاستثمار المفتوحة والمناطق الاقتصادية الخاصة. ويتابع مجلس الدولة الصينى (مجلس الوزراء) ذلك عن كثب، وينظم برامج زيارات تتيح للمغتربين الصينيين الوقوف على فرص الاستثمار فى بلادهم.

وعلى الرغم من ذلك فإن الصين لا ترى ضوءا باهرا عند أقرب نقطة على طريق مستقبلها. وقد لمست من مقابلاتى خلال زيارتى لبكين، والتى شملت أكبر المسئولين وفى مقدمتهم رئيس الحكومة رونج جى، أن التخوف من المستقبل والتحسب له أمر قائم فى الدوائر السياسية الصينية. وكانت الصين قد رفعت منذ قرابة عامين شعار «القرن القادم لن يكون سهلا». وتوقعت الدوائر الصينية أن يمر قرن آخر على الأقل قبل أن تتمكن الصين من اللحاق بركب الدول المتقدمة.

فالصين مثلما تنتهز فرص النجاح والتقدم على خير وجه، لا تدير ظهرها للتحديات، وقد ظهر فى العاصمة تقرير بعنوان «الفرص والتحديات» حول أهداف التنمية الاقتصادية التى بدأت منذ الانفتاح، واستراتيجية التنمية خلال القرن الحادى والعشرين، وقد أصدرت هذا التقرير أكاديمية العلوم الصينية، وطرحت فيه عبر تفاؤل مشوب بالتحفظ رؤيتها لما ينتظر الصين خلال السنوات المائة القادمة!.

ولكنها أرفقت بهذه الرؤية ما يمكن أن نسميه «وصفة متكاملة لمستقبل الصين».

ويتوقع التقرير أن يشغل إجمالى الناتج القومى الصينى المرتبة الأولى بين إجمالى النواتج القومية لدول العالم خلال الفترة بين عامى ٢٠٢٠ و ٢٠٣٠. ومعنى ذلك أن الاقتصاد الصينى سوف يصبح خلال ٢٥ سنة على وجه التقريب، أضخم اقتصاد فى العالم، سابقا الاقتصاد الأمريكى، وكذلك الاقتصاد اليابانى.

وليست أكاديمية العلوم الصينية وحدها هى التى تتنبأ بذلك، بل إن دراسات غربية عديدة وصلت إلى النتيجة نفسها منذ سنوات، ولاتزال نتائج هذه الدراسات صحيحة إلى اليوم على الرغم من أزمة الانهيار المالى فى آسيا. فهذه الأزمة لم تصب الصين بمثل ما أصابت النمور الآسيوية الأخرى. صحيح أنها أبطأت النمو الاقتصادى، وجعلت معدله السنوى ٦٪ بعد أن كان أكثر من ٩٪، ولكن نمو أى اقتصاد بمعدل ٦٪ يعتبر إنجازا هائلا بدرجة لا تطمح إليها دول كثيرة فى العالم.

ويشير تقرير الأكاديمية الصينية، الذى قوبل باهتمام كبير فى الدوائر الصينية، إلى أن النمو الاقتصادى سيبدأ فى التباطؤ بين عامى ٢٠٠٤ و ٢٠٠٥، وأن نصيب الفرد من

إجمالى الناتج المحلى بالإضافة إلى بعض المؤشرات الأخرى المهمة الخاصة بالتنمية الاقتصادية والاجتماعية ستكون مساوية فى عام ٢٠٥٠ لتلك التى ستتمتع بها الدول المتقدمة فى عام ٢٠٠٠ (أى بتأخير نصف قرن عنها) وسوف يتطلب الأمر نصف قرن آخر أو أكثر للحاق بها.

ويقدر التقرير متوسط معدل نمو الناتج المحلى بـ ٩,٣٪ خلال سنوات التسعينيات، ثم يتوقع أن يهبط إلى ٨٪ فى السنوات العشر الأولى من القرن الحادى والعشرين ثم إلى ٧٪ من ٢٠١١ إلى ٢٠٢٠، وينتظر أن تطرأ عليه بعد ذلك تراجعات تدريجية فى الوقت الذى يستمر فيه إجمالى الناتج القومى فى النمو. ولعل الانخفاض الذى حدث فى معدل النمو فى السنوات الأخيرة من التسعينيات سوف يكون له أثره السلبى على هذه التوقعات، ولكن التأثير لن يكون هائلا أو عكسيا، بل إن الفرص متاحة لنمو صينى متسارع مرة أخرى مع بداية القرن ٢١ لأن مؤشرات النمور الآسيوية الأخرى تقول إنها ستستعيد جزءا من قوة الدفع الاقتصادى فى أول القرن ٢١ أو قبل ذلك بقليل.

وقد اقترح التقرير «سيناريو» يتعين على بكين اتباعه، إذا أرادت ألا تتخلف كثيرا عن ركب الدول المتقدمة، أو إذا أرادت أن تسبقها أيضا، وذلك على النحو التالى:

- استثمار الفرص التاريخية المتاحة (متمثلة فى درجة النجاح التى تحققت من سياسة الانفتاح) والاستفادة من دروس التنمية الاقتصادية فى دول أخرى كثيرة (وربما يكون المقصود بهذه الدول اليابان وكوريا الجنوبية على سبيل المثال).
- لدى الصين جميع المقومات الموضوعية والذاتية المطلوبة لتحقيق نمو اقتصادى سريع، بما فى ذلك : وضع داخلى مستقر، وعلاقات سلمية مع العالم، ومعدلات نمو سريعة منذ عام ١٩٧٨، وحكومة مركزية ملتزمة بالتنمية الاقتصادية.
- وأوصى التقرير بالاهتمام بالتصدى للفساد بشكل خاص، كما حذر من اتساع الهوة بين الفقراء والأغنياء، والفجوة بين المناطق الحضرية والريفية، وبين الأقاليم الصينية المختلفة، ودعا إلى العمل على مواجهة أى أزمة محتملة فى الطاقة التى تلزم للتصنيع، وطالب بالحرص على استصلاح الأراضى لتوفير الغذاء لمئات الملايين من أبناء هذا البلد الشاسع.

ولكن التقرير أشار إلى أن الصين تواجه بعض المصاعب فى سعيها لأن تصبح دولة متقدمة، وعلى رأس هذه المصاعب:

- احتمال تعرض الاستقرار السياسى والاجتماعى للخطر، وهما شرطان لاستمرار النمو الاقتصادى. وكانت الصين قد تعرضت لموجات من الفوضى والاضطرابات طوال عشر سنوات، بين عامى ١٩٦٦و ١٩٧٦، فيما سمى «بالثورة الثقافية».
- قلة الاحتياطى الثابت من الموارد المعدنية.
- الخلل الذى لايزال قائما فى البنية الأساسية والذى يسبب اختناقات لعملية التنمية.

واقترح التقرير وضع نظم للحفاظ على الموارد، وضبط الاستهلاك. ولحماية التنمية الاقتصادية، أوصى بالمزيد من الاستثمارات فى مجال البحث العلمى والتكنولجى، واستمرار الضوابط الصارمة فى مواجهة الزيادة السكانية، وتحسين سيطرة الدولة على الاقتصاد وتوجيهه لكبح جماح الآثار الجانبية الناجمة عن توسعه بصورة هائلة.

والحقيقة أن هذا التقرير فى حد ذاته يثبت أن القيادة الصينية شبت عن الطوق، وأنها صارت تتحمل مسئولية حقيقية فى مجال التنمية والتقدم فى الداخل، ومسايرة ركب التنمية فى العالم. فالتقرير على الرغم من مضى أكثر من عامين على صدوره، أثبت أنه سليم، وأن الأساس الذى بنى عليه كان صحيحا، أى أن معلوماته صحيحة، وموثقة وذات دلالة.

الصين أكبر علامة استفهام

قبل سنوات الانفتاح كان الصينيون يرفضون كشف المعلومات الحقيقية عن بلادهم، ويحتفظون حولها بغلالة كثيفة من السرية والغموض. وقد ظلوا على هذا المنوال عشرات السنين. وقد بقى حتى فترة قريبة ماضية نوع من عدم التصديق سائدا بين الناس فيما يتصل بالصين. وحين أذيع هذا التقرير بتقديرات ومتطلبات التقدم فى الصين، قال البعض إن بكين وهى تذيع هذه الأرقام تتعمد ألا تكون دقيقة. وقال آخرون

إن الأمر الأرجح هو أن الحرص الشديد من جانب الصينيين يدفعهم إلى إذاعة تقديرات أقل من الواقع أو المتوقع لمعدلات نموهم، فيذيعون توقعات أميل للتشاؤم فيما يتعلق بالمدى الزمنى المنتظر لتحقيق أهدافهم. وحجة هذا البعض هى أن الصينيين لا يريدون أن يطالبهم أحد بتحمل أعباء دولية باعتبار أن بلادهم لاتزال دولة نامية لم تنضم بعد إلى مصاف الدول المتقدمة. وكذلك حتى لا تدرج فى قائمة الدول المانحة للمساعدات والقروض، ولكى يسهل عليها أن تتلقى مساعدات اقتصادية وتكنولوجية من الخارج.

ومنذ سنوات قلائل وقف جيمس بيكر وزير الخارجية الأمريكية الأسبق فى الاجتماع السنوى لمعهد الصحافة الدولى فى سول ليعرض رؤيته لما ينتظر آسيا، فقال: «من بين جميع علامات الاستفهام التى تحيط بمستقبل الآسيويين تعتبر الصين أكبر علامة استفهام فى هذه القارة الشاسعة!».

وقال بيكر أنه يعتقد أن النمو الكبير الذى تحققه الصين قصير المدى، وأنه لن يستمر طويلا، وأنه يتوقع صعود نجم الديكتاتورية العسكرية بعد رحيل دنج شياو بنج، الأمر الذى يمكن أن يفتح الباب للاضطرابات فى أنحاء الصين. ونصح الغرب بانتهاج أسلوب متوازن فى التعامل مع الصين، يجمع بين تأييد الحركات الديمقراطية فى الصين وتقوية وتعميق علاقات الصين الاقتصادية مع العالم الخارجى دون أن تقطع الحبال معها.

ولم يكن ماتنبأ به بيكر صحيحا لأنه لم يكن فى ذلك الوقت قد رأى الفرق بوضوح بين اليوم والأمس فى الصين.

وعلى الرغم من أن الصين تضع ضوابط صارمة لعملية التحول الاقتصادى، وتكافح بقوة حالات الفساد المتصلة بها، فإنها تدرك أن الاستقرار الاجتماعى عرضة للتهديد من جراء الفوارق الكبيرة فى الدخل التى بدأت تظهر بين المواطنين، خصوصا فى المدن. وتدرك القيادة الصينية أيضا أنه لم يعد هناك بديل لتعميق هذه الإصلاحات للوصول بها إلى نهاية المطاف، وهو تطبيق آليات السوق بالكامل مثلما هو الحال فى الدول الرأسمالية الكبيرة كالولايات المتحدة وألمانيا واليابان.

وفى أكثر من مرة أشار الزعيم الصينى جيانج تسه مين إلى خطورة أى اضطرابات قد تقع على الاستقرار الاجتماعى فى البلاد، وحذّر كذلك من خطورتها على عملية التطوير الاقتصادى الجارية منذ سنين. وفى أكثر من مرة ناشد جهاز الشرطة تكثيف جهوده لحماية أمن المجتمع واستقراره.

ومن أقوال تسه مين فى هذا الشأن : إن الفشل فى صيانة السلام الاجتماعى فى الوقت الذى تسعى فيه الصين إلى تعميق الإصلاح سوف يؤدى إلى القضاء على الإنجازات الاقتصادية الأخيرة. وكذلك قوله : إن الاستقرار شرط مهم للإصلاح والتنمية.

وحين يتحدث زعيم الصين عن خطورة تفجر الاضطرابات الاجتماعية فإن ذهنه ينصرف، بصفة خاصة، إلى الخطوة الواسعة التى قطعها المؤتمر الـ ١٥ للحزب الشيوعى الصينى على طريق الإصلاح الاقتصادى، فقد تركزت قراراته على تقليص دور القطاع العام، خصوصا شركاته الخاسرة، وعلى أن يكون عام ١٩٩٨ مرحلة مهمة فى تطبيق هذه القرارات نصا وروحا.

ولأن هذه القضية تنطوى على أهمية كبرى وأولوية قصوى فقد أكد تسه مين أنه مؤمن بضرورة أن يتحمل هو شخصيا - باعتباره الرجل الأول فى القيادة - المسئولية السياسية عن الحفاظ على الاستقرار ومعه جميع أجهزة الدولة والحزب.

ويتجه المسئولون الصينيون فى هذه المرحلة من التطوير الاقتصادى إلى تعزيز برامج الرعاية الاجتماعية للمواطنين الذين تنخفض دخولهم بالمقارنة بالطبقات الجديدة الثرية، ويؤكدون أن هناك حاجة للإسراع ببناء المساكن للمواطنين فى الريف والحضر، فى نطاق خطة إصلاحية فى مجال الإسكان.

وعلى الرغم من أن القيادة الصينية تسير بثقة على درب الإصلاح الاقتصادى، فإنها ترى أن من الأهمية بمكان أن تؤكد بين الوقت والآخر أنها تسير على النهج الذى وضعه رجل الصين القوى الراحل دنج شياو بنج فى مجال الإصلاح فى الداخل، والانفتاح على الخارج، ولاشك أن الشعبية الطاغية التى حازها بنج تعد مصدر مؤازرة للقيادة الصينية الحالية.

ففى عام ١٩٩٧ أقرت هيئة قيادة الصين العليا المتمثلة فى اللجنة الدائمة للمكتب السياسى للحزب الشيوعى الصينى مبادىء الإصلاح والانفتاح. وأعلنت بلسان الزعيم جيانج تسه مين أن إقرار نظرية الإصلاح والانفتاح التى أرساها الزعيم الراحل دنج شياو بنج باعتبارها موجها أساسيا لأيديولوجية الحزب الشيوعى، هو أهم قرارات المؤتمر العام للحزب. وقال تسه مين، الذى يجمع بين رئاسة الدولة وزعامة الحزب وقيادة اللجنة العسكرية المركزية : «كلنا ثقة فى تحقيق الأهداف الكبرى المحددة للقرن المقبل».

أما أهداف القرن المقبل فهى ما يصفه المراقبون بأنه المضى خطوة تاريخية على طريق تثبيت أقدام القوة الصينية الصاعدة. بمعنى أن تصبح الصين قوة عظمى يشار إليها بالبنان.

ولكن هل هناك خلافات بين أعضاء القيادة الصينية حول هذا الهدف العظيم؟

الواقع أننى طرحت هذا السؤال فى أكثر من مناسبة طوال رحلتى للصين، والواقع أيضا أن من حدثونى فى ذلك لم يخفوا وجود بعض الخلافات، وتشير مصادر الحزب الشيوعى إلى أن هذه الخلافات تدور حول خطوات ونطاق التغيير، وعلى الرغم من ذلك فإن هناك اتفاقا عاما على الثوابت، أو الأركان الأساسية للإصلاح.

بل إن تطوير القطاع الاقتصادى فى الصين يحظى بأولوية متقدمة للغاية فى اهتمامات القيادة الصينية، وبالتالى يركز المسئولون على تطبيق الحلول الرأسمالية على المشكلات الاقتصادية، خصوصا فى مجال معالجة أوضاع الشركات الخاسرة. و هناك أشياء رمزية بدأ القادة الصينيون يؤكدونها تدليلا على اختفاء أو انتهاء العقد القديمة، وما كان يسمى «الانضباط الحزبى». فقد لوحظ أن أعضاء اللجنة الدائمة للمكتب السياسى للحزب الشيوعى، وعددهم سبعة، كانوا فى مؤتمر عام ١٩٩٧ يرتدون - باستثناء الزعيم تسه مين - ثيابا غربية كاملة، وقد قدمهم الزعيم الصينى - الذى التزم بالزى التقليدى لأعضاء الحزب - للصحفيين بوصف «الرفاق». وكان تسه مين يقصد بذلك أنهم لايزالون منضبطين ومخلصين حزبيا، على الرغم من الأزياء الغربية التى

يرتدونها. وكان يقصد أن يقول للعالم الخارجى إن الصين صارت جزءا من العالم تعطى وتأخذ، وتؤثر وتتأثر.

وقد سجل المراقبون خلال مؤتمر الحزب أن الوفود القادمة من مختلف أنحاء الصين أبدت اهتماما شديدا بخطة تسه مين زعيم الحزب التى أعلنها فى جلسة الافتتاح حول إدخال إصلاحات جذرية على القطاع العام، وهى الإصلاحات التى وصفوها بأنها سوف تنقل كثيرا من المؤسسات العامة إلى ملكية القطاع الخاص، وبشكل غير مسبوق.

وقد لقيت خطة تسه مين إشادة كبيرة خلال الجلسات المفتوحة التى عقدتها الوفود، وقال المراقبون مرة أخرى إن دعوة رئيس الصين إلى إدخال إصلاحات اقتصادية أكثر عمقا، أعطت الضوء الأخضر للتخلص من عشرات الآلاف من الشركات والمؤسسات المملوكة للدولة بنقل ملكيتها إلى القطاع الخاص، أو إغلاقها نهائيا إذا لم يقبل عليها المستثمرون. وأبدى نواب الشعب الصينى تأييدا كبيرا لخطة تسه مين، خصوصا أن خطة الإصلاحات تشمل مجالات عديدة.

وقد كان المؤتمر - الذى يعقد كل خمس سنوات - مهما جدا من ناحية تأكيد الاستقرار السياسى فى البلاد، وذلك على الوجه التالى :

- كان هذا المؤتمر أول مؤتمر يعقد بزعامة جيانج تسه مين منذ توليه رئاسة الدولة وزعامة الحزب الشيوعى، بعد وفاة دنج شياو بنج، وبالتالى كان تأييد وإقرار خطة تسه مين من جانب النواب أمرا مهما للغاية، من ناحية أنه كان يمثل اختبارا حاسما لمدى نفوذ الزعيم الصينى الجديد فى الحزب والدولة.

- كان واضحا أن زعيم الصين الجديد رتب جيدا أولوياته السياسية من واقع معرفة دقيقة بالواقع الصينى فى مرحلته الراهنة، فقد كان خطابه حازما فيما يتعلق بمكافحة الجريمة والفساد فى الصين. وكان القصد أيضا أن يفهم خصومه من المتشددين أنه لم يقدم أى تنازلات فيما يتصل بالدعوة إلى الديمقراطية. وقد قال : إن الحزب الشيوعى وحده هو الذى يمكنه قيادة الشعب الصينى لجعل الصين أكثر قوة وأعظم ازدهارا.

● كان من المهم أيضا أن تشيد قيادة الجيش الصينى بخطة تسه مين التى تقضى بتخفيض عدد الجيش بنحو ٥٠٠ ألف جندى خلال السنوات الثلاث التالية (تنتهى بنهاية عام ٢٠٠٠). فقد أعلن الجيش موافقته الرسمية على خطة زعيم الصين.

● تأكد الاقتناع بخطة الإصلاح الاقتصادى للزعيم تسه مين خلال هذا المؤتمر مرة أخرى من خلال ضم رونج جى - نائب رئيس الوزراء مسئول برنامج الإصلاح الاقتصادى - إلى اللجنة الدائمة للمكتب السياسى للحزب. وقد ثارت التوقعات وقتها أن رونج جى سوف يصبح رئيسا للوزراء، وهو ما تحقق فعلا. وقد حل محل رئيس الوزراء لى بنج الذى شغل منصب رئيس البرلمان.

ومن الطبيعى أن التأييد الذى ناله قائد الصين الجديد كان قائما على أساس واقعى، فقد أعلنت لجنة الدولة للتخطيط أن الصين تمكنت فى السنوات الأخيرة من زيادة قوتها الاقتصادية عن طريق دفع الاستثمارات وإقامة مشروعات جديدة مهمة، خصوصا فى مجال الصناعات التكنولوجية المتطورة.

ومن المؤكد أن الإصلاح الاقتصادى مؤلم أينما يكون، لأنه يتضمن إغلاق بعض الشركات، وإدماج شركات أخرى فى شركات أكبر أو أفضل إدارة، كما يتضمن نقل المشروعات إلى الملكية الخاصة، بما يعنيه ذلك من الاستغناء عن أعداد كبيرة من العاملين، وانتقالهم إلى جداول العاطلين أو مستحقى إعانات البطالة.

النمو البطىء كارثة

من المؤكد أيضا أن الإصلاح الاقتصادى يسبب ألما للقادة فى الوقت نفسه، لأنهم يودون النجاح الكامل لاختياراتهم فى حين أنهم لا يكونون متأكدين من هذا النجاح لارتباطه عادة بعوامل كثيرة، بعضها خارج عن الإرادة، خصوصا فيما يتعلق بالأسواق الخارجية، وما يحيط بها من ظروف غير معروفة مسبقا.

وفى مرحلة قريبة ماضية، عبر الزعيم جيانج تسه مين ورئيس الوزراء رونج جى عن قلقهما الشديد إزاء خطوات الإصلاح، وقررا إرجاء بعضها عندما شعرا بأن بطء النمو

فى الاقتصاد، وزيادة معدل البطالة بشكل واسع النطاق يعدان مخاطرة لا يستطيعان تحمل مسئوليتها. وكان الاعتقاد الشائع هو أن الطبقة العمالية أيضا غير قادرة على تحمل كل هذه المتاعب.

وقد دفعت هذه التطورات المراقبين الغربيين إلى الاعتقاد بأن الزعيم الصينى تسه مين، ورونج جى رئيس الوزراء يعتبران النمو البطىء كارثة على الصين، وبالتالى على منصبيهما. وقال هؤلاء المراقبون إن هذا القلق الكبير ناجم عن أنه ليس بوسع أحد التأكد مقدما من عواقب هذه الأوضاع الاقتصادية.

وذهب البعض إلى حد المغالاة، فوجدنا كتّابا فى مجلة «الإيكونوميست» البريطانية المؤثرة على نطاق واسع، يقولون : إن مخاوف الرجلين من ركود اقتصادى وبطالة واسعة الانتشار، لها ما يبررها، فتراث ٥٠ عاما من الشيوعية يوضح أن الحزب الحاكم ليست له أى سلطة فكرية، أو أخلاقية على شعبه وأن سلطته مرتكنة إلى المشاعر القومية فحسب، فالرخاء هو مصدر شرعية الرئيس، وإذا تعرض هذا المصدر للخطر، فهناك فقط المشاعر القومية التى يمكن الركون إليها.

وبعض ما يقوله هؤلاء الكتّاب فيه مبالغات لا شك فيها، وذلك على الرغم من أن قادة الصين يلجأون بين الوقت والآخر إلى الخطاب الذى يرتكن إلى المشاعر القومية. فإلى جانب هذا النوع من مخاطبة الجماهير، وكذلك مخاطبة المسئولين على المستويات الأدنى، هناك حوار مفتوح ينعقد بين الحين والحين، وتشارك فيه وسائل الإعلام المختلفة، ويدور حول أهم بدائل القرار الاقتصادى، وكذلك حول المخاطر التى تنطوى عليها القرارات والاختيارات الاقتصادية.

وقد انعقد حوار من هذا النوع فى عام ١٩٩٥، واستمر ثلاث سنوات، واتسم هذا الحوار بأنه الأكثر انفتاحا منذ بدء التجربة الإصلاحية الصينية. ولما اشتدت المخاوف ووقعت كوارث الانهيار المالى فى النمور الآسيوية عاد خطاب الحزب إلى شكله القديم، أعنى من خلال توجيه نداءات للتوحد القومى فى مواجهة التهديدات التى يتعرض لها الوطن بسبب الأزمة المالية الآسيوية.

وفى صيف عام ١٩٩٨ ارتفعت الشعارات القومية مرة أخرى بأعلى صوت فى مواجهة الفيضانات التى شردت الملايين، وقتلت بضعة آلوف من الصينيين، ودمرت محاصيل زراعية ومنشآت بمليارات الدولارات. ومع أن أزمة الفيضانات بدت شغلا شاغلا دون غيره للقيادة والشعب فى الصين، فإن الدراسات المتأنية حول النمو الاقتصادى قد استمرت، واستمر معها كذلك تحديد معدل تنمية مستهدف، وكان ٨٪، وذلك فى الوقت الذى اعترفت فيه القيادة الصينية بأن معدل النمو قد تباطأ فى السنة السابقة، وأنه لم يزد على ٦,٥٪. ومع ذلك أيضا، حشد القادة الصينيون الشعب وراءهم من أجل تحقيق هدف الوصول بمعدل النمو إلى ٨٪.

ولا شك عندنا فى أن الحشد الوطنى أمر ممكن فى الصين على الرغم من التفاوت الجديد بين الطبقات والفئات فى الدخول. وسبب ذلك ببساطة أن مئات الملايين من الصينيين يدركون اليوم أنهم أحسن حالا من سنوات الشيوعية التقليدية، التى جعلتهم يرتدون أزياء موحدة، ويحصلون على رواتب وخدمات متقاربة، وحرمتهم من مغريات الحياة المختلفة. فالشعب الصينى يعيش اليوم فى وفرة لم يرها من قبل، بعد أن ظل عشرات السنين واقفا فى الطوابير من أجل الطعام والكساء.

ومع هذا، فإن هناك سؤالا يتعلق بطريقة الانتقال من حال إلى حال، أى من الشيوعية إلى الرأسمالية - على سبيل المثال - أو من الركود الاقتصادى إلى الانتعاش الاقتصادى فى مرحلة من المراحل، فهذا هو ما يشغل بال القيادة الصينية.

فالنمو المستديم يتطلب نقل المشروعات الكبيرة، والبنوك المملوكة للدولة، إلى الملكية الخاصة، كما يتطلب استخداما حرا للعاملين عن طريق إلغاء نظام التسجيل المألوف لطالبى الوظائف، ثم البحث لهم عنها. وتتطلب التنمية الأبعد مدى أيضا توفير عامل الأمان للملكية الخاصة، بل فرض درجة من الحصانة لها، تتيح الاستثمار الواسع النطاق للأموال الخاصة لدى الصينيين فى الداخل وأقرانهم فى الخارج، وهم أصحاب أموال طائلة فى كل مكان حول العالم.

ولا شك أن هذه الإجراءات تنطوى على آلام اجتماعية واقتصادية جديدة. وعلى سبيل المثال، تواجه الصين خلال السنوات القليلة المقبلة احتمال أن يصل عدد العاطلين

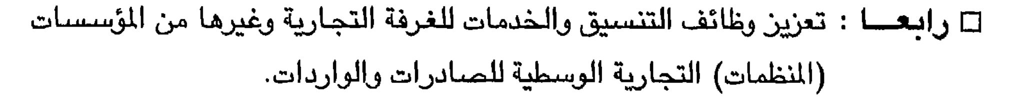
فى البلاد إلى ٣٠ مليون شخص - وسوف أشير تفصيلا فى وقت لاحق إلى مشكلة أخرى تواجه الصين، وهى أن هذا البلد الضخم تدب الشيخوخة فى أوصاله مبكرا، وذلك بسبب سياسة «طفل لكل أسرة فى المدينة وطفلان فى القرية». وهذه السياسة هى عماد تنظيم الأسرة على الطريقة الصينية.

صحيح أن التنمية الاقتصادية قد أسهمت فى الحد من الإنجاب بين الأسر التى تقيم فى المدن، خصوصا المدن الكبرى، وصحيح أيضا أن السلطات لم تعد تعانى لإقناع الناس بهذه السياسة فى المناطق الحضرية، ولكن الصحيح أيضا أن المجتمع الصينى سوف يجد نفسه بعد عشرين سنة مثلا يعول مئات الملايين من كبار السن، ووقتها سوف تكون الصين فى أمس الحاجة إلى شبان يخدمون فى الجيش، ويديرون الشركات، ويفلحون الأرض، ويقطعون الغابات، ووقتها لابد أن يكون للسياسة السكانية اتجاه آخر نحو تجديد شباب المجتمع.

وترتبط الصين بعلاقات اقتصادية وتجارية مع ١٢٨ دولة ومنطقة فى العالم. وقد تم تخفيض رسومها الجمركية على ٦٥٣٧ نوعا من الواردات. وبداية من عام ١٩٩٤ حتى عام ٢٠٠٠ سيصل إجمالى قيمة واردات الصين إلى ١٠٠٠ مليار دولار.

وقد اتخذت الصين منذ بداية عام ١٩٩٤ سلسلة من الإجراءات لإصلاح النظام الضرائبى والمالى وسعر الصرف والتجارة الخارجية. ولاشك أن هذه الإصلاحات قد لعبت دورا إيجابيا فى تطوير التجارة الخارجية الصينية، ويتضح ذلك فى خمس نواح هى :

- □ **أولا** : استقرار سعر صرف العملة الصينية بعد توحيد سعر صرفها أمام العملات الأجنبية.
- □ **ثانيا** : تعزيز وتحسين أعمال إدارة التجارة الخارجية.
- □ **ثالثا** : سرعة تحويل آلية الإدارة لمؤسسات التجارة الخارجية وتنشيط هذه المؤسسات.



□ **رابعـــا** : تعزيز وظائف التنسيق والخدمات للغرفة التجارية وغيرها من المؤسسات (المنظمات) التجارية الوسطية للصادرات والواردات.

□ **خامسا** : فجر إصلاح نظام التجارة الخارجية حماسة المجالات المختلفة. فشهدت التجارة الخارجية الصينية تطورا جديدا.

وفى تقرير صادر عن وزارة الخارجية الصينية، تشير الأرقام إلى أنه من يناير إلى أغسطس ١٩٩٤ وصل إجمالى قيمة الصادرات والواردات إلى ١٣٧,٨ مليار دولار أمريكى، أى بزيادة ٢٤,٦٪ مقارنة بالفترة نفسها من عام ١٩٩٣، منها ٦٨,٩٥مليار دولار أمريكى للصادرات بزيادة ٣١,٥٪، و٦٨,٨٥مليار دولار أمريكى للواردات.

وأشار التقرير كذلك إلى أنه فى حين كانت العلاقات الاقتصادية والتجارة الخارجية الصينية فى الماضى مقتصرة على التجارة الخارجية والمساعدات الاقتصادية الخارجية، فإنها أصبحت اليوم تشمل التجارة الخارجية والتجارة الصناعية والتجارة التكنولوجية.

وأكد التقرير أيضا أن الحكومة الصينية تركز جهودها لتحسين كل من الأعمال التالية:

□ **أولا** : مواكبة تطور اقتصاد السوق الاشتراكية، وتغيير الأفكار القديمة، ورفع مستوى وضع السياسات المهمة ومستوى الإدارة.

□ **ثانيـــا** : رفع روح المنافسة، وتطوير إدارة التجارة الخارجية بتعديل وسائل نظام الرسوم الجمركية ونظام صرف العملة الصينية وأسعار الفائدة وغيرها من الأساليب الاقتصادية والقانونية، وتعجيل اندماج التجارة الصينية مع الاقتصاد العالمى.

□ **ثالثـــا** : تحقيق الارتباط الوثيق بين التجارة والصناعة والزراعة والتكنولوجيا والمصارف، والإسراع بالتقدم التكنولوجى، ورفع جودة المنتجات المصدرة إلى الخارج.

□ **رابعـــا** : وضع الاستراتيجية الكاملة لتطوير التجارة الخارجية الصينية.

□ **خامسا** : وضع الأسس القانونية لتنفيذ مشروع كبير للاقتصاد والتجارة.

وبعد تطبيق الصين لسياسة الانفتاح والإصلاح منذ عام ١٩٧٩ شهدت العلاقات الاقتصادية والتجارة الخارجية تغيرا جذريا، وتطورت تطورا مطردا، وتعددت مجالاتها مثل فتح الباب أمام الاستثمارات الأجنبية وتنظيم المشروعات خارج الصين، والتعاون فى مجال القوى العاملة مع الدول الأخرى، والاستثمار فى الخارج، وتصدير الفنون والتكنولوجيا، وتطوير التعاون الثنائى مع الدول المختلفة.

وكانت قيمة الصادرات والواردات للتجارة الخارجية الصينية فى عام ١٩٥٠ حوالى ١,١٣٥ مليار دولار فقط. أما فى عام ١٩٩٤، فقد تجاوزت القيمة ٢٠٠ مليار دولار أمريكى، بزيادة ١٧٦ ضعفا عما كانت عليه فى عام ١٩٥٠، وبزيادة ٨,٦ ضعف عما كانت عليه فى عام ١٩٧٨ (٢٠,٦٤مليار دولار أمريكى). ومن حيث إجمالى قيمة الصادرات والواردات، ارتفعت مرتبة الصين من الثانية والثلاثين فى العالم (عام ١٩٧٨) إلى المرتبة الحادية عشرة.

ومن خلال علاقات الصين الطيبة مع معظم بلدان العالم، أقامت علاقات تعاون فى المجالين الاقتصادى والتجارى مع ١٢٨ دولة، وساعد ذلك على تشعب وتنوع أسواق الاقتصاد والتجارة الخارجية الصينية.

ولقد لعبت التجارة الخارجية دورا مهما فى تنمية وتطوير اقتصاد الصين، ففى عام ١٩٩٣، مثلا، احتل إجمالى قيمة الصادرات والواردات ٣٧٪ من مجمل قيمة الإنتاج للدولة. كما مثلت الاستثمارات الأجنبية المستخدمة ١٣٪ من استثمارات الأصول الثابتة للمجتمع الصينى.

لقد أثارت سوق الصين الواسعة اهتمام العالم أكثر بعد أن طبقت سياسة الانفتاح والإصلاح. ففى نهاية السبعينيات كان عدد الدول التى لها علاقات تجارية مع الصين ١٠٠ دولة، وقد وصل العدد إلى ١٢٨ دولة. أما عدد الدول التى جاءت إلى الصين للاستثمار، فقد بلغ أكثر من ١٢٠ دولة، وبلغ عدد مشروعات الاستثمارات الأجنبية التى تم عقدها بين الصين والدول الأجنبية أكثر من ٢٠٠ ألف مشروع. وقد تم تخفيض

الرسوم الجمركية على ٦٥٣٧ نوعا من المنتجات التى تستوردها الصين من الخارج، وألغيت رسوم الضرائب التفضيلية للواردات، كما تم تبسيط إجراءات الترخيص لمعظم المنتجات الواردة من الخارج (فى الصين ٥٣ نوعا من المنتجات لا يمكن استيرادها من الخارج إلا بتصديق من الدولة).

وفى عام ١٩٩١ بلغت قيمة الواردات ٦٣,٨ مليار دولار أمريكى، بزيادة ١٩,٦٪ عن عام ١٩٩٠. ثم وصلت إلى ٨٠,٦ مليار دولار أمريكى فى عام ١٩٩٢، بزيادة ٢٦,٣٪ عن عام ١٩٩١. وفى عام ١٩٩٣ بلغت قيمة الواردات ١٠٤ مليارات دولار أمريكى، بزيادة ٢٩٪عن عام ١٩٩٢.

وتشهد الصين مرحلة جديدة لتطورها الاقتصادى السريع. فخلال عامى ١٩٩٢ و١٩٩٣ تجاوز معدل النمو الاقتصادى ١٣٪. وأشار تقرير وزارة الخارجية الصينية إلى أنه فى عام ٢٠٠٠ ستحافظ الصين على نموها السريع بين ٨ ـ ٩٪ سنويا. وتسعى الصين إلى زيادة إنتاجها القومى على أساس تحقيق معدل نمو سنوى ١٦٪، وهى النسبة التى حققتها التجارة الخارجية فى السنوات الماضية.

وقد أشار التقرير أيضا إلى أنه بين عام ١٩٩٤ و عام ٢٠٠٠ سيصل إجمالى قيمة الواردات بالصين إلى ١٠٠٠ مليار دولار أمريكى، سوف تستخدم فى الدعم الفنى المقدم إلى ٢١٠ مشروعات، تشمل مجالات الزراعة والطاقة والمواصلات والبريد والبرق والهاتف والصناعات الميكانيكية والكيميائية والمعادن وصناعة الغزل والنسيج وغير ذلك.

الفصل الثالث

الطريق إلى العالم يبدأ من معبد «الجنة»

يثير تقدم الصين الاقتصادى، عبر معدلات نمو غير مسبوقة، تساؤلات عديدة فى العالم حول ما إذا كان تصاعد القدرات الاقتصادية للصين يمكن أن يفضى فى نهاية المطاف إلى صعود دورها السياسى على الساحة العالمية. وقد لاحظت عبر مطالعاتى للكتابات عن الشئون الصينية فى الصحافة العالمية، وكذلك الكتب التى تصدر عن الصين حول العالم، أن التركيز الأكبر ينصب على الجانب الاقتصادى من تجربة التنمية الصينية، ولكن هذه الكتابات لا تغفل أبدا أن لهذه التجربة الاقتصادية مضامين ذات أهمية سياسية متزايدة.

وتركز الكتابات السياسية عن الشئون الصينية، في مختلف أنحاء العالم، على إمكان - أو احتمال - أن يعقب الإصلاح الاقتصادى الذى طبقته الصين، منذ قرابة عشرين سنة، إصلاح سياسى واسع، كما تركز هذه الكتابات على إمكان أن تعمد الصين إلى استخدام قوتها الاقتصادية المتصاعدة فى إيجاد نفوذ سياسى على الساحة الدولية.

وقد كان من الملاحظ حتى وقت قريب أن تجربة الإصلاح الاقتصادى الصينية قد انطلقت بخطوات واسعة جدا، دون أن تصحبها إصلاحات سياسية ذات مغزى. وإلى

اليوم لا تزال القيادة الصينية تركز على استمرار سيطرة الحزب الشيوعى الصينى على الحكم والسلطة فى البلاد، أو بمعنى آخر أن القيادة السياسية الصينية ظلت حريصة على استمرار سلطة الدولة الكاملة على الاقتصاد الصينى، بما يجعل عملية الإصلاح والانفتاح الاقتصادى خاضعة للإشراف الكامل للدولة، أى أن يظل الحزب الشيوعى بمثابة الجهة القابضة على مختلف التطورات السياسية والاقتصادية فى البلاد.

وانطلاقا من هذا المفهوم تسمى الحكومة الصينية تجربتها الإصلاحية الاقتصادية «نظام السوق الاشتراكية».

وقد أعطت تجربة الإصلاح السياسى والاقتصادى فى الاتحاد السوفيتى السابق - وهى التجربة التى كانت لاحقة لتجربة الإصلاح الاقتصادى فى الصين - المزيد من المصداقية للتجربة الإصلاحية الصينية التى ارتكزت على الفصل الكامل تقريبا بين الإصلاح الاقتصادى والإصلاح السياسى، أى أن يجرى الإصلاح الاقتصادى فى ظل سلطة تتمتع بالانضباط الشديد، من مستوى القمة إلى مستوى القاعدة. فتجربة الاتحاد السوفيتى السابق - بقيادة الرئيس جورباتشوف - فى الإصلاح كانت قد جعلت الإصلاح السياسى مواكبا للإصلاح الاقتصادى، أو سابقا عليه فى بعض النواحى، مما أدى إلى حالة تقترب من الفوضى السياسية، أفضت إلى تفكك الإمبراطورية السوفيتية أولا، ثم معاناة روسيا - الوريث الشرعى للاتحاد السوفيتى - ثانيا.

وألاحظ - للإنصاف - أن تجربة الإصلاح السياسى فى روسيا ليست ناجحة بقدر يثير الإعجاب، أو يثير - مثلا - الإحساس بأن النجاح السياسى يعد تعويضا مناسبا للشعب عن فشل الإصلاح الاقتصادى.

وإذا كان الصينيون قد قمعوا المظاهرات الطلابية المطالبة بالديمقراطية فى ميدان السلام السماوى (تيان آن مين) فإن الرئيس الروسى بوريس يلتسين - المنتخب من الشعب الروسى انتخابا حرا ديمقراطيا - استخدم نيران مدافع الدبابات فى أكتوبر عام ١٩٩٣ فى ضرب مقر البرلمان الروسى الذى تحصن به معارضوه حين تصدى

البرلمان لبرنامجه للإصلاح الاقتصادى. وقد لاحظ العالم كله أن الغرب لم يدافع عن الديمقراطية الروسية بمثلما دافع عن الديمقراطية الصينية!

ويبدو أن الصين ـ وهى موطن الحكمة من قديم الزمان ـ كانت على حق فى هذه النقطة. فالحزب الشيوعى لا يعتبر فقط الحلقة الأساسية فى جهاز الدولة الصينية، ولكنه يمثل أيضا قوة توحيدية. وما أعنيه هنا هو أن تزامن الإصلاح الاقتصادى مع الإصلاح السياسى كان يمكن أن يتسبب فى إضعاف وتآكل سلطة الحزب الشيوعى، مما كان يمكن أن يتسبب بدوره فى إضعاف الدور التوحيدى الذى يلعبه الحزب بين أقاليم الصين. ولذلك يبدو أن القيادة الصينية وجدت ـ منذ بداية عملية الإصلاح الاقتصادى ـ أن هناك ضرورة لتأجيل عملية الإصلاح السياسى إلىٰ أجل يبدو غير مسمى، بانتظار الظرف المناسب فى البلاد.

وعلى هذا الأساس لم تعبأ القيادة الصينية كثيرا برد الفعل الغربى الذى أدان بقوة قمع الحركة الإصلاحية السياسية، التى نظمها وقادها الطلاب الصينيون، والتى بلغت ذروتها فى المظاهرات التى أشرت إليها، فى ميدان السلام السماوى، فى العاصمة بكين فى يونيو عام ١٩٨٩. وقد بدت القيادة الصينية ـ وهى تقمع هذه الحركة ـ عازمة على تحمل النتائج مهما تكن، وذلك فى إطار سعيها للحفاظ على استقرار الأوضاع السياسية الداخلية، والحفاظ على وحدة الصين.

وإذا كانت الصين قد فاجأت العالم فى السنوات العشر الماضية بمعدلات نمو اقتصادى غير مسبوقة، فإنه ليس مستبعدا أن تكون هناك مفاجآت سياسية فى السنوات المقبلة.

وقد كان النمو الاقتصادى الصينى ذا شقين، الأول فى إجمالى الناتج القومى، والثانى فى المستحدثات التكنولوجية. وليس مستبعدا أن تكون المفاجآت السياسية المرتقبة فى اتجاهين أيضا: داخلى وخارجى.

وعلى كل حال هناك مؤشرات على حدوث تغير فى التفكير السياسى الصينى منذ سنوات، خصوصا على مستوى السياسة الخارجية. ويقول بعض المحللين إن تغير

التفكير السياسي الصيني عموما أصبح ضرورة لا غنى عنها، باعتبار أن الأسواق الخارجية تطرح على الدول ذات الاقتصادات الواسعة ضرورات معينة في سياساتها الخارجية، أهمها أن تتسم هذه السياسات بالحركة والنشاط واتخاذ المواقف.

ولو تناولنا مثال العلاقات الصينية ـ اليابانية لتبين لنا الأمر بوضوح.

كانت التجارة قد ازدهرت منذ قديم الزمان بين الصين واليابان. وعبر مئات السنين من التواصل والتبادل التجاري، نقلت اليابان الكثير والكثير من الثقافة الصينية، وأدخلت عليها التعديلات التي تلائم ظروفها وأوضاعها. وكان للثقافة الصينية أثر عظيم على اليابان.

ومع ذلك فإن أحداثا كثيرة أدت إلى الخلاف والنزاع والصراع بين البلدين، ووصلت إلى مستوى الحروب الساخنة التي يصعب على الصينيين نسيان ذكريات بعض منها، خصوصا ما جرى من اليابانيين للصينيين من أعمال قمع واضطهاد واستعباد للنساء. وكل ذلك أدى إلى الحيلولة دون قيام علاقات قوية ذات عائد يذكر للبلدين.

ولكن العلاقات عادت إلى طبيعتها بين الصين واليابان في نوفمبر عام ١٩٧٢، وكان ذلك حدثا تاريخيا. وبسرعة أصبحت اليابان أكبر شريك تجاري للصين التي تجاوزت إندونيسيا حين أصبحت أكبر دولة مستقبلة للاستثمارات اليابانية في آسيا. ثم زادت العلاقات متانة وتشعبت في اتجاهات عديدة.

وهناك أمثلة أخرى..

في أوائل التسعينيات عقدت الصين مصالحة تاريخية مع الاتحاد السوفيتي. وفي الوقت نفسه قامت بتطبيع علاقاتها مع فيتنام، وإندونيسيا، والهند، ومنغوليا، وسنغافورة. والأكثر من ذلك أقامت الصين علاقات مع كوريا الجنوبية التي كانت قد ناصبت بكين العداء منذ اندلاع الحرب الكورية.

وكان لهذه التحركات السياسية شأن كبير، في القارة الآسيوية على وجه الخصوص. فقد أدت إلى إشاعة جو من الاستقرار في القارة، وكان مثل هذا المناخ مهما ومطلوبا لتجارب التنمية والتحديث في القارة، كما كان مهما ومطلوبا للعالم كله

فى وقت كانت فيه تطورات كثيرة على المسرح الدولى تنطوى على تهديد للأمن والسلم الدوليين، خصوصا فى أوروبا، أعنى منطقة البلقان التى شهدت تمزق يوجوسلافيا السابقة فى وقت انهيار الاتحاد السوفيتى.

والفرق لا شك كبير بين السياسة الخارجية للصين بعد نهاية الحرب العالمية الثانية إلى مطلع السبعينيات، والسياسة الخارجية للصين فى نهاية الثمانينيات وأوائل التسعينيات إلى الآن. فكما قطعت الصين الجديدة رحلة صعبة إلى التطور والتحديث، كان لابد أن تحاول الاندماج بشكل إيجابى مع الخارج.

لقد كانت الصين فى الفترة التالية للحرب العالمية الثانية تسير على أيديولوجية شيوعية صارمة يغلب عليها طابع التطرف، وكانت هناك نزاعات بين التيارات السياسية المنضوية تحت لواء هذه الأيديولوجية، جعلت الصين تشهد أحداث «الثورة الثقافية» التى أصاب لهيبها ملايين الأشخاص.

وفى تلك الفترة أيضا كان الخلاف شديدا بين القطبين الشيوعيين الكبيرين: الصين والاتحاد السوفيتى. وكانت الصين تختلف مع الاتحاد السوفيتى فى تعريف القوى المحركة للاشتراكية وطبيعتها. وكان لابد للقيادة الصينية لكى تنجح فى الخارج أن تتغلب على الوضع المتردى فى الداخل. واتجهت القيادة التى خلفت ماو تسى تونج أول ما اتجهت إلى التخلص من عداوات الثورة الثقافية.

السياسة الخارجية: بين الأمس واليوم

من هنا يظهر الفرق فى سياسة الصين الخارجية بين الأمس واليوم. والأهم من هذا هو أن الصين قد باتت اليوم تطرح رؤية جديدة للنظام العالمى، فيما يعد أول اقتراب نظرى صينى من القيام بدور مؤثر على المسرح الدولى فى السنين المقبلة.

وفى رأى الصين أن قيام نظام عالمى مستقر مرهون بإعطاء آسيا دورا رئيسيا فى الشئون العالمية. ويقوم هذا التصور على أن آسيا يعيش بها ٦٠٪ من سكان العالم (٢١٪ منهم فى الصين) وبالتالى لابد أن يكون لهذه القارة صوت فى العالم يقارب

وزنها السكانى. ومن الواضح أن الصين تريد لنفسها صوتا مؤثرا فى نطاق الدور الآسيوى فى النظام العالمى الجديد. أو أنها تريد أن تقود آسيا على الساحة العالمية.

والأمر الواضح حقا هو أن الصين تطمح إلى دور عالمى فى السنوات المقبلة. وقد لاحظت فى زيارتى لبكين أن هذه المدينة تضاف إليها تحسينات وتعديلات وتوسعات تجعلها تناسب عاصمة دولة مؤثرة فى العالم، مثل عواصم القوى العظمى والإمبراطوريات الكبيرة.

فبكين عاصمة للصين منذ أكثر من ٨٠٠ سنة، وهى مركز النشاط السياسى فى الصين. وهى اليوم تنبض بالحركة الثقافية والتطور العلمى فى هذا البلد الشاسع. وهى مقر لأهم الجامعات والمعاهد.

وبخلاف ذلك فإنها تعتبر مفترق طرق كبيرا فى الصين، بمعنى أنها محور مهم للنقل والمواصلات إلى جميع أرجاء الصين. كما أنها تعج بالأماكن التاريخية والآثار الجميلة النادرة مثل القصر الإمبراطورى الذى يسمونه أيضا «المدينة المحرمة».

وفى بكين أيضا أضخم تجمع معمارى قديم فى العالم، ويضم: معبد الجنة الذى كان يتعبد فيه الأباطرة من أجل محاصيل وفيرة، وقصر الصيف الذى يوجد به منتجع الأباطرة، ومقابر «مينج» التى تضم رفات أباطرة الأسرة الثالثة عشرة، وسور الصين العظيم، أحد أعاجيب الدنيا السبع.

وقد أدت الحركة العمرانية النشيطة التى بدأت مع قيام جمهورية الصين الشعبية عام ١٩٤٩ إلى حدوث تغيير كبير فى بكين. وعلى الرغم من أن بكين تحتفظ بسحر الحضارة القديمة، فإنها تضم الآن غابة صغيرة من ناطحات السحاب، وسلسلة من المبانى الحكومية. وهكذا تتحول بكين إلى عاصمة لدولة كبيرة حديثة بمختلف المقاييس.

ولكن فى رأيى أن لقيام القوى العظمى شروطا موضوعية أبعد ما تكون عن الشكل، ولعل أهمها القوة الاقتصادية والقوة العسكرية والرؤية السياسية العالمية. وفى رأيى أن الصين حازت أشياء مهمة من كل عامل منها.

ومن الواضح على كل حال أن التكهنات السياسية حول دور الصين العالمى قد قامت على اعتبارات اقتصادية فى الأساس. فالصين - كما أشرنا - نجحت إلى حد

كبير فى تحقيق طفرة اقتصادية مشهودة خلال السنوات القليلة الماضية، وتمثلت هذه الطفرة فى حدوث زيادة هائلة فى مختلف المؤشرات الاقتصادية، سواء المتعلقة بمعدل النمو الاقتصادى أو إجمالى الناتج القومى، أو احتياجات العملات الأجنبية، أو حركة التبادل التجارى مع العالم الخارجي.

وكما أشرنا أيضا، فإن السياسة الخارجية الصينية قدمت بالفعل بعض المؤشرات الدالة على رغبة القيادة الصينية فى القيام بدور عالمى متميز. وبالإضافة إلى ما تناولته من قبل، كان من أبرز تجليات السياسة الخارجية الصينية ما طرحته بكين من رفض مبدأ القطبية الأحادية القائمة فى الوقت الراهن، والمتمثلة فى أن الولايات المتحدة هى القطب الأوحد فى النظام العالمى الجديد. وقد دعت القيادة الصينية بدلا من ذلك إلى إنشاء نظام عالمى عادل يقوم على احترام سيادة الدول ووحدة أراضيها، وعدم الاعتداء على سيادة الدول، أو التدخل فى الشئون الداخلية لها والتعايش السلمى بين دول العالم.

والأكثر من ذلك، أن الحكومة الصينية تدعو إلى إقامة نظام عالمى جديد محوره آسيا والمحيط الهادى، كما تتبنى القيادة الصينية سياسة خارجية نشيطة على الصعيد الإقليمى تواصل عبرها محاولة الانفتاح على دول شرق وجنوب شرق آسيا، وكذا على الجمهوريات السلافية التى نشأت عقب انهيار الاتحاد السوفيتى السابق.

وحين تتقدم الصين صوب الحصول على دور عالمى، فسوف تكون هناك بالتأكيد عوائق إقليمية ودولية أمام هذا المسعى. بل قد تثار عوائق إضافية أمام الصين، إذا تأكد لدى القوة العظمى المهيمنة حاليا، وهى الولايات المتحدة، أن المسعى الصينى جاد حقا، وأنه سوف يمثل تهديدا لمصالحها الكونية. ولن يكون هناك تسليم سهل من جانب دول آسيا بحصول الصين على مركز قوة عظمى، لأن ذلك قد ينطوى أيضا على تهديد لمصالحها وإثارة المخاوف من انبعاث العداوات القديمة.

والمخاوف الإقليمية من تنامى القوة الصينية قائمة منذ وقت بعيد، وترتكز هذه المخاوف على وجود العديد من نقاط الاحتكاك والتوتر فى المنطقة، لاسيما تلك المتعلقة

بالخلاف حول جزر «سبراتلى» فى بحر الصين الجنوبى. فهذه الجزر تتنازع السيادة عليها دول عديدة إلى جانب الصين، هى: فيتنام، والفلبين، وإندونيسيا، وماليزيا، وبروناى.

ويبلغ عدد هذه الجزر حوالى ٣٣ جزيرة صغيرة، تضاف إليها مئات الجروف القارية والنتوءات البحرية، وتمتد حوالى ٩٦٥ كيلومترا. وتدعى كل دولة من هذه الدول السيادة على جميع أو بعض هذه الجزر، وتتذرع كل منها بالعديد من الحجج والأسانيد.

وتقول الصين إن البحارة الصينيين كانوا أول من اكتشف جزر سبراتلى، وإنها ظلت خاضعة للإدارة الصينية منذ القرن الخامس عشر، ولم تكن السيادة الصينية عليها محل نزاع حتى ثلاثينيات القرن العشرين.

وقد تسبب هذا النزاع فى وقوع اشتباكات بين قوات صينية وفيتنامية فى فترات سابقة بالقرب من سلسلة صخور «شيخوا» فى بحر الصين الجنوبى، أسفرت عن تدمير ثلاث سفن فيتنامية، ومقتل العديد من البحارة الفيتناميين، ثم احتلت الصين عقب ذلك ست جزر، ثم اندلع اشتباك آخر فى العام نفسه بين الجانبين الصينى والفيتنامى.

وينطلق الموقف الصينى فى هذا النزاع من مجموعة من الاعتبارات أهمها ما يلى:

- **أولا** : الرغبة فى تعيين حدود الدولة الصينية الحديثة بوضوح قاطع وفرض السيطرة، أو إعادة فرض السيطرة، على جميع المناطق التى تعتبر صينية من المنظور التاريخى، حتى لو لم تكن تحت السيادة الصينية حاليا.
- **ثانيا**: أن المناطق المتنازع عليها تمثل بالنسبة للصين مصدرا محتملا للثروة الطبيعية، لاسيما من حيث الثروة النفطية التى يتردد أنها موجودة بوفرة فى تلك الجزر، وتشير بعض التقديرات إلى أن الصين يمكن أن تصبح - إذا بسطت سيادتها على هذه الجزر - إحدى الدول المصدرة للبترول.
- **ثالثا**: ينطوى بحر الصين الجنوبى على أهمية استراتيجية كبيرة للصين، وبذلك تريد فرض السيطرة الكاملة على المياه القريبة من الموانئ الجنوبية لها.

وقد فشلت جميع الجهود السياسية فى التوصل إلى تسوية شاملة لهذا النزاع، مما زاده تعقيدا بمرور الوقت.

وعلى المستوى الإقليمى أيضا، أعربت اليابان، بأكثر من صورة، عن قلقها من احتمالات ازدياد الدور الصينى فى المنطقة، وكذا من احتمالات تطوير القوة العسكرية الصينية. كما بات النزاع بين الدولتين على جزر سنكاكو يستحوذ على اهتمام إعلامى وسياسى متزايد.

وفى الوقت نفسه، فإن هناك أيضا التوترات المتلاحقة بين الصين والولايات المتحدة. وتدور التوترات فى مجملها حول الخلافات التجارية والاقتصادية المتعلقة بحقوق الملكية الفكرية والثقافية الأمريكية فى مجال المنتجات المرئية والكتب وبرامج الكمبيوتر، علاوة على الخلافات الدورية بشأن التجديد السنوى لمكانة الدولة الأولى بالرعاية التى تعطيها الولايات المتحدة للصين.

يضاف إلى ذلك الخلافات الناجمة عن تباين وجهات النظر بين الولايات المتحدة والصين فيما يتعلق بقضايا الأمن والاستقرار الإقليمى والعالمى، فى ضوء مبيعات السلاح التقليدى والصاروخى الصينى إلى دول العالم الثالث عموما، وقضايا منع الانتشار النووى. كما يختلف الجانبان الصينى والأمريكى بشأن الموقف الأمريكى من تايوان، وهو الاختلاف الذى يثور كلما طرأت تطورات إيجابية على العلاقات الأمريكية - التايوانية.

وأخيرا، فإن الجانبين الصينى والأمريكى يختلفان دوما بشأن قضايا حقوق الإنسان فى الصين، التى انطوت على نشوء جدال حاد بين الولايات المتحدة والصين بشأن انتهاك السلطات الصينية لحقوق الإنسان، وهو ما ترفض القيادة الصينية مناقشته من الأصل.

وإلى جانب هذه القيود الخارجية على إمكانات قيام الصين بدور عالمى متميز، هناك عدد من المشاكل الداخلية التى تحد من قدرة الدولة الصينية على الانطلاق فى الساحة العالمية. ومعظم المشاكل الداخلية ناجم عن انعكاسات سياسية للنمو الاقتصادى الكبير

فى الصين، مثل نشوء حالة من التفاوت الاقتصادى بين الشمال الفقير والجنوب الغنى، والعاملين والعاطلين، وأصحاب الثروات الناشئة والفقراء.

وهناك أيضا الدعاوى الانفصالية لعديد من الأقليات الصينية فى أقاليم التبت وسنكيانج ومنغوليا الداخلية، ولا تعود هذه الدعاوى فقط إلى التفاوت الاقتصادى والاجتماعى فى الصين، ولكنها تتأثر أيضا بموجة النزعات الاستقلالية فى العديد من أنحاء العالم، لاسيما ما حدث فى الاتحاد السوفيتى السابق ويوجوسلافيا السابقة.

وأخيرا، هناك نقص فى الكوادر السياسية الصينية القادرة على تبنى رؤية متطورة للنمو الاقتصادى والدور السياسى الدولى للصين فى العقود القادمة. فالصفوة الصينية الناشئة تركز كل همها تقريبا على جمع الثروات عبر الفرص الاقتصادية التى أتاحها الانفتاح والإصلاح.

ولكن مما يعد مطمئنا بالنسبة للمستقبل القريب أن القيادة السياسية الصينية أظهرت حرصا بالغا على مجابهة المشاكل الناجمة عن تطور اقتصاد الصين ودورها.

- **فعلى الساحة الإقليمية**، أظهرت السياسة الصينية استعدادا دائما لبث رسائل الاطمئنان إلى الدول المجاورة، ومحاولة إقامة أسس عملية للتعاون الإقليمى. ومن اللافت للنظر فى الوقت نفسه أن الصين لا تبدى أدنى تراجع أو تردد فى مسألة تايوان التى تعتبرها أرضا صينية عائدة يوما ما إلى الوطن الأم، مثلما عادت هونج كونج ومثلما ستعود مجموعة جزر مكاو.

- **وعلى الساحة الدولية**، فإن الصين تسعى دوما إلى الاحتفاظ بعلاقات طيبة مع الولايات المتحدة، حيث يحتاج الجانب الصينى فى الوقت الراهن إلى التكنولوجيا ورأس المال الأمريكيين، علاوة على أن الصادرات الصينية إلى الولايات المتحدة تمثل نسبة كبيرة للغاية من إجمالى الصادرات الصينية إلى العالم الخارجى. ولا يجد الجانب الصينى أيضا مصلحة كبيرة فى استعداء الولايات المتحدة والدول الغربية الأخرى، وتسعى الصين بالتالى إلى اتخاذ خطوات محسوبة فى اتجاه التقارب مع تلك الأطراف، بما لا يمس المصالح الحيوية للصين.

الصين : مصدر قلق للكبار

لكن يبقى السؤال المهم وهو: هل تعد الصين الحديثة ـ أو إن شئنا الدقة، هل تعد «معجزة نهاية القرن» ـ مصدر خطر أو قلق للعالم، خصوصا الولايات المتحدة وأوروبا الغربية واليابان؟

لن تكون الإجابة صائبة لو جاءت بالنفى. فهذه الدول الكبيرة المؤثرة عالميا من النواحى الاقتصادية والسياسية والثقافية، تراقب عن كثب كل تطورات مهمة فى العالم من حولها، فما بالك إذا كانت هذه التطورات بحجم وخطورة ما يحدث فى الصين.

فعلى الرغم من الأهمية الكبيرة التى تعطيها السياسة الخارجية الأمريكية للعلاقات مع الصين، وعلى الرغم من أن واشنطن تسعى حثيثا إلى التهدئة مع بكين، فإن الدوائر العسكرية الأمريكية تراقب بقلق وضع الجيش الصينى، والتغيرات التى يمكن أن تطرأ عليه تعبويا وتكتيكيا وتسليحيا، وكذلك من ناحية نظرية الحرب التى يطبقها الجيش الصينى. وعلى الرغم من أن كثيرا من المعلومات المتصلة بهذه المراقبة، وهذا التتبع، تظل طى الملفات باعتبارها أسرارا، فقد قالت وزارة الدفاع الأمريكية «البنتاجون» منذ سنتين إنها تعتقد أن الجيش الصينى يبحث عن وسائل للتغلب على التفوق العسكرى الأمريكى. وقال أحد محللى البنتاجون إن دراسة مئات الكتب والمطبوعات العسكرية الصادرة عن الجيش الصينى تؤكد أنه لا توجد دلائل على تخلى العسكريين الصينيين عن عقلية الحرب الباردة.

وتشمل المراقبة الأمريكية أيضا العلاقات العسكرية بين الصين والدول الأخرى، خصوصا فيما يتصل بصفقات الأسلحة الحديثة، والصواريخ، ونقل التكنولوجيا العسكرية والنووية. وتعطى اهتماما خاصا للعلاقات بين الصين وكل من سوريا وإيران وباكستان.

ومن المؤكد أن الدول الكبيرة فى العالم، كاليابان وفرنسا وألمانيا، تبدى اهتماما كبيرا أيضا بالشئون الصينية. ويتعين علينا ـ نحن العرب ـ ألا نكون أقل اهتماما بالصين البازغة إلى مصاف القوى العظمى.

فالحقيقة أن العالم كله كان مشغولا منذ سنوات بالشأن الصينى، وكان - ومازال - أغلب ما يشغل بال العالم عن الصين هو القدرات الاقتصادية المتصاعدة لهذه البلاد، وأيضا هل تمثل الصين التى تتعاظم قدراتها الاقتصادية تهديدا للإقليم الذى توجد فيه، أو لغيره من الأقاليم والقارات. وكان هناك سؤال مهم مطروح فى المنتديات السياسية والبحثية هو: كيف يمكن التعامل مع الصين فى وضعها الجديد؟ وكيف يمكن - بشكل ملائم - استيعابها فى هذا الوضع فى المؤسسات الإقليمية والدولية؟

وكان العالم - ومازال - مشغولا أيضا بالقوة العددية التى تمثلها الصين، ولكن لما تقدمت هذه البلاد، وزادت قوتها الاقتصادية، وارتفعت فيها مستويات المعيشة تم تعديل صيغة التساؤل المطروح عن قوة الصين العددية، فصار الناس يسألون: كم يبلغ حجم العائد المالى الذى يمكن تحصيله من بيع سلعة رائجة فى سوق يبلغ عدد أفرادها مليارا ومائتى مليون نسمة ولديهم قدرة شرائية مناسبة؟ وكم عدد الوظائف التى يمكن إيجادها فى الدولة التى يمكن أن تصدر عددا من السلع الرائجة للصين؟

والحقيقة أن الصين فى هذا الوضع صارت ذات تأثير كبير على عدد كبير من الدول، ويكفى أن تعلن الصين - مثلا - أنها لن تستورد طائرات الركاب من الولايات المتحدة فى سنة ما، فتصاب هذه الصناعة الأمريكية بالرعب، لأنها ستخسر مليارات الدولارات.

وهناك فى الوقت نفسه تساؤلات عكسية عن الخطر المتوقع على الأسواق العالمية عموما، وأسواق آسيا خصوصا، إذا حدث تراجع أو انهيار اقتصادى فى الصين. فأهم سؤال عن الصين لا يتعلق فحسب بمدى القوة التى سوف تصير عليها فى المستقبل، وإنما أيضا بمدى الضعف الذى قد تصبح عليه، وما يمثله ذلك من خطر إقليمى وعالمى. والتساؤل الأخير ناتج بطبيعة الحال عن أزمة الانهيار الاقتصادى الذى شهدته النمور الآسيوية الأخرى.

فمثل هذا الانهيار من شأنه أن يضر قارة آسيا بشكل مباشر، وأن يؤذى باقى دول العالم أيضا. ويقول المحللون إن أكبر خطر ممكن حدوثه يتمثل فى ناتج الاضطراب الاقتصادى، وهو فوضى سياسية ستقع حتما إذا حدث الانهيار الاقتصادى.

ومعنى كل ما تقدم أن الصين صارت محورا مهما من محاور المناقشات فى المنتديات الدولية على اختلافها. وقد وصلت هذه المناقشات إلى أن الصين لن تلحق بالنمور الآسيوية فى مجال الانهيار الاقتصادى، وذلك لأسباب كثيرة مهمة، منها:

- يضع الصينيون أهدافا ثابتة للتنمية، ويرفضون التخلى عنها مهما يكن الثمن. فإذا قالوا مثلا إن بلادهم سوف تحقق نموا اقتصاديا بمعدل ٨٪ خلال سنة معينة، فإنهم يحققون هذا المعدل وربما أكثر منه.
- إذا ظهرت مؤشرات على بطء النمو الاقتصادى، تشرع الحكومة فى تنفيذ برنامج كبير للإنفاق العام على البنية التحتية بغرض تنشيط قطاعات الاقتصاد المختلفة وزيادة فرص التوسع من جديد.
- قادة الصين اقتصاديون من النوع الحازم والمؤثر، ومعروفون على المستوى الدولى بصراحة حديثهم، ورغبتهم فى إعطاء عناوين بريدهم الإليكترونى لأى شخص صاحب شكوى، ومشهورون على نحو أكثر تخصيصا بتعهداتهم بعدم تخفيض العملة الصينية «اليوان» أو دولار هونج كونج.
- الشارع الصينى الذى ذاق ثمار التنمية مساند ومؤيد بصورة عامة للقيادة، فبعد أن حقق الصينيون مستوى معيشة أعلى فى الثمانينيات والتسعينيات - بعد ثلاثين عاما من المعاناة والألم - من المؤكد أنهم لن يحتجوا أو يتظاهروا مع ظهور أولى بوادر الاضطراب الاقتصادى.

فمن المؤكد أن السنوات العشرين الأخيرة جلبت فرصا جديدة، وحريات أكثر، وثروة جديدة للعديد من الصينيين فى المدن، خصوصا فى المنطقة الساحلية. ويعرف الصينيون بالتأكيد شيئا عن تجارب الدول الأخرى، خصوصا روسيا حيث أظهر المواطنون العاديون عدم رغبتهم فى التظاهر العنيف أو الاحتجاج الدموى على الرغم من الصعوبات القاسية التى يعانيها المواطنون من جراء برنامج الإصلاح الاقتصادى فى بلادهم.

ويبدو بالتالى أن الصينيين مستعدون لتحمل أعباء الإصلاح الاقتصادى مادامت الثمار تظهر فى الأفق القريب، وأنهم مستعدون بالتأكيد لبذل أقصى جهد من أجل رفع مستوى معيشتهم. وكانت الفترات الشيوعية التى سادتها روح التزمت قد علمت الصينيين العيش فى أصعب الظروف وبذل أقصى ما فى وسعهم من أجل الوفاء بالمهام المكلفين بها. وسوف يكون العطاء أكبر بالتأكيد فى وقت يمكن أن يصبح فيه المواطن من الأثرياء إذا بذل الجهد وتعلم طريقة جمع المال من خلال التجارة أو إتقان المهن والحرف اليدوية.

ويحاول كثير من الصينيين بعد الانفتاح جمع الكثير من المال الذى ذاقوا حلاوة إنفاقه على المتع الجديدة، والملابس على الطراز الغربى التى ملأت شوارع المدن الرئيسية خلال السنوات الأخيرة.

وكم كان لافتا لنظرى فى بكين أن أرى كثيرا من الرجال والنساء والشبان والبنات بأيديهم التليفونات المحمولة، وهم يتابعون من خلالها أنشطتهم المختلفة، ويعقدون الصفقات أو يستعدون لعقدها.

إن الفرق كبير بين الأمس واليوم فى الصين، على مستوى الدولة وكذلك على مستوى الإقليم الذى توجد به الصين.

وخلال الأزمة المالية الآسيوية انخفض سعر صرف العملات المحلية فى تايلاند، والفلبين، وماليزيا، وسنغافورة، والهند بنسبة تراوحت بين ١٠٪ و٤٠٪، وانخفض سعر صرف الروبية الإندونيسية بنسبة ٧٦٪. ومع ذلك بقى سعر صرف الـ «يوان» الصينى ودولار هونج كونج مستقرا.

وكانت قد ظهرت فى الصين فى عام ١٩٩٣ مشكلة عدم التوازن الاقتصادى والتضخم المالى الشديد نسبيا، ولكن سرعان ما وضعت الحكومة الصينية السياسة المالية والنقدية وسياسة الاستثمار اللازمتين لحل هذه المشكلة، كما اتخذت الإجراءات

الإدارية المتعلقة بها، ووضعت فى المقام الأول من اهتمامها السيطرة على التضخم المالى فى نطاق معالجة الأوضاع الاقتصادية الشاملة. وفى الوقت نفسه زاد البنك المركزى من سيطرته على العمليات المالية، وعمل بجهد من أجل تقويم النظام المالى المضطرب، وتطبيق سياسة نقدية انكماشية بدرجة معتدلة على أساس ضمان تحقيق معدل النمو الاقتصادى.

وبعد ثلاث سنوات من هذه الجهود حققت الصين فى عام ١٩٩٦ هدف الزيادة المرتفعة فى الإنتاج، والتضخم المنخفض. ووفقا للإحصاءات حتى نهاية عام ١٩٩٦، بلغ معدل نمو الناتج المحلى الإجمالى ٩,٧٪، ونسبة التضخم المالى ٦,١٪. وبفضل زيادة قوة الاقتصاد الشاملة، دخل الاقتصاد الوطنى مرحلة جديدة من التنمية السريعة والمتواصلة والمستقرة. وفى عام ١٩٩٧ - على الرغم من أن الاقتصاد الصينى واجه تأثير الأزمة المالية الآسيوية - بلغ معدل نمو الناتج المحلى الإجمالى ٨,٨٪، وانخفضت نسبة التضخم المالى إلى ٣٪. وأرسى هذا التقدم أساسا للحفاظ على معدل النمو السريع للاقتصاد الصينى فى عام ١٩٩٨ بعد مواجهة الأزمة المالية الآسيوية عام ١٩٩٧.

وفى أثناء إصلاح نظام الصرف فى عام ١٩٩٤ بدأت الصين تطبيق نظام سعر الصرف العائم بشكل موحد، أى ضبط النظام وفقا للعرض والطلب فى سوق العملة، واهتمت الحكومة كل الاهتمام بحماية سعر صرف الـ «يوان» الصينى. وبعد أن حققت الصين الاستقرار لسعر صرف اليوان فى عام ١٩٩٦، استمرت إدارة عمليات التدفق المالى عبر القواعد التى وضعها القانون، وتمت تقوية مراقبة أوضاع العملات الأجنبية، والسيطرة المحكمة على حجم الديون الخارجية. ونجحت هذه الإجراءات فى منع هجوم رأس المال الدولى على الاقتصاد الصينى.

وبلغ فائض الميزان التجارى الصينى (الفرق بين الواردات والصادرات) فى عام ١٩٩٧ حوالى ٤٠,٣ مليار دولار أمريكى، وفى نهاية عام ١٩٩٧ بلغ احتياطى الصين من العملات الأجنبية ١٣٩,٩ مليار دولار أمريكى.

الاستثمار المباشر له الأولوية

من أجل الاستفادة من رؤوس الأموال الأجنبية، حرصت الصين على مبدأ الاستثمار المباشر فى المقام الأول. واستمر تطبيق مبدأ القروض المتوسطة والطويلة الأجل، فاحتلت القروض المتوسطة والطويلة الأجل ٨٠٪ من إجمالى قيمة الديون الأجنبية. فالحالة الجيدة للاستثمار الأجنبى وحصوله على عائد مجز فى الصين، والهيكل الملائم لرؤوس الأموال الأجنبية والديون الأجنبية، أرست الأساس لاستقرار الوضع الكلى للاقتصاد الصينى، كما عززت ثقة المستثمرين باستثمارهم فى الصين.

ويمكن القول إن استقرار سعر صرف اليوان استند إلى وضع الاقتصاد الصينى الجيد المتمثل فى انخفاض التضخم المالى، والتنمية الاقتصادية المتواصلة، وزيادة حجم الصادرات، وتحقيق الفائض التجارى والفائض فى ميزان المدفوعات الدولى، والكفاية من احتياطى العملات الأجنبية.

ويرى البعض أن الصادرات الصينية لآسيا، والتى تشكل ٤٠٪ من إجمالى صادرات الصين، سوف تضعف قدراتها التنافسية فى التجارة الدولية إذا لم تخفض سعر صرف اليوان، وسوف تفقد بالتالى حصتها فى الأسواق الدولية.

ولكن الأرقام تؤكد غير ذلك، فبعد توحيد سعر الصرف فى الصين عام ١٩٩٤ ارتفع سعر صرف اليوان فى الأعوام ١٩٩٤ و١٩٩٥ و١٩٩٦ بنسبة ٤٤٪ عن عام ١٩٩١. وفى عام ١٩٩٧ ارتفع سعر صرف العملة الصينية فعلا بالمقارنة بانخفاض أسعار صرف عملات البلدان والمناطق الآسيوية المجاورة للصين بنسبة كبيرة. وعلى الرغم من ذلك ازداد إجمالى قيمة الصادرات الصينية فى الأعوام ١٩٩٥ و١٩٩٦ و١٩٩٧ بنسب ٢٢,٩٪ و١٥,٥٪ و٢٠,٩٪ على التوالى. كما أن ارتفاع سعر صرف اليوان منذ عام ١٩٩٤ ساعد فى تجديد بنية أنظمة المؤسسات الصينية التى تنتج سلعا مخصصة للصادرات، وتجديد التكنولوجيا فيها، وارتفاع جودة الصادرات، وتحسين هياكلها بشكل عام، وتقوية الإدارة الداخلية بها، وانخفاض تكلفة الإنتاج، ورفع قدرة التسويق.

ويجدر بالذكر أن منطقة هونج كونج الإدارية الخاصة بالصين نجحت فى حماية نظام سعر الصرف النسبى لعملتها فى غمار الأزمة المالية الآسيوية. ومن أجل الحفاظ على استقرار سعر صرف دولار هونج كونج، واقتصادها أيضا، لم تخفض الصين سعر صرف اليوان.

وقد أصدر برنامج الأمم المتحدة للتنمية تقرير التنمية البشرية فى الصين عام ١٩٩٧، وأشار فيه إلى أن ما حققته الصين فى مجال التنمية البشرية يثير إعجاب العالم، ويتمثل فى انخفاض نسبة الفقراء، وتحسن صحة الشعب، وارتفاع المستوى التعليمى، وتناهز الآن المؤشرات الرئيسية للتنمية البشرية، مثل متوسط العمر، مثيلتها فى الدول المتقدمة اقتصاديا. وأشار التقرير أيضا إلى أن الصين مازالت تواجه تحديات كثيرة فى مجال التنمية البشرية، كما توقع أن تتغلب الصين على تلك التحديات، وتسهم بدورها فى دفع تقدم البشرية، وتحقيق التوازن الطبيعى فى مجال التنمية فى الوقت الذى تحقق فيه معدلات نمو اقتصادى سريعة.

ويتوقع التقرير للصين أن تدخل القرن الحادى والعشرين وهى نموذج يحتذى للتنمية البشرية.

وهذه الطفرة ليست وليدة يوم أو شهر أو سنة، فمنذ أن تبنت الصين سياسة الإصلاح والانفتاح قبل ٢٠ سنة، يشهد اقتصادها القومى تطورا كبيرا، ويرتفع مستوى معيشة شعبها. وفى الفترة بين عامى ١٩٧٨ و١٩٩٧ بلغ متوسط الزيادة السنوية لإجمالى قيمة إنتاجها القومى ٩,٨٪ وهى تعد بذلك من أسرع الدول نموا اقتصاديا فى العالم.

وقبل قيام الصين الحديثة كان ٨٠٪ من السكان يعيشون فى جوع وفقر. وفى عام ١٩٤٦ مات عشرة ملايين صينى جوعا. وكان عدد الجائعين فى الصين يربو على مائة مليون نسمة فى عام ١٩٤٧. وقبيل تأسيس جمهورية الصين الشعبية (١٩٤٩) أكد بعض الغربيين أنه ليس بوسع أية حكومة فى الصين حل مشكلة الغذاء لشعبها. ولكن الحقائق تدل على أن حكومة الصين الجديدة ليست قادرة فحسب على إعالة ٢٢٪ من سكان العالم باستخدام ٧٪ من الأراضى القابلة للزراعة بالكرة الأرضية، وحل مشكلة

الغذاء والكساء لأكثر من ١,٢ مليار نسمة، بل إنها تحقق أيضا زيادة فى الدخل لأبناء الشعب على نحو متواصل. فمن عام ١٩٧٩ إلى عام ١٩٩٧ ارتفع متوسط دخل الفرد من سكان المدن من ٣٤٣,٥ يوان إلى ٥١٦٠ يوان (الدولار يساوى ٨,٣ يوان) بمعدل زيادة ٦,٢٪ سنويا حسب السعر الثابت. وازداد متوسط دخل الفرد من سكان الريف من ١٣٣,٦ يوان إلى ٢٠٩٠ يوان، بمعدل زيادة ٨,١٪ سنويا حسب السعر الثابت. وفى نهاية عام ١٩٩٧ بلغ حجم الودائع المالية لسكان الصين ٤٦٢٨ مليار يوان، أى زاد ٢١٨ ضعفا عن عام ١٩٧٨. وقد زادت فى نفس العام قيمة الممتلكات المالية الخاصة بأفراد الشعب الصينى على ٦٠٠٠ مليار يوان، بما فيها الودائع باليوان الصينى، والعملات الأجنبية، والنقود المتداولة، ومختلف الأوراق المالية والأسهم.

ويجرى اليوم تصنيف الصين فى قائمة البلدان المنخفضة الدخل فى العالم، إلا أن مستوى معيشة شعبها قد ارتفع بصورة كبيرة. وقد ازداد متوسط العمر لسكانها من ٣٥ سنة فى بداية التحرير (١٩٤٥ - ١٩٤٩) إلى ٧٥,٥ سنة فى الوقت الحاضر، وانخفضت نسبة الوفيات من ٣٣ فى الألف قبل التحرير إلى ٦,٤٩ فى الألف فى الوقت الحاضر. وقل عدد الفقراء فى كل البلاد من ٢٥٠ مليون نسمة فى عام ١٩٧٨ إلى ٥٠ مليون نسمة فى عام ١٩٩٧، فى حين يزداد عدد الفقراء بمقدار ٢٥ مليون نسمة سنويا فى العالم، حيث وصل عددهم إلى ١٥٠٠ مليون نسمة فى عام ١٩٩٦، ٩٠٪ منهم يعيشون فى الدول النامية. أما الصين التى تعتبر أكبر دولة نامية فى العالم فقد خلصت ٢٠٠ مليون نسمة من الفقر، وخفضت عدد الفقراء فيها بنسبة ٨٠٪ فى مدة لا تزيد على عشرين سنة.

وتبذل الصين جهودا كبيرة فى تطوير المشاريع العلمية والتعليمية والثقافية. ويعتبر ذلك شرطا أساسيا لدفع النمو البشرى الكامل والحر. وفى بداية تأسيس جمهورية الصين الشعبية (١٩٤٩) كانت نسبة الأمية ٨٠٪ من السكان، ثم انخفضت إلى ١٢٪ فى عام ١٩٩٦، وانخفضت نسبة الأمية بين الشباب ومتوسطى العمر إلى ٦,١٪. وقد تم تعميم التعليم الإجبارى، وهو تسع سنوات، فى جميع أنحاء البلاد، وتطور التعليم فى مختلف المستويات تطورا سريعا، وارتفعت المستويات الثقافية للشعب الصينى بصورة عامة.

الفصل الرابع

من حديقة القوميات إلى المعارضة الصينية

لكى نتصور الإصلاحات السياسية الداخلية التى يمكن أن تحدث فى الصين مع بدايات القرن الحادى والعشرين، يجب أن نفحص النظام السياسى الذى حرك مياه الإصلاح فى جميع أرجاء البلاد، وأثار اهتماما عالميا متزايدا بها، وهو اهتمام أتوقع له موجة بعد أخرى من التزايد.

أعلى سلطة فى الصين هى «مؤتمر الشعب الوطنى». فهو السلطة التشريعية، وهو السلطة التى تصدر قرارات التعيين فى المناصب والوظائف العليا، وتصدر قرارات العزل منها، وهو فى نهاية المطاف سلطة اتخاذ القرار فى البلاد.

بل يزيد على ذلك أن «مؤتمر الشعب الوطنى» هو السلطة التى تتولى الإشراف والمراقبة والمتابعة.

- **ففى نطاق السلطات التشريعية لمؤتمر الشعب الوطنى** ، من حقه تعديل الدستور، وتعديل وإعمال القوانين الأساسية المتصلة بالأحوال الجنائية، والشئون المدنية، وأجهزة الدولة، وغير ذلك من الأمور.
- **وفى نطاق سلطات التعيين والعزل من الوظائف** ، يحق لمؤتمر الشعب الوطنى انتخاب وعزل رؤساء وأعضاء أجهزة الدولة العليا . فهو ينتخب أعضاء لجنته

الدائمة، ورئيس الجمهورية، ونائب الرئيس، ويتخذ القرارات الخاصة باختيار رئيس الحكومة (رئيس مجلس الدولة) ونوابه، وأعضاء مجلس الوزراء (مجلس الدولة) والمسئولين الكبار بالوزارات، واللجان، ومحافظ البنك المركزى (بنك الشعب الصينى) والمحاسب العام لمكتب المحاسبة القومى.

وينتخب المؤتمر ويعزل السكرتير العام لمجلس الدولة، ورئيس اللجنة العسكرية المركزية، ويتخذ القرارات الخاصة باختيار جميع أعضاء اللجنة، وينتخب رئيس محكمة الشعب العليا. وله حق انتخاب هيئة الحكم العام للأقاليم.

- **وفى نطاق سلسلة اتخاذ القرارات** ، يكون من مهام «مؤتمر الشعب الوطنى» سلطة فحص وإقرار خطة التنمية الاقتصادية والتنمية الاجتماعية القومية، وتقرير تطبيق هذه الخطة. ومن سلطاته أيضا فحص وإقرار ميزانية الدولة، وكذلك تقرير تطبيقها.

وله أيضا أن يقر إنشاء وتسمية الأقاليم، والمناطق المحكومة ذاتيا، والبلديات التى تخضع مباشرة لسلطة الحكومة المركزية. وله أيضا أن يقرر قيام المناطق الإدارية الخاصة والنظم التى تدار على أساسها.

ولمؤتمر الشعب الوطنى أن يتخذ قرارات الحرب والسلام.

وعموما يمثل مؤتمر الشعب الوطنى السلطة العليا فى الدولة.

- **وفى نطاق سلطة الإشراف** ، يتابع مؤتمر الشعب الوطنى تطبيق الدستور الذى ينص على أن مجلس الدولة، ومحكمة الشعب العليا، والمجلس الأعلى للحكومات الإقليمية، أجهزة ينشئها مؤتمر الشعب الوطنى ومسئولة أمامه.

وإذ يتابع مؤتمر الشعب الوطنى أداء مختلف أجهزة الدولة فإنه يقوم بذلك نيابة عن الشعب.

وقد انعقدت ٩ مؤتمرات منذ عام ١٩٥٤. وكان عدد أعضاء مؤتمر الشعب الوطنى الأول ١٢٢٦ عضوا، وانعقد آخر مؤتمر فى عام ١٩٩٨، وكان عدد أعضائه ٢٩٧٩ عضوا.

ووفقا للدستور والقوانين المتصلة بمؤتمر الشعب الوطنى، ينعقد المؤتمر فى الربع الأول من العام. وكل نائب فى مؤتمر الشعب الوطنى مدة عضويته ٥ سنوات. وتنوب اللجنة الدائمة لمؤتمر الشعب الوطنى عنه فى القيام بسلطاته، وبالتالى فهى أعلى هيئة دائمة فى الدولة من الناحيتين التنفيذية والتشريعية. ومن الطبيعى أن يقوم المؤتمر بممارسة سلطاته بالكامل وقت انعقاده.

وقد كان عدد أعضاء اللجنة الدائمة فى المؤتمر التاسع ١٣٤ عضوا، وليس لأى عضو فى اللجنة أن يتقلد أى منصب، أو وظيفة فى باقى أجهزة الدولة، حتى لا يتعارض شغل هذا المنصب أو هذه الوظيفة مع السلطة الإشرافية للجنة.

ومؤتمر الشعب الوطنى ولجنته الدائمة يقومان بنشاط هائل. وفى السنوات الأخيرة اتسم نشاطهما بتحسن نوعى إلى جانب الكم. فهما اللذان كانا وراء التحول الاقتصادى إلى آليات السوق، وهما اللذان كانا وراء الاتجاه إلى توثيق العلاقات مع الدول الآسيوية عبر سلسلة من الاتفاقات على اختلافها.

فقد فحص المؤتمر الثامن ولجنته الدائمة وأقرا ١٢٩ قانونا ومشروع قرار تتصل بقضايا تشريعية، وأصدرا ٨٥ قانونا وقرارا تتصل أيضا بقضايا تشريعية، وأقرا ٦٠ اتفاقية ثنائية ومتعددة الأطراف. وكل ذلك تم فى ٥ سنوات بين عامى ١٩٩٣ و١٩٩٨. وخلال هذه السنوات الخمس أجريت الانتخابات على المستوى القومى مرتين. إحداهما على مستوى البلديات والثانية على مستوى المقاطعات، وشملت انتخاب «مؤتمر الشعب الوطنى».

وتتفرع لجان خاصة عن مؤتمر الشعب الوطنى، ولكنها تعمل تحت إشراف اللجنة الدائمة وقت انعقاد المؤتمر.

وليست هناك فوارق ظاهرة فى الحياة السياسية الصينية على أساس جغرافى أو سكانى إلا فيما يتصل بإقليم التبت الذى تحرك كثيرا من سكانه نزعات انفصالية. وعلى الرغم من تمايز المسلمين بدرجة كبيرة فى الإطار العام للشعب الصينى فإنهم لا يتسمون بأى نزعة انفصالية.

ويتألف شعب الصين من ٥٦ قومية، وأكثرها تعدادا هى قومية «الهان» ولذلك يطلق على الـ ٥٥ قومية الأخرى تعبير «الأقليات القومية».

والواقع أن الاختلاف والتباين فى عدد سكان كل أقلية قومية يبدو شديدا، فأكثرها عددا مثلا قومية «شوانج» إذ يزيد عدد أبنائها على ١٥ مليون نسمة، بينما لا يزيد عدد أبناء قومية «لوبا» على ٢٤ ألف نسمة. والشعب الصينى على كل حال يتسم بالتجانس، فتعدد القوميات لا يعنى انفصال السكان جغرافيا، فمقاطعة يونان مثلا تسكنها أكثر من ٢٠ قومية مختلفة.

أما أبناء قومية «الهان»، وهى ـ كما قلت ـ أكثر القوميات تعدادا، فينتشرون فى جميع أنحاء الصين، وإن كانوا يسكنون أساسا فى مجارى النهر الأصفر، ونهر يانجتسى، ونهر اللؤلؤ الأوسط والأسفل، وفى السهل الشمالى الشرقى.

والقوميات الصينية إجمالا هى: الهان، ومنغوليا، وخوى، والتبت، والويجور، ومياو، وويى، وبويى، وشوانج، ومان، وكوريا، ودونج، وباى، وياو، وهانى، وتوجا، والقازاق، وداى، وواوشه، ولى، وليسو، وكاوشان، ولاهو، وشوى، وناشى، ودونج شيانج، وجينجبوه، والقرغيز، وداهور، وتونج، ومولاو، وبولانج، وسالار، وماونان، وآتشانج، وكلاوو شيبوه، وبومى، وطاجيك، ونو، وأوزبك، وروسى، وأونكه، ودانج، وباو آن، وجينج، وتتار، ودولونج، وألونتشون، وخهتشه، ولوبا، ومنبسا، وجينسوه، ويويكو، ومانتشو.

ولعلك تلاحظ أن الأسماء السابقة تدل على امتداد عرقيات من دول أخرى فى أراضى الصين مثل أبناء طاجيكستان وقازاقستان، وروسيا، ومنغوليا، والتتار، وكوريا، وغير ذلك.

وعلى الرغم من هذا التعدد القومى والعرقى فإن هناك ما يمكن أن يوصف بالثقافة الواحدة المستقاة من تاريخ الصين الطويل وحضارتها القديمة، وتراثها الحديث الذى تمثله «الماوية».. نسبة إلى الزعيم الراحل ماو تسى تونج. ولهذا الرجل الذى كانت روحه قريبة إلى الفلسفة أقوال لا ينساها الصينيون. منها:

- كانت هناك ضفدعة فى قاع بئر، وكانت تقول لنفسها إن السماء ليست أوسع من فوهة هذه البئر، لذلك يجب ـ كما يقول ماو ـ استشفاف الكل لا الجزء كى نصل إلى الحقيقة.
- الصين الجديدة حصيلة تطوير وتنمية الصين السابقة، ولا يمكننا الانسلاخ عن تاريخنا، بل علينا أن نأخذ فى الاعتبار كل ماضينا، إذ لا يمكننا تطبيق «الماركسية» فى حياتنا إلا بعد تطويعها لخصائص بلادنا ومزاياها، وبما يتلاءم وقالبنا القومى.

لقد قال ماو هذه الكلمات عام ١٩٣٨، ولقد أثبتت الأيام قيمتها حقا، وربما تكون الفلسفة التى طبق ماو ورفاقه الماركسية من خلالها قد عصمت الصين من الكوارث التى حلت بالاتحاد السوفيتى، وروسيا التى كانت تتزعم هذا الاتحاد.

بين الأساطير والماركسية

الأساطير الصينية القديمة فيها قبس من الروحانية التى غابت عن تطبيق الماركسية والشيوعية فى روسيا، ومن هذه الأساطير أسطورة تقول: لجأ سكان منطقة مجدبة إلى أحد النساك يسألونه الرأى، ويرجونه أن يتشفع لهم فى صلاته لعل المطر يهطل. واعتكف الناسك فى صومعته ثلاثة أيام فى محاولة منه لإصلاح نفسه لعله يرقى إلى المرتبة التى تجعله قادرا على التشفع لهم، وبعد ثلاثة أيام هطل المطر.

وتؤكد هذه الأسطورة روحانية الشعب الصينى، واعتقاده فى أن هناك قوة عليا لها السيطرة النهائية على الكون الذى نعيش فيه. وقد كان ماو نفسه لا يقضى فى بكين أكثر من أربعة أشهر فى العام، وقد اعتاد الشعب على احتجابه لفترات طويلة دون أن يكون مطلوبا منه تبرير هذا الاحتجاب.

وربما كان هذا الرجل يهرب من الناس للتأمل! بل ربما كان يصنع ما يصنعه بعض حكماء الصين الذين لايزالون يلجأون إلى الكهوف بحثا عن الحقيقة، وهربا من زيف الحياة. بل ربما كان يتخفى ليتحرى بنفسه عن قرب حقيقة ما يجرى فى البلاد.

ويقول الفيلسوف الصينى صن يات سن عام ١٩٢٥: لا شىء أفظع، ولا أشرس، ولا أشر من حضارة أوروبا وأمريكا.. تلك المادية المحضة، والتى نسميها ـ نحن الصينيين ـ بربرية، ولعل قوتنا الذاتية ناجمة عن كرهنا وإهمالنا لهذا النوع من الحضارة، فالطريق الصينى، طريق الإنسانية والأخلاق، هو الذى أسمته كتبنا القديمة، الطريق السليم.

ولا يخفى بعض المسئولين فى بكين أن قضية الأقليات العرقية بالصين من المشكلات القديمة والكبيرة، التى يصعب على الحكومة الصينية حلها، أو التعامل معها بدرجة من هدوء الأعصاب. ويذهب أحد هؤلاء المسئولين إلى تشبيه شعوب هذه الأقليات بـ «جياد البرارى الوحشية» التى يصعب ترويضها، ملمحا إلى أن هذه الأقليات قد تثور فى أى وقت سعيا لنيل استقلالها عن الحكم المركزى الصينى والخروج من نطاقه إلى أنواع أو درجات من الحكم الذاتى.

ولايخفى بعض المسئولين أيضا أن علاقات الحكومة المركزية فى بكين بالأقليات ليست خالية من الشوائب، التى تصل أحيانا إلى حد العداء، مشيرا إلى أن أبناء بعض الأقليات، لا ينسون الإجراءات التى اتخذتها السلطات الصينية طوال عشرات السنين ضدهم بقصد إضعاف موروثاتهم الثقافية، ومن ذلك أن السلطات الصينية قررت حظر تعليم لغة «الويجور» أثناء الثورة الثقافية. و«الويجور» هم المسلمون الصينيون ويقطنون إقليم سنكيانج ويمثلون الأغلبية هناك وهم من أصول تركية. وكانت هذه المنطقة قد شهدت أحداثا دامية انتهت بمصرع العشرات وإصابة واعتقال المئات.

وتحاول الأقليات العرقية، مثل الويجور المسلمين والتبت البوذيين، مقاومة الحكم الصينى منذ عقود، ولكن انتفاضاتهم تنتهى إلى لا شىء بسبب المقاومة الشديدة من جانب الحكومة الصينية لأى عمل تشتم منه رائحة الدعوة إلى الانفصال عن الوطن الأم. وكان الشيوعيون الصينيون قد سيطروا على الحكم فى تلك الأقاليم بعد انتصارهم فى الحرب الأهلية بين عامى ١٩٤٤ و١٩٤٩ بقيادة ماو تسى تونج.

وترى الصين أن كل إقليم من أراضيها جزء لا يتجزأ منها، وتؤكد أنها مستعدة لبذل النفس والنفيس من أجل الدفاع عنها، مهما تكن الانتقادات أو الهجوم عليها.

وعلى سبيل المثال، يعتبر إقليم سنكيانج الذى تتركز به الأقلية المسلمة منطقة استراتيجية تمثل أهمية أمنية كبيرة بوقوعها على الحدود الغربية للبلاد وتجاورها مع دول منطقة آسيا الوسطى، وباكستان، وأفغانستان، والإقليم غنى أيضا بالبترول.

ويمكنك أن ترى كل القوميات الصينية فى بكين، فى حديقة القوميات، وهى من معالم العاصمة الصينية وقد زارتها السيدة الفاضلة سوزان مبارك قرينة رئيس الجمهورية، والدكتور بطرس غالى الأمين العام السابق للأمم المتحدة، ونائب رئيس البرلمان التايلاندى. وقال أحد الزائرين الأمريكيين: رأيت مختلف قوميات الصين فى مكان وزمان محدودين، وبعد الزيارة أدركت سبب عظمة الصين.

وتعج حديقة القوميات الصينية بأفواج الزوار والسياح يوميا. وتعد قاعدة ضخمة لثقافات وعادات وتقاليد القوميات الصينية، وتجمع بين الفن المعمارى التقليدى والعادات والتقاليد الشعبية والرقص والغناء والحرف اليدوية والأشغال الفنية والأطعمة القومية. وتقع الحديقة على المحور الأوسط الشمالى لمدينة بكين، وتبعد عن ميدان السلام السماوى «تيان آن مين» حوالى ٥ كيلومترات، ويجاور الحديقة مركز الألعاب الأوليمبية شرقا، وقرية الألعاب الرياضية الآسيوية ومركز المؤتمرات الدولى شمالا.

ويوجد بالحديقة ١٦ قرية تتكون من البيوت التقليدية لقوميات التبت، ومياو، وبويى، وكوريا، وجينجبوه، وخهتشه، وأونكه، وآلونتشون، وويى، وآتشانج، وداهور، وتونج، وداى، وهانى، وقومية كاوشان فى جزيرة تايوان التى منها فروع أمى، وبايوان، ويامى.

وبالإضافة إلى ذلك تضم الحديقة مزارات عديدة مقلدة لأشهر المناظر الطبيعية الجميلة فى مختلف مناطق الصين، وذلك لتجسيد البيئة المعيشية للقوميات الصينية، ومنها أشجار تين البنغال الاستوائية التى تشتهر بها ولاية شيشوا نجبانا بإقليم يونان، والكهوف الكريستالية فى مقاطعة كويتشو، والغابات الترابية البنية اللون فى هضبة يونان - كويتشو، وشلال بانلونج فى وادى جيوتساى بمقاطعة سيتشوان، والشجرة الإلهية فى جبل آلى بجزيرة تايوا، بالإضافة إلى الطوطم الحديدى الضخم الذى ينتصب فى الجانب الشرقى لمدخل الحديقة، والذى يعد أضخم تمثال حديدى فى الصين فى الوقت الحاضر.

كما تم فى عام ١٩٩٦ بناء متحف للقوميات الصينية، وساحة للتماثيل، و٢٠ قرية قومية بجنوب الحديقة. وقد بنيت حديقة القوميات الصينية باستثمار مشترك بين الصين وهونج كونج وتايوان. وتقول السيدة وانج بنج المديرة العامة للحديقة: هناك هدف مشترك يجمعنا ـ الأطراف الثلاثة ـ معا، وهو صيانة الوحدة الوطنية، وحماية وتنمية عادات وتقاليد القوميات الصينية، فبناء هذه الحديقة عمل مثالى وخير لصالح الوطن والشعب، كما اتفقنا بالإجماع على تأسيس صندوق خاص لإنقاذ الثقافات الشعبية للقوميات الصينية بالدخل المتحقق من بيع تذاكر الحديقة.

والسيدة وانج بنج هى المصممة العامة لحديقة القوميات الصينية، وهى من مواليد مقاطعة كويتشو، وهى سيدة قديرة مفعمة بالحيوية والنشاط، ولعت بالفنون الجميلة الشعبية منذ طفولتها، ثم تعلمت فن الرسم المحفور ونحت التماثيل بنفسها، وانهمكت فى الإبداع الفنى مستلهمة من حياة أبناء موطنها، وباجتهادها وموهبتها الفذة صارت فنانة مشهورة فى الصين منذ الثمانينيات، وقد أقامت معرضين لأعمالها الخاصة فى صالة العرض المركزى بقاعة الفنون الجميلة ببكين. ولقد صقلت الحياة الواقعية موهبة الفنانة وانج بنج، فأعمالها تفيض بعبق حياة مختلف القوميات التى تتخذ من هضبة كويتشو موطنا لها.

وفى السنوات الأخيرة لاحظت السيدة وانج بنج أن ركودا بدأ يعترى الثقافة الصينية، لاسيما الثقافة الشعبية للقوميات، فى حين ينمو الاقتصاد الصينى بشكل مطرد. وأثار ذلك فى نفسها شجنا، فأهابت بمختلف الأوساط الاجتماعية فى العاصمة بكين العمل لإقامة مركز ثقافى قومى يعكس ثقافات مختلف القوميات الصينية التى يبلغ عددها ٥٦ قومية. وقد لقيت دعوتها استجابة حارة من كثير من الشخصيات البارزة ورجال الأعمال ذوى النظرة الثاقبة. وفى عام ١٩٩١ دخل مشروع بناء حديقة القوميات الصينية طور التنفيذ.

وفى التاسعة من صباح كل يوم تبدأ أمام مدخل حديقة القوميات الصينية مراسم الترحيب الضخم، حيث يجتمع جميع فنانات وفنانى فرق الرقص والغناء من قرى مختلف القوميات فى الحديقة تحت أشجار تين البنغال الصناعية يرقصون، ويغنون

بفرح وسرور لاستقبال أول فوج من الزوار والسياح لحديقتهم. وبعد ذلك يعودون إلى قراهم ليقدموا للزوار والسياح الرقص والغناء أو مشاهد من المعيشة والإنتاج لقوميتهم.

وإلى يسار ساحة موناو للرقص والغناء فى حى قومية جينجبوه، تجد مجموعة من ثمانية فتيان يرتدون الزى القومى الجديد، وينفخون المزمار، وفى الجانب الأيمن هناك مجموعة من الفتيات الجميلات يرتدين الزى القومى الزاهى، ويحملن أكياسا مزخرفة فى خصورهن، ويتناوب هؤلاء الفتيان والفتيات الغناء بصوت حلو جميل. وبينما يغنون يدعون الزوار والسياح الذين يلتفون حولهم إلى مشاركتهم الغناء بحركات أيديهم وابتساماتهم. وجميعهم من أبناء قومية جينجبوه الذين يعيشون فى جنوب الصين الغربى.

وتقول السيدة وانج بنج: إن هدف الحديقة هو إبراز واقع حياة مختلف القوميات فى الصين، لذا فإن جميع العاملين فى قرى الحديقة من الممثلين والمرشدين إلى من يقومون بالخدمة جاءوا من مناطق الأقليات القومية. أما المبانى والبيوت التقليدية لتلك القرى فيها، فبنيت على غرار قرى هذه القوميات الأصلية، وأيضا بنفس حجمها. كما جمعت مواد بنائها وأثاثها، ومفروشاتها، والتحف والأعمال الفنية وأشغال الحرف اليدوية التى تعرض فيها، والأزهار والمزروعات التى تزرع أمامها وخلفها جميعا من مواطن تلك الأقليات القومية.

ويعد عرض مظاهر الحياة الشاملة لإحدى هذه القوميات فى مكان محدد إحدى ميزات حديقة القوميات الصينية. ولنأخذ حى قومية التبت مثلا. إنه يضم نماذج الطريق إلى المحج، ومعبد داتشاو البوذى، وقاعة تانتشن، والمساكن الشعبية بمنطقة كانجبا التبتية، وصفوف من الأوعية النحاسية الدوارة المنقوش عليها نصوص أسفار اللامية، وشارع باجياو التجارى، وقصر لينكا، وكومة «أحجار مانى» المنحوت عليها نصوص الأسفار البوذية، وخيمة الراعى التبتى وغيره. ومعبد داتشاو الذى بناه ملك التبت سونجتا نجمبو بمناسبة زواجه من الأميرة ون تشنج فى أواسط القرن السابع الميلادى يرمز إلى التضامن الوطنى، ودائما ما يقدم اللامات التبتيون عروضا من أوبرا التبت أمام هذا المعبد. وقاعة تانتشن عبارة عن مبنى بوذى مشهور لقومية التبت، وبه تمثال

الإله فيرا والرسوم الجدارية السوداء الجميلة وغير ذلك. وكان قصر لينكا مقرا صيفيا للدلاى لاما، أما نموذج شارع باجياو التجارى فيقدم للزوار صورة مصغرة لتطور تجارة واقتصاد مدينة لاسا عاصمة منطقة التبت. وتعرض فى المساكن الشعبية لمنطقة كانجبا التبتية أنواع من الأدوات التى يستخدمها التبتيون فى حياتهم اليومية.

ولوضع تصميم حديقة القوميات الصينية، توغلت السيدة وانج بنج وزملاؤها فى مناطق الأقليات القومية المنتشرة فى أنحاء الصين حيث قاموا باستطلاعات ميدانية وتصوير أشرطة الفيديو لحياة الناس، كما جمعوا آراء واقتراحات العلماء والمتخصصين من مختلف القوميات فى مجال الفنون والرسم والعادات والتقاليد الشعبية والعمارة وغيره على نطاق واسع. وبعد وضع تصميم الحديقة، تم استقدام عدد كبير من النحاتين والعمال الحرفيين المهرة من مختلف القوميات للاشتراك فى بنائها.

وكما تقول أنشودة حديقة القوميات الصينية: «فى الماضى كنا عائلة واحدة، واليوم مازلنا عائلة واحدة، فلنتحد ونعش بود وألفة لأننا أفراد عائلة واحدة».

ولا شك أن إقامة حديقة القوميات الصينية صعد بالسياحة فى بكين إلى درجة أعلى، وأضاف إليها معنى أعمق.

وقيمة حديقة القوميات الصينية ليست سياحية فقط، بل تمتد إلى مجالات شتى..

وكان من الصعب على الصين أن تعيش هذه التغيرات القومية والاقتصادية والسياسية لولا ظهور زعيم قوى هو دنج شياو بنج، وهو الأكثر شهرة بعد قائد الصين العظيم ماو تسى تونج الذى رحل منذ أكثر من عشرين سنة، والذى كان قد وضع - بالثورة التى قادها فى أواخر النصف الأول من القرن العشرين - نهاية لزمن طويل من حياة الذل والعبودية التى عاشها شعب الصين العريق. ولأنه حقق هذا الإنجاز الذى كانت تحلم به الملايين ولا تنتظره، فقد أصبح ماو تسى تونج أقرب إلى الأسطورة فى أذهان الصينيين.

فحين كانت الصين تمر بهذه المحنة التى سجلها التاريخ فى زمن الاستعمار كان ظن البعض أنها وصلت إلى قاع الهاوية، وأنها لن تقوم لها قائمة. ولكن لما جاءت الثورة بقيادة ماو عادت الحياة إلى عروق الشعب الصينى.

ثم ماذا حدث؟

الماركسية الصينية

كانت الثورة الصينية قد قامت على المبادىء الشيوعية التى صاغها ماركس ولينين. وبعد سنوات أخذت السلطة الصينية تطعم هذه المبادىء بأفكار وآراء ماو تسى تونج. وقرب أواخر فترة حكم ماو شعرت الدائرة المحيطة بزعيم الصين أن هناك انحرافا عن المبادىء الشيوعية والماوية، فبدأت ما سمته «الثورة الثقافية». وبدعوى المحافظة على المبادىء الاشتراكية السامية تعرض ملايين الصينيين للاضطهاد. وظن الناس أن الصين تعود بسرعة إلى عهد مظلم جديد من تاريخها الطويل على الرغم من أنها صاحبة حضارة عظيمة امتدت ألوف السنين.

ولكن ماذا حدث؟

بعد سنوات قلائل من رحيل ماو، وعلى غير ما ظن البعض، وقفت الصين شامخة الهامة من جديد، وضربت مثلا فى التنمية الاقتصادية والاجتماعية الشاملة جعل رجلا مثل جيسكار ديستان الرئيس الفرنسى الأسبق، يقول: إن القرن المقبل سيكتسى باللون الأصفر (فى إشارة إلى الصين). وقد جعلت تجربة التقدم والتنمية الصينية أغلب المحللين يتوقعون أن تكون الصين قوة عظمى فى القرن الجديد.

فبعد رحيل ماو تسى تونج تسلم دفة القيادة رجل تجاوز السبعين هو دنج شياو بنج. ولكنه على الرغم من تقدم سنه كان له عقل وفكر شاب يافع، فإذا به يطرح أفكارا وتوجهات أصابت الكثيرين بالدهشة.

فما قام به دنج شياو بنج كان ثورة على الجمود والتخلف، وثورة على الانعزالية والانغلاق، وكان هدف هذه الثورة الانطلاق إلى عالم أرحب، كان من الضرورى الانخراط فيه، أخذا وعطاء.

وقد قرأ دنج تاريخ أمته القديم والحديث، واستخلص منه العبر والدروس، وطرح تصوره، وأدخل مفردات جديدة فى عالم السياسة مثل «الاشتراكية ذات الخصائص الصينية» و«اقتصاد السوق الاشتراكية» و «دولة واحدة ونظامان».

والتف الشعب حول دنج شياو بنج يؤيده ويشد من أزره فكان التحول الدرامى فى نظام الصين الاقتصادى والاجتماعى.

وقد ظن البعض أن الصين لن تستطيع مجاراة هذا التحول، أو أن تحقق منه نتائج طيبة، ولكن ـ بالحقائق والأرقام ـ حققت الصين أعلى معدلات التنمية الاقتصادية فى التاريخ الحديث وشهد مستوى معيشة المواطن الصينى قفزة كبيرة، وباتت الصين قوة اقتصادية لا يستهان بها.

والحقيقة أن رحيل دنج يوم ١٩ فبراير عام ١٩٩٧ لم يكن حدثا مفاجئا، ولم يكن صدمة أربكت القيادة الصينية، فالرجل كان غائبا عن ساحة الأحداث لظروف صحية غير مواتية منذ ما قبل رحيله بثلاث سنوات، ولكن وجوده باعتباره رمزا لنهضة الصين الحديثة كان ذا معنى كبير.

ولم يكن حزن الشعب الصينى على موت زعيمه حجر عثرة فى مسيرة الإصلاح، وواصل الجيل الثالث من القيادة الصينية بزعامة الرئيس جيانج تسه مين، العمل بسياسات دنج التى استقاها من الواقع الصينى وكرسها لخدمة هذا البلد، بل وتعميق الإصلاح والانفتاح فى الصين.

ألقى جيانج تسه مين أمين عام اللجنة المركزية للحزب الشيوعى ورئيس دولة الصين كلمة تأبين للزعيم دنج يوم ٢٥ فبراير ١٩٩٧ بقاعة الشعب الكبرى ببكين، تخليدا لإسهاماته فى تحقيق استقرار الصين وتحريرها، وفى بناء التحديثات الاشتراكية فى الصين.

سيرة زعيم

ولد دنج شياو بنج يوم ٢٢ أغسطس عام ١٩٠٤ بقرية بايفانج بمحافظة كوانجان فى مقاطعة سيتشوان. وبعد إتمام دراسته الابتدائية فى قريته التحق بمدرسة محافظة

توانجـان الإعـدادية، وفى عـام ١٩١٩ التـحق بمدرسـة تمهـيدية بمدينة تشـونجـتشـينج للطلاب المبعوثين إلى فرنسا . وفى صيف عام ١٩٢٠ سافر إلى فرنسا للدراسة، وكان عمره ستة عشر عاما . وبعد وصوله إلى فرنسا، وبعد انتظامه فى الدراسة لعدة شـهور اضطر إلى العـمل فى أحـد المصـانع، وتعـرف على بعض الطلاب الروس واعـتنق الماركسية.

وفى عـام ١٩٢٢ انضم دنج شياو بنج إلى الحزب الشـيوعى الصينى للشبيبة (فرع أوروبا لعصبة الشبيبة الاشتراكية الصينية). وفى عام ١٩٢٤ أصبح رسميا عضوا بالحزب الشيوعى الصينى، ومنذ ذلك الوقت أصبح ثوريا بارزا، فاشترك فى قيادة فرع أوروبا لعصبة الشبيبة، كما كان مبعوثا خاصا للحزب فى منطقة ليون وعمره ٢٠ سنة.

وفى أوائل عام ١٩٢٦ ترك دنج شياو بنج فرنسا إلى الاتحاد السوفيتى حيث درس فى الجامعة الشرقية وجامعة تشونجتشان بموسكو.

وفى ربيع عـام ١٩٢٧ عـاد دنج شـياو بنج إلى الصين بناء على أوامر قيادة الحزب ليتولى الأعمال الشيوعية (الاشتراكية) ذات الطبيعة السرية الخاصة. وفى الفترة بين عامى ١٩٢٨ و١٩٢٩ تولى منصب رئيس سكرتارية اللجنة المركزية للحزب. وفى صيف عـام ١٩٢٩ قاد انتفاضـة مسلحة، وأسس مع تشانج يون بى الجناحين السابع والثامن للجيش الأحمر، كما أنشأ قاعدتى تشو جيانج ويوجيانج الثوريتين.

وعلى مـدى عشـرين عـامـا من النضـال الثورى المسلح حـرص دنج شـياو بنج على تنفيذ السياسة الاستراتيجية لماو تسى تونج (مؤسس دولة الصين).

وفى أثناء حرب مقاومة الصين للغزو اليابانى (١٩٣٧ ـ ١٩٤٥) فتح دنج شياو بنج مع ليو باى تشنج قاعدة المقاومة ضد اليابانيين فى شمال الصين، وكانت هذه القاعدة فى منطقة يسكنها ٢٤ مليون نسمة وتضم ٣٠٠ ألف محارب.

وخـلال حـرب التـحـرير (١٩٤٦ ـ ١٩٤٩) قـاد دنج شـيـاو بنج مع ليـون باى تشنج وآخرين حـملة سـميت حـملة «هواى هاى»، وهى أكبر الحـملات الحربية الثـلاث ضـد جيش الكومنتانج، واستمرت هذه الحملة ٦٦ يوما انتصر فيها دنج وقتل ٥٥٥ ألفا من

جيش الكومنتانج ثم قاد دنج بعدها حملة عبر نهر اليانجتسي وحرر مدينتي نانجينج وشنغهاي ومقاطعات الجنوب الشرقي، ثم قاد جيشه إلى الجنوب للمشاركة في تحرير التبت سلميا حتى تم تحرير الصين.

وفي سبتمبر عام ١٩٤٩، قبيل تأسيس جمهورية الصين الشعبية، انتخب دنج شياو بنج في الدورة الأولى الكاملة للمؤتمر الاستشاري السياسي للشعب الصيني عضوا بالحكومة الشعبية المركزية.

وفي الأول من أكتوبر عام ١٩٤٩ شارك دنج شياو بنج في الاحتفال بتأسيس جمهورية الصين الشعبية.

وفي يوليو من عام ١٩٥٢ انتقل دنج شياو بنج من الجنوب الغربي إلى بكين حيث عين نائبا لرئيس مجلس الشئون السياسية (مجلس الدولة حاليا) ونائبا لرئيس مجلس الشئون المالية والاقتصادية. ثم عين بعد ذلك رئيسا للاتصالات لمجلس الشئون السياسية، ووزيرا للمالية.

وفي سبتمبر ١٩٥٦ انتخب عضوا باللجنة الدائمة للمكتب السياسي للجنة المركزية الصينية، وأمينا عاما للجنة المركزية للحزب الشيوعي الصيني، ومن خلال نشاطاته وإنجازاته أصبح واحدا من البارزين في الجيل الأول من قادة الحزب الشيوعي برئاسة ماو تسي تونج.

وفي ذلك الوقت كانت الحالة الاقتصادية التي تمر بها الصين سيئة، وكان على الحزب الشيوعي الحاكم أن يجد الحلول، ولكنه ارتكب خطأين جسيمين:

- **الخطأ الأول** : أنه قام بتوسيع الصراعات الطبقية، فكثرت الدعاوى الخاطئة والتهم الباطلة.
- **والخطأ الثاني** : تعجل الحزب بناء الاقتصاد دون إعمال قوانين الاقتصاد الموضوعية.

وتسببت الثورة الثقافية التي أشعلها وقادها ماو تسي تونج بين عامي ١٩٦٦ و١٩٧٦ واستغلتها عصابة لي بياو وجيانج تشينج المعادية للثورة الصينية، في تأخر

الصين، وخلال هذه الفوضى التى اجتاحت الصين أقيل دنج شياو بنج من جميع مناصبه القيادية.

وبعد انتهاء الثورة الثقافية عاد دنج شياو بنج إلى القيادة فى أكتوبر عام ١٩٧٦، ووضع السياسة الاستراتيجية المتمثلة فى الإصلاح والانفتاح، وأبدع نظرية بناء الاشتراكية ذات الخصائص الصينية. وبسبب نظرية دنج استمرت الصين فى الإصلاح الاقتصادى، وتوسع انفتاحها على الخارج بصورة تدريجية، وازداد نمو الاقتصاد القومى، وحدث تطور سريع فى العلوم والتعليم والتكنولوجيا والثقافة. وطرأت تغيرات كبيرة على المجتمع الصينى مما استرعى انتباه العالم.

وبفضل سياسة دنج شياو بنج، انخفض عدد الفقراء فى الريف الصينى من ٢٥٠ مليونا إلى ٥٨ مليونا بعد تقلده حكم الصين، كما أصبح الفلاحون فى بعض المناطق الساحلية يسكنون فى بيوت من طابقين أو ثلاثة. وارتفع مستوى معيشة أبناء المدن، فقد كانت ساعة اليد والدراجة وماكينة الخياطة هى أقصى ما يتمناه أفراد الشعب الصينى فى السبعينيات، حتى سموها الأشياء الثلاثة الكبيرة، وفى الثمانينيات أصبح جهاز التليفزيون والثلاجة والغسالة هى الأشياء الثلاثة الكبيرة الجديدة، أما فى التسعينيات فقد أصبح أبناء الشعب الصينى يسعون إلى اقتناء التليفزيون والكمبيوتر. ولذلك فإن الشعب الصينى يكن كل التقدير للزعيم ماو تسى تونج لأنه قاد الصين إلى التحرير، وأسس جمهورية الصين، كما يكن كل التقدير للزعيم دنج شياو بنج لأنه حقق له الرخاء.

وبفضل حنكة دنج شياو بنج السياسية، وعرضه فكرة نظام «دولة واحدة ونظامان» توصلت حكومة الصين وحكومة بريطانيا إلى اتفاق كامل حول هونج كونج، ووقعت الحكومتان بيانا مشتركا يوم ١٩ ديسمبر عام ١٩٨٤، وعادت هونج كونج إلى الصين فى الأول من يوليو عام ١٩٩٧.

ولأن دنج شياو بنج يؤمن بالحلول الدبلوماسية فى القضايا الدولية، فقد استطاع أن يصل إلى اتفاق مع حكومة البرتغال لاستعادة ممارسة الصين لسيادتها على مكاو فى العشرين من ديسمبر ١٩٩٩.

ويرى المحللون السياسيون أنه لولا عودة دنج شياو بنج بعد انتهاء الثورة الثقافية في عام ١٩٧٦ ما كان إصلاح الصين وانفتاحها وتطورها الاقتصادى الذى تشهده اليوم ممكنا.

وفى عام ١٩٨٠ قدم دنج شياو بنج اقتراحا بإلغاء نظام أبدية المناصب القيادية بالصين، وقدم استقالته فى نوفمبر عام ١٩٨٩ من منصب رئيس اللجنة العسكرية إلى اللجنة المركزية للحزب الشيوعى الصينى.

وقال دنج شياو بنج فى أحد خطاباته المهمة للشعب الصينى: إننى ابن الشعب الصينى، أحب وطنى وشعبى حبا كبيرا.

وقد رحل الزعيم الصينى دنج شياو بنج فى التاسع عشر من فبراير عام ١٩٩٧ عن عمر يناهز الثالثة والتسعين عاما.

تحديات تواجه الحزب

برغم كل ما فعله هذا الزعيم الذى لن ينساه الصينيون فإن الحزب الشيوعى ظل مسيطرا على الحياة السياسية، ولكن لا تعنى هذه السيطرة أن يحكم بغير منافسة، فهناك معارضة سياسية وإن لم تكن على وتيرة واحدة، فهى تضعف ثم تقوى ثم تضعف.. وهكذا. وفى الوقت نفسه، تتعرض الجماعات التى ترفض نظام الحزب الواحد لضربات قوية من السلطة الصينية، وما قضية قمع مظاهرات الطلاب المطالبة بالديمقراطية فى ميدان السلام السماوى فى قلب بكين ببعيدة.

وبخلاف ما حدث فى ميدان السلام السماوى، هناك الاعتقالات للمعارضين واستجوابهم. ويضطر بعضهم للفرار من وجه السلطات حين تبدأ رحلة البحث عنهم بعد نشاط أو آخر من جانبهم، ويهرب بعضهم إلى المنفى فى خارج البلاد.

ومع ذلك يواجه الحزب الشيوعى الصينى بين وقت وآخر تحديات كبيرة تطالبه بأن يلتزم بإصلاح قانونى ودستورى. وفى إحدى هذه المرات، وقّع ٧٩ معارضا من ١٩

إقليما ومدينة على رسالة مفتوحة تدعو إلى إطلاق سراح ٥ معارضين تم اعتقالهم لمحاولتهم الحصول على موافقة السلطات على تشكيل حزب سياسى جديد.

ولاحظت وسائل الإعلام الغربية أن هؤلاء المعارضين تم القبض عليهم، ولكن بدلا من التراجع قال عدد كبير من الموقعين على الرسالة إن الاعتقالات زادتهم جرأة، وإنهم يستغلون هذه الفرصة من أجل وضع إطار قانونى ونظرى لمعارضة سياسية أقوى فى الصين. كما بدأوا بتنظيم مساندة قانونية على امتداد البلاد تطالب بإطلاق سراح المعتقلين.

ويقول أحد منظمى جهود المساندة القانونية، وهو معارض صينى قديم: «الأمر يختلف الآن عن السابق، حين كان رجل واحد يسبح بمفرده ضد تيار السلطة المهيمنة». ويضيف الرجل قائلا: «نحن نخرج بحركتنا الآن إلى النور، ونمارس نشاطنا بشكل جماعى، وقد زدنا من انفتاحنا وشفافيتنا وتخلصنا من الكتمان الذى أحاط بحركتنا».

وعن رد فعل السلطات يقول هذا المعارض الصينى: «عندما يكون الهاتف مراقبا يكون الأمر أقل غموضا بالنسبة للسلطة، ويمكن لرجالها أن يستريحوا قليلا، فهم يشعرون بالخوف إذا كان المعارضون يعملون سرا».

إن من المؤكد أن السلطة الصينية لم تكن متسامحة بأى درجة مع المعارضة الطلابية التى تم قمع مظاهرتها عام ١٩٨٩، ولكن يبدو أن هناك جوا من التسامح المحدود ناتجا عن خصوصية المرحلة الحالية فى تاريخ الصين. فقد عزز الرئيس جيانج تسه مين من سلطته، وألمح ألى أن حكومته قد تكون أكثر تسامحا من ذى قبل إزاء حرية التعبير. ويعلم المعارضون أيضا أن جيانج يراهن بشدة على تحسين العلاقات مع الولايات المتحدة التى أوى إليها عدد كبير من المعارضين الصينيين، والتى تؤيد بدرجة أو بأخرى حركتهم.

ومن المؤكد أيضا أن المعارضين فى الصين لاحظوا عن قرب نتائج زيارة الرئيس الأمريكى كلينتون للصين عام ١٩٩٨ فيما يتصل بالتزام بكين بالإصلاح السياسى. ويرى مراقبون أمريكيون مهتمون بالشئون الصينية أنه حان الوقت لكى تواصل الصين

تسامحها إزاء المعارضة، وأن تقطع شوطا نحو الإصلاح الدستورى، وإلا فإن الثمن قد يكون باهظا بالنسبة للحكومة الصينية التى تعتمد على الولايات المتحدة فى الحصول على معدات حديثة شديدة التقدم، وضرورية للتطوير التكنولوجى فى الصين.

ويهتم الغرب بصورة كبيرة بالتطور السياسى الداخلى فى الصين، وقد طالعت عشرات المقالات حول ذلك، وكان أحدها يتناول وضع المعارضة الصينية فيقول: على الرغم من أن المعارضين كتبوا العديد من الرسائل المفتوحة فى الأسابيع الأخيرة من عام ١٩٩٨ إلى السلطات الرسمية بخصوص مطالبهم، فإن الرسالة التى طالبت بإطلاق سراح خمسة معارضين تلفت النظر بسبب العدد الكبير للموقعين عليها، وكذلك اللهجة الجريئة لكثيرين ممن اشتركوا فى كتابتها. ويقول أحد هؤلاء: « لقد اعتقلت ١٠ مرات طوال ١١ سنة، وبالتالى فإن اعتقالا آخر لن يعنى شيئا لى». ويضيف قائلا: إن دستور الصين يوفر عددا كبيرا من الحقوق للمواطنين، وإن على السلطات أن تلتزم بما جاء فى الدستور لا بما تنص عليه القوانين التى وضعتها هى، والتى تتناقض مع الدستور.

وعلى سبيل المثال ينص الدستور على حرية التعبير، وحرية الاجتماع، وحرية إقامة الاتحادات والروابط، وهو ما ينطوى على حرية تأسيس الأحزاب التى يطالب المعارضون بأن يتمتع بها المواطنون.

فالقانون الصينى يضع المعارضين أمام معضلة، إذ أنه يحظر تشكيل حزب سياسى إلا بعد تسجيله لدى السلطات، ومع ذلك فإن القانون لا ينص على إجراءات تسجيل أحزاب سياسية جديدة.

ووسط جو التسامح النسبى من جانب القيادة الصينية، بدأ المعارضون يضيفون نشاطات أخرى إلى حملة جمع التوقيعات، وهى نشاطات تتجاوز مجرد إظهار التكاتف والتعاون فى مواجهة السلطة الصينية. وقد كان أحد الموقعين على التماس المطالبة بإطلاق سراح المعتقلين الخمسة هو «وانج بى جيان» الذى درس القانون فى جامعة بكين، وهى الجامعة التى تخرج فيها أيضا «وانج يو كاى» أحد مؤسسى حزب الصين الديمقراطى، وهذا الرجل معتقل حاليا. وقد ساعد بى جيان زوجة يو كاى على إيجاد

اثنين من المحامين للدفاع عن زوجها، بعد أن رفض محامون بارزون الدفاع عنه بدعوى أنهم مشغولون جدا، بل أشاروا إلى أن مشاغلهم أهم من الانخراط فى هذه القضية الحساسة.

ويقول بى جيان إن المساعدة فى العثور على محام هى أمر مشروع فى الصين، تماما مثل محاولة تسجيل حزب سياسى جديد. وقالت زوجة يو كاى إنها تلقت محادثات هاتفية كثيرة يعرض أصحابها تقديم الدعم المالى والقانونى لها ولزوجها بعد اعتقاله. وأضافت أنها ستحاول تحمل العبء المالى بنفسها. ولكن عددا من المعتقلين الآخرين كانوا ينتمون لأسر فقيرة.

الفصل الخامس

متاعب المرأة الصينية

كانت مفاجأة مذهلة تلك التى قرأتها فى دراسة عن المرأة الصينية.

إن المرأة الصينية المحافظة بالطبيعة كانت تؤمن دائما بأنها ظل الرجل. لكن هذه الدراسة التى أصابتنى بالذهول تقول: إن غالبية النساء فى الصين يفضلن أكثر من رجل فى حياتهن، لو ترك لهن الخيار. والغريب أن هذه الدراسة صادرة عن معهد علمى رسمى هو معهد البحوث السكانية التابع لأكاديمية العلوم الاجتماعية الصينية. إذ أن نسبة كبيرة من الصينيات قلن: رجل واحد لا يكفى، والاقتصار على رجل واحد فى الحياة هو أمر سلبى.

ويرى الذين أزعجتهم هذه الآراء الجديدة أن التحول الاقتصادى الذى تشهده الصين كان لابد أن يؤدى بالضرورة والتبعية إلى أنواع من التخلخل الاجتماعى. وأكثر السياسات الاقتصادية تأثيرا فى هذا المجال هى سياسة الاستغناء عن العمالة الزائدة، بعد أن أصبحت الشركات تدار على أساس الربح والخسارة، وهو ما ضاعف من أعداد العاطلين عن العمل فى الشوارع، بخلاف القادمين من الريف إلى المدن. وكان أن أصبح على الرصيف حوالى ١٠٠ مليون شخص يعانون من الفراغ والوحدة، ومستعدين لأى شىء.

وقد بدا التخلخل الاجتماعى حادا إلى درجة أن الصين أصبحت تعرف لأول مرة منذ سنوات الثورة مهنة بائعة الهوى، خاصة فى بكين. ومنذ سنوات وزعت مطبوعات تعلن عن بدء نشاط هذه المهنة القديمة قدم التاريخ وإعادتها من جديد. فقد خرجت مجموعة تسمى نفسها «مجموعة بنات الهوى» تطالب بقانونية «المشروعات الجنسية» والاعتراف بهذه المهنة لكن السلطات الصينية صادرت المطبوعات.

ويمكن أن تقوم المعاهد العلمية - حتى فى الدول المحافظة - بعمل مثل هذه الدراسة الجريئة، لكن الأكثر جرأة أن تقوم بنشرها صحيفة صينية هى صحيفة «تشاينا ديلى» الناطقة باللغة الإنجليزية، والمعنى المقصود من النشر هو القول بأن صوت المرأة بدأ يرتفع فى الصين، وأن جدار الصمت الذى كان مفروضا عليها قد تحطم، ولم يعد ممكنا بقاؤه برغم مرور قرون طويلة عليه.

وقد رفع شعار «رجل واحد لا يكفى» نصف نساء الريف وغالبية نساء المدن.. حسب هذه الدراسة المثيرة.. وهو ما أفزع الكثير من علماء الاجتماع الذين راحوا يتحدثون عن تغير الشخصية الصينية - بفعل التحولات الاقتصادية والثقافية التى شهدتها البلاد - من شخصية محافظة تتمسك بالقيم الأسرية والعادات والتقاليد إلى شخصية متحررة، أو منفلتة على حد قول البعض.

وأثارت نتيجة الدراسة - التى جرت بين سكان بكين - دهشة لا حد لها، بعد أن أعلن الإخصائيون الذين أشرفوا عليها أن الصينيين لا يرفضون ولا يمانعون فى إقامة علاقات عاطفية خارج نطاق الحياة الزوجية، ورفض عدد هائل ممن شاركوا فى الاستفتاء وصف العلاقة غير الشرعية بأنها علاقة غير أخلاقية.

وكان استفتاء آخر قد جرى قبل هذا الاستفتاء بخمس سنوات، واستنكر فيه معظم الصينيين مجرد توجيه السؤال إليهم، وأكدوا أن العلاقات غير الشرعية خارج البيت عمل غير أخلاقى بالمرة. ووصف المسئولون فى مؤسسة بحوث الأسرة فى بكين التغيرات التى طرأت على أوضاع الأسرة فى الصين فى سنوات القرن العشرين الأخيرة بأنها « لا مثيل لها فى التاريخ».

وهناك ظاهرتان جديدتان فى العلاقات الزوجية فى الصين :

- زيادة نسبة الطلاق خلال السنوات العشر الأخيرة من القرن العشرين، وهو مؤشر خطير على أن الأسرة الصينية باتت تعانى أمراض الأسرة الأمريكية والغربية.
- لجوء كثير من الصينيين إلى إعادة اكتشاف طبيعة وقيمة الحياة الزوجية فى محاولة منهم لتغيير أنماط سلوكهم القديم، وتجديد وتقوية الروابط الزوجية.

وقد كانت الظاهرة الثانية ردا على الظاهرة الأولى بكل تأكيد. ولم يكن غريبا إذن أن تنشأ فى شنغهاى منذ أكثر من عامين أول دار للسيدات اللاتى يتعرضن للضرب بأيدى أزواجهن، وبمجرد إنشائها، بدأت فى استقبال الشاكيات، وتلقت مئات المكالمات من سيدات يطلبن المساعدة.

وكان العنف ضد النساء فى الصين قد اختفى قرونا طويلة حماية لسمعة الأسرة، ولكنه بدأ يتحول تدريجيا إلى قضية عامة فى الصين. وفى نوفمبر عام ١٩٩٦ صدرت فى شنغهاى، الواقعة فى إقليم هونان فى وسط الصين، القوانين الأولى لوقف المعاملة السيئة للزوجات من جانب الأزواج، وإجبار الشرطة على إنهاء تجاهلها لضرب الزوجات.

وكان قد افتتح خط ساخن خاص بالعنف المنزلى فى أواخر عام ١٩٩٤ فى بكين، وتلقى مئات المكالمات فى الأشهر الثمانية الأولى لافتتاحه اشتمل عدد كبير منها على شكاوى خاصة بضرب الزوجات.

وفى دراسة شملت ٢١١٨ زوجا وزوجة فى بكين فى العام نفسه، اعترف ٢١,٣٪ من الأزواج بضرب زوجاتهم. وأظهرت إحصاءات أخرى أن ربع حالات الطلاق فى الصين (حوالى ٤٠٠ ألف حالة عام ١٩٩٤) كان سببها العنف الأسرى. ويؤكد الباحثون الصينيون أن العنف ضد المرأة فى المنزل كان ظاهرة اجتماعية منذ العصور القديمة، خاصة فى المناطق الريفية. ففى الريف يرى كثير من الأزواج أن ضرب الزوجة أمر عادى.

ولكن الأمر الجديد فى الصين هو أن منظمات المرأة طرحت هذه القضية علانية لمساعدة الضحايا، ومارست ضغوطا على السلطات لكى تفعل شيئا فى مواجهة هذه الظاهرة.

ومما يؤكد أن التحول الاقتصادى كان وراء ارتفاع صوت المرأة، أن «دار شنغهاى للسيدات» أنشأتها شركة خاصة، وتبلغ التكاليف السنوية لها ما يعادل ٦٠ ألف دولار تدفعها هذه الشركة.

ويقول صاحب الشركة واسمه جانج: «قرأت فى إحدى الصحف أن ثلثى الذين قد أقدموا على الانتحار بإلقاء أنفسهم فى النهر كانوا من السيدات ضحايا العنف المنزلى». وأضاف: «وقد قرأت عن فتاة عمرها ١٦ عاما هربت من منزلها وأصبحت فى عداد المفقودين بسبب العنف فى المنزل أيضا». ثم طرح فكرته على اتحاد المرأة فى شنغهاى بعد أن تأثر بهذه المعلومات. ويقول إنه أراد أن يحذو بهذه الفكرة حذو نموذج أمريكى يوفر دارا للسيدات اللاتى يتعرضن للشدائد.

وهذه الدار يقوم بتشغيلها طاقم من اثنى عشر شخصا، وتوفر ١٢ سريرا فى غرفتين إلى جانب قاعة طعام، وحمامات، وصالون لقص الشعر، ومغاسل ملابس. وبالدار أيضا خدمة طبية، وأخرى قانونية، وبها خط تليفونى ساخن يعمل ٢٤ ساعة يوميا. وتدفع المرأة التى تقيم بالدار ٢٠ يوانا (حوالى ٢,٤ دولار أمريكى) يوميا. وكل هذا يحدث على الرغم من أن هناك اعتقادا على نطاق واسع، حتى بين الجهات القضائية، بأن العنف المنزلى مسألة خاصة يتعين ألا يتدخل فيها أحد من خارج الأسرة.

ومادامت المرأة الصينية قد استردت بعض حريتها، وبعض قدرتها على أن تجأر بالشكوى، فلابد أن الوقت قد جاء لتقول للزوج الظالم، أو المستهتر العابث: لا.

وقد قالتها نساء صينيات كثيرات، وارتفعت معدلات الطلاق فى بكين بصورة جعلتها قريبة من معدلات الطلاق فى الغرب حيث تتمتع المرأة بحرية واسعة النطاق فى مختلف الاتجاهات. ومنذ وقت غير قصير تشير السجلات إلى أن حالة طلاق تقع بين كل ٤ زيجات. والأكثر أهمية من ذلك أن تقريرا رسميا يقول إن الرجال يقع عليهم اللوم فى ٧٠٪ من هذه الحالات.

والتحول الاقتصادى الجارى فى الصين هو السبب فى أن معظم الأزواج يتحملون المسئولية عن وقوع الطلاق، لأن كلا منهم يبحث عن زوجة جديدة بعدما يصبح ثريا.

أما الثلاثون بالمائة الأخرى من حالات الطلاق، فإن النساء تتسببن فيها نتيجة عدم احترامهن لحمواتهن، أو مطالبتهن الأزواج بتحمل أعباء اجتماعية أو مالية لا يقدرون عليها. ونساء من هذا النوع لم يكن بإمكانهن فى السابق أن يحصلن على الطلاق، وكان ما يحصلن عليه هو تطييب الخاطر، فإن أبين يتعرضن للضرب من قبل الأزواج.

ومعنى ذلك أن معدلات الطلاق قد ارتفعت فى الصين بهذه الصورة الكبيرة نتيجة ارتفاع دخول المواطنين بشكل خاص، وارتفاع مستوى المعيشة بشكل عام، وظهور أفكار جديدة حول الزواج. وتشير الإحصاءات إلى أن مئات الألوف من حالات الطلاق تقع فى الصين كل عام منذ أوائل التسعينيات.

وقد افتتح نادى الطلاق الأول فى الصين عام ١٩٩٥ ليضم فى عضويته الأسر التى تعانى من آثار الطلاق الذى انتشر فى أنحاء البلاد. وقد بدأت عضوية النادى بـ٢٠ شخصا ثم ارتفعت إلى ٣٠٠ شخص خلال ثلاثة شهور.

وعلى الرغم من هذه الحرية النسبية التى نالتها المرأة فى المدن الصينية على الأقل، مازال الاتجار بالنساء، وهو من الممارسات الصينية القديمة، مستمرا. وتحاول السلطات القضاء عليه، ولكن الأرباح الوفيرة المتحصلة منه تغرى عصابات شراء النساء بتحدى القانون.

امرأة بـ ٣٥٠ دولارا

فى الصين يمكنك مقابل ٣٥٠ دولارا أن تشترى امرأة بسهولة تقترب من سهولة شراء جهاز تكييف، أو أثاث حجرة طعام. صحيح أنه قد يصدر حكم على رجل بالسجن لفترة تصل إلى ثلاث سنوات إذا اشترى امرأة، وربما يصدر حكم بإعدامه إذا باعها، ولكن الصين لاتزال تحتاج إلى قوانين أشد ومطاردة أكثر قسوة لردع جيوش الشبان الذين يفشلون فى العثور على شريكة الحياة. والسبب هو أن عدد الرجال فى مناطق كثيرة أكبر بكثير من عدد النساء.

وفى قرية بإقليم يونان فى جنوب غرب الصين، هناك أكثر من ١٠٠ أعزب مؤهل للزواج بينما لا توجد فتاة واحدة فى كل القرية تصلح للزواج.

ويقول المسئولون الصينيون إن عدد العزاب فى البلاد سوف يزيد إلى ٨٠ مليون شاب قبل نهاية القرن العشرين. ومعنى ذلك أن الصين أمام تركيبة سكانية واجتماعية يغيب عنها الاتزان، وهو أمر يهيئ الفرصة للقلاقل والاضطرابات، كما قال لى أكثر من مسئول صينى.

وبسبب حساسية هذه المشكلة تشن الشرطة حملات متعاقبة فى العاصمة والأقاليم لضبط تجار النساء، وتحرير المخطوفات. وفى كل مرة يتم تحرير مئات النساء، وتحرير مئات المحاضر بعد القبض على المخالفين لتقديمهم إلى المحاكمة.

وتتسبب عمليات خطف النساء لبيعهن، أو تزويجهن، أو تشغيلهن فى أعمال منافية للآداب فى إثارة جو من القلق الاجتماعى. ويقول الصينيون - انطلاقا من جو القلق الذى يعيشونه - إن تجارة الرقيق الأبيض عادت للانتشار بصورة كبيرة بعد اختفائها طيلة عشرات السنين فى ظل الثورة الشيوعية. ولا يجد الصينيون اطمئنانا على الرغم من القانون الذى صدر عام ١٩٩١ ويقضى بتشديد العقوبات ضد المتورطين فى هذه التجارة. وينص هذا القانون على تطبيق عقوبة الإعدام فى المتاجرين بالأعراض.

وتتدخل الشرطة الصينية بصورة مستمرة من أجل تحرير المخطوفات، وإيقاع العقاب بالمختطفين فى مئات الحالات التى تشهدها البلاد كل بضعة أسابيع. وتشير الإحصاءات الرسمية إلى أن قوات الشرطة أنقذت عشرات الألوف من الأطفال والسيدات المخطوفات، واعتقلت عشرات الألوف من المتهمين فى السنوات الأخيرة.

وتتركز عمليات خطف النساء فى المناطق الريفية الفقيرة.

وقد صدرت فى السنوات الأخيرة أحكام تتراوح بين السجن لمده خمس سنوات والإعدام على مئات الألوف من الأشخاص الذين أدينوا بتهم خطف الإناث أو المساعدة على ارتكابها. ومع ذلك يثير كثير من الناس انتقادات حادة فى وجه سلطات الأمن، ويتوجهون إليها بمطالب تتضمن تكثيف الرقابة على العمال المهاجرين إلى المدن،

ومراقبة أفراد العصابات الأجنبية، وتكثيف الرقابة على صالات الرقص. كما تصاعدت فى الآونة الأخيرة نداءات بضرورة التركيز على التعليم باعتباره الدرع الواقية من الجريمة والفساد الأخلاقى والفساد الاقتصادى.

ويرجع الاتجار بالنساء إلى عصور قديمة فى الصين، ولم يتوقف إلا بعد أن تولى الشيوعيون الحكم فى عام ١٩٤٩. ولكن تم الكشف منذ ٨ سنوات عن تجدد ارتكاب هذه الجرائم. فقد كشف حكام الصين الشيوعيون ـ بعد فترة من إخفاء هذه الممارسات التى تشوه صورة الصين ـ عن خطورة المشكلة، حين أقروا فى عام ١٩٩١ قانونا ينص على أن « استغلال الآخرين بالاتجار بهم عقوبته الإعدام». وكان المقصود بهذا ـ بالطبع ـ النساء، لأنه لا اتجار هناك إلا بالنساء.

والحقيقة أن هذه القضية تترك آثارا إنسانية مأساوية تنتشر قصصها فى كل مكان. وفى أحد الأفلام تظهر جثث ضحايا الخطف. وفقيرات الريف هن غالبا ضحايا تجارة النساء، إذ يتم خطفهن وبيعهن زوجات أو عشيقات لأثرياء الفلاحين فى مناطق غير المناطق التى يتم اختطافهن منها، وغالبا ما تكون المناطق التى يجرى بيعهن فيها تتحدث لغة محلية غير تلك التى تتحدثها المخطوفات.

والمصيبة فى هذه الجريمة أن كثيرا ممن يمارسونها لا يشعرون بالندم عند ضبطهم، ولا يبدون استعدادا للتوبة على الرغم من العقوبة الفظيعة المقررة. ويقول مسئول بجهاز الأمن الصينى: «إن بعض من نضبطهم بتهمة شراء مخطوفات يطالب باسترداد الثمن الذى دفعه فى شراء المرأة».

وتجد عصابات خطف النساء فى الريف سهولة شديدة فى عملها لأن الريفيات اللاتى يتطلعن إلى الحياة المتحضرة، ويرغبن فى حياة أفضل فى المدن، يقتنعن بسرعة بالرغبة التى يبديها أعضاء هذه العصابات فى اصطحابهن إلى المدن. ولكى يسهل أفراد هذه العصابات مهامهم أكثر، يعرضون على الفتيات دفع تكاليف السفر. ويتم نقل بعض المخطوفات إلى المدن فعلا، ولكن يتم إجبارهن هناك على الاشتغال بعمل غير شريف، أو يتم بيعهن لمن يدفع ثمنا باهظا. أما بعض هؤلاء المخطوفات فيذهب إلى الريف أيضا، ولكن فى إقليم آخر ليباع هناك للراغبين فى الزواج.

والباحثون عن زوجة عددهم كبير فى الصين، إذ يشكلون نسبة ٦٪ من عدد السكان. ويشكل المزارعون غير المتعلمين ٧٠ أو ٨٠٪ منهم، وهم يعيشون فى مناطق فقيرة ومتخلفة فى الجبال حيث تتضاءل فرص العثور على زوجة. ومن الأيسر والأرخص شراء زوجة بمبلغ لا يزيد على ما يعادل ٤٠٠ دولار، بدلا من دفع مهر لعروس شرعية يصل إلى ما يعادل ١٢٠٠ دولار.

وبسبب هذه المشكلات وغيرها كان انعقاد مؤتمر المرأة فى الصين منذ قرابة عامين صداعا حقيقيا للصين، فلم يكن فى ذهن المسئولين الصينيين أن انعقاد المؤتمر فى بكين سيفتح أمامهم الباب للكثير من المتاعب. وكان من أبرز هذه المشكلات أن السيدة الأولى فى الولايات المتحدة هيلارى كلينتون انتقدت - بأسلوب غير مباشر- الحكومة الصينية حول المسائل المتعلقة بانتهاكات حقوق المرأة، وحقوق الإنسان ومن بينها حرية الرأى، والوضع فى هضبة التبت، مما أضاف المزيد من الحساسية للعلاقات المتوترة أصلا بين بكين وواشنطن.

وأضيف إلى هذا النقد، الهجوم الشديد من جانب أعضاء المنظمات غير الحكومية على الأوضاع الاجتماعية فى الصين.

وفى الوقت الذى ركزت فيه وسائل الإعلام الغربية على انتقادات هيلارى كلينتون، تجاهلت وسائل الإعلام الصينية السيدة الأولى الأمريكية وكلمتها، وكان التليفزيون الصينى قد تجنب نقل وقائع وصولها إلى بكين.

وقد كان المؤتمر مناسبة لتسليط الأضواء على مشكلات المرأة فى الصين بعد أن ظلت تعيش ميراثا من الاضطهاد عمره أربعة آلاف عام، سادتها التقاليد الراسخة بدءا من إهمال المواليد الإناث، أو وأدهن، أو وضع أقدام الفتيات الصغيرات فى قوالب حديدية حتى لا تكبر أقدامهن أو يتركن البيت، وعدم إلحاقهن بالمدارس.

وكان من بين هذه التقاليد طبعا، عادة بيع الفتيات لتزويجهن قسرا فى قرى أخرى بعيدة، حيث لا توجد فتيات فى سن الزواج، وهناك تبدأ رحلة الفتيات مع العبودية حيث

يضطررن للعمل فى الحقل دون مقابل مادى، ويخدمن أسرة الزوج دون حق فى الشكوى أو التبرم.

أما إذا فكرت أى واحدة منهن فى الهرب فإن مصيرها يكون الضرب، والتعذيب، والحبس فى المنزل، إلى درجة أن بعض هؤلاء الفتيات فقأ أزواجهن عيونهن لمنعهن من الهرب. وحتى مطلع القرن العشرين كانت الأمهات إذا أنجبن إناثا يطلقن عليهن أسماء، أو على أفضل تقدير يسمونهن «لايد» أو «زاهودى» أو «ينى دى».. وكلها أسماء ذات معنى يفيد التمنى بإنجاب مولود ذكر.

ويقول كثير من المحللين الاجتماعيين إن سياسة تنظيم الأسرة فى الصين هى التى أحدثت الخلل الحالى فى التوازن الطبيعى بين أعداد الإناث والذكور. فالوضع الطبيعى هو أن الشعوب من مختلف الأجناس يولد بها ١٠٠ أنثى مقابل ١٠٥ أو ١٠٦ مواليد من الذكور. ولكن هذه النسبة تختل بدرجة كبيرة فى الصين حيث الغالبية من الذكور.

ومنذ فترة ليست بعيدة كان وأد البنات من أهم أسباب الاختلال. وقد جرت عادة بعض القابلات على الاحتفاظ بإناء به ماء أسفل سرير الولادة لإغراق المولود إذا كان أنثى.

وفى المناطق الريفية النائية يلجأ الأزواج والزوجات إلى وسائل علمية لمعرفة نوع الجنين أثناء الحمل، باستخدام التشخيص بالموجات فوق الصوتية. فإذا كان هناك دليل، ولوكان ضئيلا، على أن الجنين أنثى يتم إجهاض الحمل على الفور، وفى أحيان كثيرة يكون الإجهاض خطرا جسيما على الأم، باعتبار أن وسائل قديمة، بل بالية، تستخدم فى عمليات الإجهاض.

وعلى الرغم من أن الإجهاض يعرض حياة الأم للخطر فإن الزوجات لا يترددن فى الإقدام عليه حتى تتوافر لهن فرصة إنجاب مولود ذكر، وحتى يرضين أزواجهن. حتى لو كان ما يقترفنه ضارا بهن ضررا بليغا.

أساليب أخرى للتحايل

هناك أساليب أخرى - أقل جرما من وأد البنت - للتحايل على القانون، مثل عدم تسجيل المولود الأول إذا كان أنثى، أو إخفائها عن العيون حتى تكبر، أو إهدائها لبعض أسر الأقارب أو الجيران ليتولوا مهمة تربيتها. وفى الصين ٢٥٧ مليون أسرة، ويعيش ٩٠٪ من الأزواج حياة مستقرة نسبيا، ولكنّ هناك أسبابا كثيرة تهدد بتفكك الأسرة الصينية. فمنذ السبعينيات اتجهت حالات الطلاق فى الصين إلى الزيادة بصورة بطيئة، واستنادا إلى البيانات الرسمية بلغ عدد حالات الطلاق ٩١٠ آلاف حالة عام ١٩٩٣، أى ما يعادل ٩,٩٨٪ من ٩,١٢ مليون زيجة تمت فى السنة، أو ١,٥٤ فى الألف من عدد سكان البلاد. واستنادا إلى بيانات جهاز الخدمة المدنية، كان عدد الزيجات فى سنة ١٩٩٤ هو ٩,٢٩ مليون زيجة، وكان عدد حالات الطلاق فى نفس هذه السنة ٩٨٠ ألف حالة، أى بنسبة ١٠,٥٦٪ من الزيجات.

ووفقا للقانون الصينى تحصل الأم على حق حضانة الطفل بعد طلاق الوالدين فى معظم الأحوال، ومن ثم نرى عددا غير قليل من الأسر التى تعولها الأم فقط. ويشير التقرير إلى أن ١.٢٪ من الأطفال الصينيين يعيشون فى كنف أسرة الأم فقط، أو الأب فقط، ويعيش أكثرهم مع الأم. فوفقا لبيانات أحد معاهد البحوث ببكين، يعيش ٧٢٪ من أطفال المطلقين مع الأم فى حين يعيش ٢٨٪ منهم مع الأب.

واستنادا إلى أرقام جهاز الخدمة المدنية، بلغ عدد حالات الزواج للمرة الثانية ٧٨٠ ألف حالة فى سنة ١٩٩٤، منهم ٣٧٨ ألف امرأة، أى بنسبة ٢٨,٥٧٪ من عدد المطلقات فى تلك السنة، وأوضحت الأرقام أن نسبة زواج المرأة من جديد أقل من الرجل.

وبسبب تأثير مفاهيم الأسرة الإقطاعية التقليدية يعانى بعض المطلقات من تمييز المجتمع ضدهن، وإذا كانت المطلقة لديها طفل يصعب أن يقبلها كثير من الرجال. وبعض المطلقات تزوجن مرات بسبب عسر الحياة، ومن ثم كانت هناك أزمة جديدة فى زواجهن، وربما يعتبر زواج الأم المطلقة مشكلة تواجه المجتمع الصينى الآن.

المرأة سيدة أعمال

المرأة الحديثة فى الصين سيدة أعمال أيضاء خصوصا بعد رفع القيود وتحرر الأفكار الاقتصادية، وانحسار التخطيط المركزى للاقتصاد الذى تقضى به النظرية الشيوعية. وتسعى المرأة الصينية اليوم بدأب لإقامة مشروع يحقق الربح. ومن الضرورى أن تجد المرأة الصينية إغراء للعمل وتحقيق الربح فى هذا الوقت الذى يشهد أسرع ازدهار اقتصادى على وجه الأرض فى هذه البلاد منذ عام ١٩٧٩.

ونتيجة لذلك، بدأت تظهر فوارق كبيرة بين النساء الصينيات من ناحية الدخل والمكانة الاجتماعية. ولم يعد صعبا اليوم أن تلمس هذه الفوارق، أو بمعنى أصح، لم يعد صعبا أن تلمس التطورات الجديدة فى حياة المرأة الصينية. ففى مكان أو آخر فى بكين، أو شنغهاى، أو أى مدينة أخرى كبيرة فى الصين، سوف تجد سيدات تلقين تعليما عاليا ويتحدثن اليوم بطريقة راقية، ويختلطن بصفوة المجتمع، ويتنقلن فى سيارات فارهة يقودها سائقون خصوصيون.

والنساء اللاتى لم يتلقين تعليما عاليا أو متوسطا، يستطعن أيضا إدارة عمل أو متجر صغير هنا أو هناك يدر عليهن دخلا كبيرا لم يكن الناس يحلمون به فى الصين منذ عشرين سنة.

صحيح أن عالم الأعمال لا يزال يهيمن عليه الرجال، ولكن النساء يضعن اليوم أقدامهن بثبات فى هذا المجال الصعب المراس. وقد لا تصدق أن أكثر من أربعة ملايين سيدة يتولين اليوم إدارة شركات تتراوح أعمالها بين كبيرة ومتوسطة.

وبالإضافة إلى ذلك فإن ملايين من النساء، بمن فيهن ربات البيوت، أقبلن على شراء الأسهم والسندات والعقارات.

وبعض النساء فى الصين أنشأن شركات نشاطها مبتكر، لم تكن الصين تعرفه من قبل، مثل مشروع قائم على إنتاج مادة يفترض أنها تخفض وزن الجسم بما يتراوح بين نصف كيلوجرام وكيلو جرام واحد فى اليوم. وقد أقيم هذا المصنع فى إحدى ضواحى بكين، ويبلغ إنتاجه ٢٤ ألف كرتونة فى الشهر، وهو أقل من الطلب الفعلى. بل تجاوز

هذا المصنع السوق المحلية إلى أسواق خارجية تستوعب جزءا صغيرا من إنتاجه فى اليابان وكوريا الجنوبية. وتخطط الشركة لإقامة مصنع جديد لتصنيع المنتج نفسه فى صورة بسكويت لبيعه فى أسواق خارجية أخرى.

وتقول صاحبة المصنع لمن يسألونها عن السبب وراء إقامة هذا المشروع: «عندما سافرت إلى الخارج شاهدت مراكز لإنقاص الوزن توفر التدريبات ونظم الغذاء الخاصة التى تؤدى إلى تحقيق غايتها، ولكن هذه المراكز لا تنجح مع الأشخاص الذين يعانون السمنة المفرطة».

ولكن هل كانت هناك جذور من نوع خاص وراء إقبال المديرات على الأعمال الحرة؟

ربما توجد إجابة جزئية فى تجربة - أو جذور - السيدة صاحبة المصنع الذى نتحدث عنه.

ولدت هذه السيدة واسمها «جو وو» عام ١٩٣٨ لأسرة ثرية فى بكين، وكانت فى طفولتها وصباها تزور متجر عمها الذى يبيع الوصفات الطبية الصينية، وكان أحد أكبر متجرين من هذا النوع فى بكين.

وفى مقتبل شبابها درست «جو وو» علم البساتين فى الجامعة، ثم عملت فى مجال تحسين البذور والتكنولوجيا الزراعية فى مزرعة بإحدى ضواحى العاصمة. وفى الفترة بين عامى ١٩٧٧ و ١٩٩١ عملت فى معهد لأبحاث التغذية فى بكين، وأصبحت منذ عام ١٩٨٢ مستشارة التغذية للقوة الخاصة المكلفة بحراسة كبار الشخصيات.

وفى عام ١٩٨٥ انتهت من تطوير أول منتج غذائى يمكن تسويقه تجاريا، وهو مشروب. وبعد عام ١٩٩١ كرست كل وقتها لمنتج إنقاص الوزن الذى تحدثنا عنه.

أما سيدات الأعمال غير المتعلمات، فإنهن يحققن مكاسبهن من التجارة فى مختلف أنواع السلع مثل المنتجات الجلدية، والحقائب، والملابس، وأدوات الزينة التى صار عدد مستهلكاتها فى الصين بالملايين.

ومن سيدات الأعمال من هذا النوع «جوانج»، التى ولدت عام ١٩٦٢ لأسرة فقيرة فى مقاطعة «لى كنج» على أطراف مدينة «وانجو» الساحلية بإقليم «جى جيانج» فى

جنوب شرق الصين. وفى عام ١٩٨٥ انتقل أحد أشقائها إلى بكين بحثا عن فرصة عمل فى تجارة الجلود، وتبعته هى فى عام ١٩٨٨ . وبعد عشر سنوات من تاريخ هجرتها إلى بكين كانت أسرتها كلها قد هاجرت إلى العاصمة.

وعن تجربتها تقول جوانج: «بدأت التجربة باستئجار مكان فى سوق كبيرة فى بكين لبيع السترات الجلدية، وكنت أحقق دخلا سنويا يبلغ ٦٠ ألف يوان (ما يوازى ٧٢٣٠ دولارا). وبحلول نوفمبر عام ١٩٩٤ كنت قد ادخرت ما يكفى لفتح متجر خاص فى أحد الشوارع الرئيسية فى جى جيانج جنوبى بكين، بتكلفة بلغت ١٠٠ ألف يوان (ما يوازى ١٢ ألف دولار) اقترضت معظمها بدون فوائد من الأصدقاء والأقارب». وحين مرت سنة على افتتاح المتجر كانت أرباح جوانج قد بلغت ١٠٠ ألف يوان، وهى تساوى تكاليف إقامة المتجر بالكامل.

ما سر نجاح هذه المرأة؟

إنها تتحدث عنه بنفسها فتقول: «نجاحى يرجع إلى العمل سبعة أيام فى الأسبوع، وإلى شبكة معارفى وأصدقائى فى «وانجو» التى تتيح لى أى تمويل أحتاج إليه وترفض البنوك توفيره لى».

وإذا كان هذا هو وضع المرأة فى المدينة والمناطق القريبة منها، فما هو وضع المرأة الريفية؟

ماو والمرأة

كان الزعيم الصينى الراحل «ماو تسى تونج» يكن تقديرا كبيرا للمرأة فى بلاده، ومن عباراته التى لا تنسى قوله «المرأة تملك نصف السماء». والمعنى المقصود بهذه العبارة هو أن المرأة، وهى نصف المجتمع، تحلق فى السماء من خلال أعمالها العظيمة.

ولو كان الزعيم ماو يعيش اليوم لقال أكثر من ذلك عن المرأة الصينية فى الريف بعد أن اخشوشنت بدرجة غير متوقعة، وتسببت فى ذلك ظروف الصين الجديدة. فقد وجدت

المرأة الريفية نفسها تخوض تحديا مع طبيعتها الرقيقة، بعد أن اضطرت إلى النزول إلى ميدان العمل الريفى لتعيش، فقد هاجر الرجال إلى المدن بحثا عن الأعمال التى تدر دخلا أكبر فى ظل الطفرة الصناعية الهائلة التى شهدتها البلاد.

وأصبح مألوفا اليوم أن تعمل المرأة فى حرث الأرض، وصناعة قوالب الطوب، والكثير من الأعمال التى تقصم الظهور، وهى الأعمال التى كانت فيما مضى حكرا على الرجال. وأصبحت المرأة تمثل فى بعض المناطق الريفية ٨٠٪ من الأيدى العاملة. وعلى الرغم من أن هناك اتجاها متناميا فى الولايات المتحدة إلى دعوة المرأة العاملة للعودة إلى البيت لرعاية أطفالها، والتفرغ لأسرتها الصغيرة، فإن الأمر مختلف فى الصين من زاويتين:

- **الزاوية الأولى** : أن قانون تنظيم الأسرة الذى يلزم الأسرة فى المدينة بإنجاب طفل واحد، ويلزم الأسرة فى القرية بإنجاب طفلين، جعل الأعباء الأسرية خفيفة على المرأة الصينية التى اعتادت تربية عدد كبير من الأطفال قبل هذا القانون. وقد كان عدد أفراد الأسرة الواحدة فيما مضى مختلفا بصورة جذرية عما هو عليه الآن، إذ وصل إلى عشرين فردا فى بعض الحالات، خصوصا فى الريف حيث كان الأبناء مصدر دخل للأسرة أو يساعدون فى الزراعة والحصاد وتربية الماشية ورعى الأغنام.

- **الزاوية الثانية** : أن استمرار المرأة فى العمل تحتاجه مسيرة الإصلاح الاقتصادى التى أدت إلى توسع كبير فى مختلف الأنشطة الاقتصادية. فالمرأة العاملة فى الصين تمثل ثلث إجمالى الأيدى العاملة، وبالتالى فإن عودتها إلى البيت، ولو بنسبة ضئيلة، تؤثر سلبا على برنامج الإصلاح الاقتصادى. بل إن الخبراء يتوقعون أن يودى تقدم عملية الإصلاح الاقتصادى ونجاحها إلى إتاحة فرص عمل على نطاق كبير للمرأة الصينية، خصوصا بعد أن تنحسر موجة البطالة الحالية التى تسبب فيها تشغيل الشركات على أسس اقتصادية، بمعنى الاستغناء عن العاملين الذين لا يحتاج العمل إليهم، تماما كما يحدث من جانب صاحب العمل فى الدول الرأسمالية.

وهناك على كل حال رأى معارض لعمل المرأة ويطالب بعودتها إلى البيت، انطلاقا من أن المرأة العاملة فى الصين تلقى معاملة قاسية من رؤسائها والمشرفين عليها. وأصحاب هذا الرأى مشفقون على المرأة باعتبار أنها تتحمل عبئين هما العمل والبيت.

وعلى الرغم من اختلاف الآراء يبقى الوضع على ما هو عليه.

حملات منظمة للتعقيم

تقوم الصين بحملات لإجراء عمليات تعقيم إجبارية للأمهات اللاتى أنجبت كل منهن طفلا. وقد يستخدم القائمون على هذه الحملات وسائل أخرى تحددها الدولة لتنظيم الأسرة. ولا تهتم الدولة بما إذا كانت الأم التى يجرى تعقيمها قد أنجبت من حملها الأول ذكرا أو أنثى. ولا تهتم الدولة أيضا بالعادات الاجتماعية الراسخة التى تجعل المولود الذكر أمنية عزيزة لدى سكان الريف على وجه الخصوص.

ومن يرفضن هذا التعقيم الإجبارى يتعرضن - إلى جانب أسرهن - لأنواع من العقاب الشديد الذى قد يصل إلى حد مصادرة جانب من الممتلكات مثل الأبقار. ولذلك ليس أمام الراغبين فى إنجاب طفل ذكر إلا الهروب من القرية إلى قرية أخرى، خوفا من تعقب السلطات لهم، وفى القرية الأخرى يحدث حمل آخر لعله يكون ذكرا. وعلى الرغم من قسوة هذه السياسة فإنها حققت الهدف المرجو منها بدرجة كبيرة، إذ انخفض معدل الإنجاب فى الصين إلى ١,٨٦ طفل لكل امرأة فى سن الإنجاب.

وتواجه الصين مشكلة كبيرة فى الخارج ناجمة عن سياسة تنظيم الأسرة التى تطبقها حكومتها منذ سنوات طويلة. وقد أدت هذه السياسة إلى ردود فعل غير مواتية ضد الحكومة الصينية فى مؤتمر المرأة الذى عقد فى بكين فى ١٩٩٥.

وتعمل أجهزة إعلام ومنظمات كثيرة بالخارج على ترويج صور بائسة ومزرية عن الأوضاع التى تقول هذه الأجهزة والمنظمات إنها ناجمة عن سياسة تنظيم الأسرة فى الصين. ومنذ فترة عرضت القناة الرابعة بالتليفزيون البريطانى فيلما تسجيليا يحمل عنوان «غرف الموت»، ويصور أوضاع ملايين الإناث من أطفال الصين، وهن اللاتى

تخلى عنهن آباؤهن نتيجة لسياسات تنظيم النسل التى تفرض على كل زوجين إنجاب طفل واحد لا غير. فإذا جاء المولود أنثى تركها أبواها وتجنبا إعلان أن الأم وضعت طفلا، حتى يتاح لهما إنجاب طفل آخر لعله يكون فى هذه المرة ذكرا.

وطبعا يتم نقل الطفلة إلى ملجأ فور العثور عليها فى الطريق العام، أو أمام أحد المعابد، أو فى مدخل إحدى العمارات، أو فى حديقة عامة. وقد أظهر الفيلم الذى عرضه التليفزيون البريطانى هؤلاء الأطفال اللائى مازلن فى خطواتهن الأولى فى الحياة وقد تم ربطهن بمقاعد من الخيزران بينما أرجلهن ممدودة فوق أوعية صغيرة ليقضين الحاجة، فلا وقت لدى العاملات فى هذه الدور لمساعدة كل طفلة حين تحتاج إلى مساعدة. ويظهر فى الفيلم أن الصغيرات تتركن دون رعاية ساعات طويلة، وجاء فى التعليق على الفيلم أن الصغيرات المحتاجات إلى رعاية طبية تتركن دون انتباه من العاملين فى الملاجئ الذين يحصلون على أجر ضئيل. وفى بعض الأحيان تذبل الطفلة المريضة ثم تموت.

ويمثل هذا الفيلم الوجه القاسى للتناقض الصارخ بين رغبة الدولة فى الحد من النمو السكانى، والتقاليد الصينية العميقة الجذور التى تفضل إنجاب الذكور. وقد لوحظ فى الآونة الأخيرة أن عدد المواليد من الإناث يقل عن عدد المواليد الذكور بنحو مليون طفل فى السنة. والسبب فى ذلك أن الطرق الحديثة التى تكشف عن نوع الجنين صارت موجودة فى كل مكان تقريبا فى الصين، وبالتالى يتم إجهاض الكثير من الأجنة بمجرد التأكد من أنهن إناث وأحيانا يتم قتل الإناث بعد الولادة مباشرة.

ولكن كيف تم تصوير هذا الفيلم إذا كان حقيقيا؟

تقول المحطة التليفزيونية البريطانية إن ثلاثة من مراسليها استطاعوا تصوير معظم اللقطات بصورة سرية بعد أن سمح لهم بدخول الملاجئ بحجة مختلفة، وكانوا عرضة لخطر السجن أو الترحيل على الأقل.

ولكن لماذا تطبق الصين هذا البرنامج القاسى لتنظيم الأسرة؟.

قالت السيدة «بينج بيون» رئيسة برنامج تنظيم الأسرة: إن الإجراءات الصارمة التى طبقناها فى مجال تنظيم الأسرة حالت دون مولد مائتى مليون طفل منذ عام ١٩٧٠.

وأضافت - فى تصريحات نشرتها صحيفة «الشعب» الرسمية - أن هذا البرنامج وفر للصين ٣٠٠٠ مليار يوان (ما يعادل ٨١٠ مليارات دولار) هى تكاليف تعليم وإطعام هذا العدد من الأشخاص حتى يبلغوا سن السادسة عشرة.

وفيما يبدو أنه رد واضح على حملة منظمات حقوق الإنسان ضد الصين، قالت : إن نجاح برنامج تنظيم الأسرة فى الصين كان له مغزى عميق فيما يتعلق باستقرار تعداد سكان العالم. ويبدو أن السلطات الصينية بدأت ترى ضوءا فى نهاية النفق المظلم، فاستطلاعات الرأى تشير اليوم إلى أن المدن الكبرى التى ارتفع فيها مستوى المعيشة بدأت تتقبل سياسة الطفل الواحد، وبدأت أيضا تتقبل بدرجة ما أن يكون هذا الطفل أنثى. وكان أول قياس للرأى حول هذه القضية الخطيرة قد أجرى فى شنغهاى كبرى مدن الصين.

ولكن لوحظ أن التأييد الكبير لسياسة الطفل الواحد كان بين المتزوجين حديثا. والمتزوجون حديثا هم طبعا من الشباب، والشباب هم دائما الذين يتقبلون الأفكار الجديدة، كما أن عددا منهم يواجهون ظروفا مادية صعبة فى بداية الحياة الزوجية بما يجعلهم يقبلون بسهولة إنجاب طفل واحد. ولوحظ أيضا أن ثلث الموافقين على الطفل الواحد يقبلونه أنثى، بينما ظل ٦٦٪ من أهل المدينة تواقون إلى إنجاب الذكور.

وشنغهاى - كما نعرف - هى أكثر المدن الصينية ازدحاما، إذ يبلغ عدد سكانها قرابة ١٤ مليون نسمة. ومع ذلك فإن الزيادة السكانية بها لا تصل إلى ١٠٠ ألف نسمة فى السنة.

وزيادة على ذلك فإن الشباب يتزوج اليوم فى سن أكبر، فيصل متوسط السن إلى ٢٨,٨ سنة للرجال، و٢٦,٨ للفتيات. ولكن الأوضاع مازالت كما هى تقريبا فى المناطق الريفية التى يعيش بها قرابة٨٠٪ من السكان.

وللمشكلة السكانية بالصين بعد خطير حذر منه الخبراء ، وهو أن ترك سكان الصين يزيدون بالمعدلات العادية فى مرحلة التطور التى تمر بها البلاد يؤدى إلى زيادة هائلة فى عدد السكان ، ويؤدى إلى سقوط مئات الملايين من الناس فى هوة الفقر السحيقة ،

ويؤدى أيضا إلى تدمير البيئة، إلى جانب استنزاف الموارد المتاحة بسرعة. ويمكن أن تكون لهذه المشكلة انعكاسات إقليمية فى غضون فترة قصيرة قد لا تزيد على ربع القرن. وإذا تركت القضية بلا علاج مناسب، فإنها يمكن أن تكون لها انعكاسات سلبية على المستوى الدولى لو تزعزع الاستقرار فى القارة الآسيوية بسبب تسرب عشرات الملايين من الصينيين إلى الدول المجاورة فى حالة نشوب اضطرابات داخلية.

ومع ذلك فإن تنظيم الأسرة الصينية بالطريقة الحالية له بعد آخر أكثر خطرا على المستوى الداخلى، ويتمثل فى مشكلة هائلة تواجه البلاد حاليا، وهى إعالة مئات الملايين من المواطنين كبار السن، الذين يشكلون نسبة كبيرة من عدد السكان. وقد نجمت هذه المشكلة عن فقدان التوازن الأسرى الذى أدت إليه سياسة «طفل واحد لكل أسرة».

المشكلة السكانية

كانت السياسة السكانية الصينية الراهنة قد بدأت بوادرها تظهر فى أوائل الخمسينيات، حين أخذ الزعيم الصينى الراحل ماو تسى تونج يشجع الصينيين على التخلى عن بناء الأسر الكبيرة العدد. ثم بدأ اتباع السياسة الصارمة لتحديد النسل فى السبعينيات.

ومع ذلك تعترف السلطات الصينية بأن سياسة «طفل واحد لكل أسرة» التى فرضتها منذ عام ١٩٨١، للحد من التزايد السريع فى عدد السكان، لم تصمد تماما أمام ضعف قبضة الدولة على السكان البالغ عددهم ١,٢ مليار نسمة. وأدى هذا أيضا إلى تدفق العمال الزراعيين من الريف إلى المدن للبحث عن عمل، وتتم تلك الهجرة بدون ضوابط.

وهناك اعتراف بأن معدلات المواليد المنخفضة لم يتحقق لها الاستقرار، وأن هذا يرجع أيضا إلى أن مفهوم الإنجاب لدى الجماهير العريضة لم يتغير جذريا. وقال لى مسئول فى تنظيم الأسرة الصينية قابلته فى بكين عرضا: إن هجرة العاملين من القرى

إلى المدن بأعداد كبيرة تسبب صداعا للحكومة، وكثير منهم يهربون من منطقة إلى أخرى حين يتعرضون لضغوط تستهدف إجهاض المرأة التى تخالف القانون. وأضاف قائلا: يبلغ عدد هؤلاء العمال الزراعيين الذين ليس لهم مقر إقامة ثابت حوالى ١٠٠ مليون شخص. وكانت الإحصاءات قد أوضحت أن عدد سكان الصين زاد بمقدار ٦٤٨ مليون نسمة خلال السنوات الخمس والأربعين الماضية، وقد أدى ذلك إلى ضغوط شديدة على إنتاج الحبوب والإسكان والتعليم والتشغيل.

ويلاحظ المسئولون الصينيون أن النمو السكانى الزائد على الحد يضعف فرص التنمية الاجتماعية، ويشكل ضغوطا على الموارد الطبيعية.

ويبدو أن الفرص الاقتصادية المتصاعدة جعلت العادات التقليدية التى تفضل الأسر الكبيرة العدد وإنجاب الذكور، تعود إلى الظهور من جديد مما زاد من صعوبة المشكلة السكانية.

وكلما زاد عدد السكان فى الصين شعرت سلطاتها بمزيد من الخطر. وحين تجاوز التعداد ١,٢ مليار نسمة جددت السلطات جهودها للحد من الزيادة السكانية، وشنت حملة مكثفة كبرى فى جميع أنحاء البلاد لهذا الهدف، خاصة فى المناطق الريفية وبين الطبقات العمالية التى فشل مشروع تنظيم الأسرة من قبل فى تحقيق نجاح كبير فيها.

وكان الهدف من هذه الحملة الجديدة ألا يزيد عدد السكان على ١,٣ مليار نسمة فى عام ٢٠٠٠، وذلك بخفض معدل النمو الحالى إلى أقل من ١٠ مواليد لكل ألف نسمة.

وكان معدل النمو السكانى قد بلغ ١١ مولودا لكل ألف نسمة فى عام ١٩٩٣. وهذا يعنى ولادة ٤٠ طفلا فى الدقيقة الواحدة أو ٥٨ ألف طفل فى اليوم الواحد. وفى السبعينيات - قبل أن تتبنى الصين سياسة طفل واحد لكل أسرة فى المدن - كان معدل النمو السكانى ٢٥ طفلا لكل ألف نسمة.

وتريد الصين أن تحقق توازنا بين عدد المواليد وعدد الوفيات، بما يحول دون حدوث أى نمو فى التعداد بحلول عام ٢٠٤٠. وفى ذلك الوقت، من المتوقع أن يتراوح عدد

سكان الصين بين ١,٥ و ١,٦ مليار نسمة. وفى الوقت الحالى تبلغ الزيادة فى عدد سكان الصين فى العام الواحد حوالى ١٢ مليون نسمة، أى أن الصين تزيد سكانيا بمقدار عدد سكان دولة متوسطة الحجم أو أقل قليلا.

وتعتزم بكين مواصلة حملتها دون اهتمام كبير بالانتقادات الموجهة إليها بانتهاك حقوق المواطنين فى تكوين الأسر التى يريدونها، وأنها تستخدم ضدهم وسائل الإجهاض الإجبارى، والتعقيم، وغير ذلك من الانتهاكات لحقوق الإنسان. وتقول السلطات الصينية إنها لا تقدم المساندة الرسمية لمثل هذه الممارسات، ولكن المعروف على نطاق واسع أن هذه العمليات تتم بتشجيع رسمى كبير.

وتقول الصين إن حملتها القومية لتنظيم الأسرة تربط ابتداء من فبراير عام ١٩٩٥ بين الإقبال على تنظيم الأسرة ومشروعات مساعدة الفقراء، بالإضافة إلى تخصيص حوافز مالية وعينية لمن يختارون تنظيم الأسرة. فهناك تعهدات من جانب المسئولين بتوفير ميزات خاصة للأسر ذات الطفل الواحد، منها إمداد هذه الأسر بأفضل الحبوب إن كانوا من سكان المناطق الريفية، بالإضافة إلى مزيد من برامج التدريب الفنى، وتمويل المشروعات الصغيرة بهدف رفع مستويات معيشتهم.

وفى حين تعد الصين أكبر دولة من ناحية عدد السكان فى العالم، فإن كثافتها السكانية تبلغ ثلاثة أمثال المتوسط العالمى، بمعنى أن هذا البلد مكدس بالسكان. ويشكل هذا التعداد عبئا ثقيلا على موارد الدولة وضغوطا قاسية على البيئة والبنية الأساسية، وفرص العمل. بل إن المسئولين الصينيين يخشون من احتمال تعرض البلاد لويلات حرب أهلية طاحنة لو أفلت الزمام بسبب مشاكل اجتماعية أو اقتصادية.

وكنت كلما تحدثت إلى مسئول صينى حول المشكلة السكانية يحاول أن يهون من الأمر بقوله: إن الآباء فى بعض المناطق الريفية يفضلون الذكور كثيرا على الإناث، لأنهم يعيشون حياة اقتصادية صعبة، ويحتاجون إلى أيد عاملة من الذكور.

ويفسر هذا ميل البعض منهم إلى الإجهاض، وذلك حين يتأكد من أن الجنين بنت، أو التخلص منها بعد الولادة بتركها فى الطريق العام، أو الهجرة بها إلى منطقة أخرى من أجل ألا يكتشف أمره أحد، وهناك تتم مرة أخرى تجربة إنجاب طفل ذكر.

ويبدو أن هذه الظاهرة انتشرت لدرجة تثير القلق مما حفز السلطات الصينية على إصدار أوامر إلى الأطباء بعدم الكشف عن نوع الجنين. كما أن هناك آباء كثيرين يفضلون إنجاب الصبيان لأن البنات يتزوجن ويتركن الأسرة. ويسرع هؤلاء المسئولون إلى القول: إن قتل البنات ربما يشكل نسبة تكاد لا تذكر من البنية السكانية الصينية.

وينتج عدم التوازن فى نسبة الذكور إلى الإناث فى الصين عن وجود مواليد إناث خارج السجلات، فالآباء يمتنعون عن التسجيل، ويتواطأ معهم مسئولو قيد المواليد فى مخالفة القواعد المقررة فى مقابل الحصول على بعض المال أو المزايا من الوالدين. ويهدف عدم القيد فى السجلات الرسمية إلى أن تبقى الفرصة قائمة أمام الأب والأم فى إنجاب طفل آخر فى وقت آخر مناسب، لعله يكون ذكرا يحقق حلم والديه فى أن يحمل اسم الأسرة ثم يكون معينا لهما عندما يكبران.

أما فى المدن فهناك آباء يفضلون أن يرزقوا ببنات، لأن البنات أكثر رقة ورعاية للوالدين.

وكانت الحكومة الصينية قد أدرجت تنظيم النسل ضمن سياسات الدولة الأساسية منذ أواخر السبعينيات بسبب الانفجار السكانى، فشجعت على إنجاب طفل واحد لكل زوجين فى المدينة، وطفلين فى الريف. واليوم يصل عدد الأطفال الذين بغير أشقاء أو إخوة إلى ٧٠ مليونا. وأدى هذا بدوره إلى إحداث تغييرات فى نمط الأسرة والعلاقات بين أفرادها، كما أوجد بعض المشكلات الاجتماعية التى أدت إلى طرح هذا التساؤل: هل يمكن لوحيد والديه أن يكون مفيدا للمجتمع؟! بمعنى: هل يحقق هذا النسيج الاجتماعى - الغريب على البشرية من الناحية التاريخية - احتياجات ومتطلبات المجتمع من الأيدى العاملة والعلماء والمفكرين والباحثين وغيرهم؟

وللإجابة عن السؤال أقول: تعتبر الظروف الثقافية للجيل الأول من الطفل الوحيد فى الصين استثناء، ذلك لأن آباءهم وأمهاتهم تعرضوا لكارثة مادية وروحية خلال الثورة الثقافية الكبرى، انعكست فى العناية الزائدة على الحد بأولادهم، فنشأت ظاهرة «الإمبراطور الصغير» المدلل الأنانى والمكابر. واليوم ما زالت هذه الظاهرة موجودة فى الأسرة الصينية.

ومع أن الجيل الأول للطفل الوحيد يعيش فى ظروف ممتازة، فإن ثمة عبئا ثقيلا ملقى على كاهلهم، فالآباء والأمهات الذين أجبروا على العمل فى الأرياف تاركين مدارسهم ومعها آمالهم العلمية، علقوا هذه الآمال فى رقاب أبنائهم، وكل منهم لا يقبل بأقل من أن يلتحق ابنه أو ابنته بالجامعة، خصوصا لاعتقادهم أن الجامعة هى الطريق إلى العمل الجيد والدخل الكبير. ولذا يهتم كثير منهم بالعلم والتعليم دون اهتمام كبير بالجوانب الأخلاقية والنفسية. وكانت النتيجة أن كثيرا من الأبناء تفوقوا عقليا، ولكن قدراتهم الأخرى فى الحياة ظلت ضعيفة، ولا يعرفون إلا الأخذ، ويعتقدون أن حب الآباء والأمهات لهم وعنايتهم بهم واجب على الوالدين.

ويتدخل بعض الآباء فى علاقات وتصرفات الأبناء خوفا من تأثير العادات السيئة خارج البيت عليهم، الأمر الذى جعل قدرة الأبناء على التواصل مع الآخرين ضعيفة. وتقلق المشاكل العديدة للطفل الوحيد الوالدين، مثل: هل يمكن لأبنائهم أن يواكبوا المجتمع الذى يشهد منافسات عنيفة؟ وهل يمكنهم أن يعالجوا العلاقات المعقدة بين الناس بكل ثقة؟ بل إن القلق يمتد إلى مدى قدرة الأبناء على بناء أسرة صغيرة.

وقد قامت أكاديمية العلوم الاجتماعية فى شنغهاى بدراسة عن الولد الوحيد، أشارت فيها إلى أنه أكثر اهتماما بتحقيق المصلحة الذاتية، وإطلاق العنان للمزايا الشخصية، وتظهر هذه الخصائص بوضوح فى اختيار الوظائف. فجميع الشباب يأملون فى الحصول على عمل مستقر ذى دخل كبير يتفق مع طموحاتهم وميولهم. وبالإضافة إلى ذلك، فإن الولد الوحيد يميل إلى اختيار الأعمال المنطوية على روح التحدى. فظهور الولد الوحيد له أثر إيجابى فى تطور المجتمع. ومنذ تطبيق سياسة تنظيم النسل، يهتم الآباء والأمهات بتعليم أولادهم بما يؤدى إلى ارتفاع المستوى الثقافى للأمة الصينية.

ويرى علماء الاجتماع الصينيون أن مشاكل اجتماعية جديدة ستظهر بعد دخول الولد الوحيد المجتمع، بسبب افتقار بعضهم لروح تحمل المشاق والمتاعب، لذلك فإن بعض المهن الشاقة ستواجه مأزقا. ففى بعض المدن الكبيرة يوافق ٢,٥٪ فقط من الآباء

والأمهات على احتراف أولادهم الرياضة البدنية، الأمر الذى سيؤدى إلى نقص القوة الاحتياطية للعبات الرياضية الصينية.

وإذا كانت الفكرة التقليدية الصينية تقول إن الوالدين يربيان أولادهما من أجل الاعتماد عليهم فى الشيخوخة، فإن مشكلة إعالة المسنين ستحير المجتمع الصينى فى المستقبل. فعلى الرغم من أن هناك علاقة حميمة بين الولد الوحيد ووالديه، وكذلك رغبة الولد الوحيد فى رد جميلهما، غير أنه يرغب فى الحياة المستقلة، لذلك لابد أن يكون هناك تعاون بين الولد الوحيد والمجتمع لإعالة والديه.

وتكشف مشاكل الولد الوحيد عن بعض العيوب فى التربية الأسرية، وتجذب مسألة «ما هو الأفضل لتربية ابنى» اهتمام الآباء والمدارس والمجتمع الصينى كله.

وبعد المشاركة فى مجالس الآباء فى المدارس وندوات التعليم الأسرى، وبفضل وسائل الإعلام يعرف الآباء أن التعليم الأسرى يشمل موضوعات متنوعة، مثل العلوم الثقافية والآداب ومعايير السلوك وغيرها من العلوم.

ومن أجل صقل عزيمة هؤلاء الأطفال تنظم بعض المدارس بعض التدريبات العسكرية لإكسابهم الصلابة والقدرة على التحمل.

ومع حلول القرن الحادى والعشرين فإن هؤلاء الأطفال سيتحملون مسئوليات جساما، وسيقع على عاتقهم تقدم مجتمعهم، وقد أتاح لهم تنظيم النسل ظروفا أفضل للنمو، فهم فى ظروف اقتصادية أفضل يمكن من خلالها بناء أجسامهم وعقولهم بشكل يمكنهم من قيادة وطنهم والنهوض به فى جو يخلو من المشاكل الخطيرة.

مستقبل المرأة السياسى

من المسائل التى شغلتنى فى رحلتى للصين مسألة مستقبل المرأة الصينية فى العمل السياسى. ويبدو للوهلة الأولى أن المرأة الصينية لن تخوض هذا المجال باقتدار مشهود وبارز إلا بعد أن تتحول الصين إلى النظام الديمقراطى المتعدد الأحزاب. فهذا النظام هو الذى يفجر طاقات الإنسان السياسية، رجلا كان أو امرأة. فهو نظام قائم

على المنافسة التى تقدح الأفكار فى الأذهان وتفجر طاقات العمل والسعى لخدمة الجماهير.

وربما تكون زوجات قادة الصين تمهدن لهذا بما جد عليهن من سلوكيات فى السنوات الثلاث الماضية. فعلى مهل وبحذر كبير، بدأت قرينات القادة الصينيين تظهرن فى صور مختلفة عما كن عليه من قبل. وهن اليوم يرتدين أزياء أشيك، ويتحلين بحلى تساير الموجود لدى الدول الغربية، ويرتدين فساتين ألوانها أنسب وأهدأ وأليق بهن باعتبارهن قرينات قادة البلاد.

وفى الوقت نفسه بدأ القادة يسمحون لزوجاتهم بالظهور إلى جانبهم فى المناسبات الرسمية والشعبية، ولكنهم مازلوا يشعرون بالخجل من هذه التصرفات التى كانت من قبل محظورة، بل محرمة طبقا للتقاليد الشيوعية.

وقد تعلمت السيدة «وانج يى بنج» قرينة الرئيس «جيانج تسه مين» دروس ارتداء الأزياء الراقية، على نفقتها الخاصة، فى زيارة قامت بها لهونج كونج فى الذكرى السنوية الأولى لعودة هذه المستعمرة البريطانية السابقة إلى السيادة الصينية.

ووقتها قالت صحف هونج كونج إن السيدة الأولى فى الصين استعانت بنصائح مصمم أزياء للتخلص من الأثواب ذات الألوان الصارخة، واكتشاف أسرار الماكياج وتصفيف الشعر.

وقال أحد مصممى الأزياء: لو كانت زوجة الرئيس الصينى ستبقى فى المنزل فإن الأمر كان يمكن أن يمر. ولكن المشكلة أنها تمثل من الآن فصاعدا الصين إلى جانب زوجها، وأنها يجب أن تغير صورتها بعض الشىء.

وقد كان بإمكان زوجة الرئيس الصينى أن ترد بأنها لم يكن لديها ما يكفى من الوقت للاستعداد لمواجهة أضواء الكاميرات المسلطة عليها بسبب انشغالها بالبيت، أو بأنه ليس بالإمكان أن يغير المرء من شكله فى سن الثانية والسبعين. ولكنها لم تقل ذلك لأنها تريد أن تؤدى العبء الواقع عليها فى دنيا الصين الجديدة.

وقد كان أول ظهور للسيدة «وانج يى بنج» على المسرح الدولى عام ١٩٩٤، حين سافرت إلى فرنسا مع زوجها الذى كان يقوم بزيارة رسمية. ووقتذاك كانت أى معلومات عن السيدة الأولى من أسرار الدولة. والمعروف عنها أنها مولودة فى شنغهاى، وحصلت هناك على شهادة من معهد اللغات الأجنبية، وكانت تعمل فى وزارة الصناعات الميكانيكية قبل أن تحال إلى التقاعد عام ١٩٨٦.

ولم تكن التقاليد الشيوعية الصينية تعطى مكانة كبيرة لزوجة أى مسئول فى الدولة. وقد تدعمت هذه النظرة بسبب المصير الذى آلت إليه أرملة الزعيم الراحل ماو تسى تونج التى انتحرت فى سجنها. وكانت التهمة التى دخلت بسببها السجن بعد وفاة ماو هى تزعم عصابة لارتكاب جرائم الفساد فى السنوات الأخيرة من حكم زوجها. وكانت أرملة ماو قد قامت بدور كبير فيما عرف باسم «الثورة الثقافية»، التى اشتملت على حملات تطهير لملايين المسئولين والموظفين بتهمة الارتداد عن شيوعية ماو.

ولا يزال مجرد ذكر اسمها يثير موجة كراهية لدى معظم الصينيين بعد مرور سنوات طويلة على انتحارها فى سجن فى بكين. والمعروف عنها أنها كانت نموذجا للمرأة الطموح التى تتمكن من تجاوز زوجها، واستخدامه فى تصفية خصومها والتنفيس عن أحقادها.

وكان زواج ماو من هذه السيدة، واسمها «جيانج فينج»، قد اعتبر فضيحة بين رفاقه الشيوعيين، إلى درجة أنهم حصلوا منه على وعد بألا تظهر معه علنا. فقد كانت نجمة جميلة صغيرة فى شنغهاى، وكانت ـ فعلاـ فى مستوى الشبهات، فقد كان يقال عنها إنها امرأة لعوب. ولكنها فيما بعد جعلت هؤلاء يدفعون غاليا ثمن هذا الوعد!

وفى نظر الصينيين، والأجانب أيضا، ليس هناك شىء مخيف فى مظهر وجوهر سيدة الصين الأولى الحالية. ولا يمكن عقد مقارنة على أى وجه بينها وبين أرملة ماو الراحلة، سوى من ناحية أن كلا منهما قرينة زعيم البلاد فى مرحلتين من تاريخ الصين الحديث.

فزوجة الرئيس «تسه مين» صاحبة ابتسامة رقيقة، وصاحبة مظهر يذكر الصينيين بجداتهم على الرغم من اللمسة الغربية فى الألوان والمقاسات والقصات. ومن المؤكد أن الأخلاق الحميدة والود الإنسانى المتوافرين فى زوجها يؤكدان أنها سيدة طيبة.

ومع ذلك فإن النظام الصينى لايزال حذرا فى مواجهة احتمالات ظهور «أرملة ماو جديدة». وكانت زوجة رئيس الوزراء الصينى السابق لى بنج التى عرفت بحيويتها وأناقتها، والتى كانت تدير مكتب زوجها، اضطرت عام ١٩٩٦ إلى القيام بنقد ذاتى بعد ظهور تحفظات من قبل النظام عليها. وحرصا من «جيانج تسه مين» على أن يكون قدوة فى مكافحة الفساد، دعا فى بداية العام القادة الصينيين إلى أن يتسموا بالصرامة إزاء تصرفات زوجاتهم وأبنائهم بمنعهم من سوء استغلال سلطتهم ونفوذهم.

وذات مرة قال مسئول فى شركة أوروبية إن المسئولين الصينيين يرفضون اصطحاب زوجاتهم فى الحفلات التى ندعوهم إليها. وأضاف قائلا: هؤلاء المسئولون يخشون أن يشعروا بالحرج نتيجة نقص أناقة زوجاتهم، أو أن يؤدى وجودهن إلى نزع الطابع الجدى عن المناقشات.

وفيما يبدو أنه استعداد أو إعداد للمستقبل، يعمل الحزب الشيوعى الحاكم على ظهور زعيمات سياسيات، وقد بادر لتحقيق هذا الهدف إلى إنشاء مركز للدراسات لإعداد السياسيات. وتضمنت الدورات التدريبية فى المركز دراسة النظريات الماركسية حول تحرير المرأة، وأوضاع المرأة فى الصين، وكيفية النهوض بها.

وإلى اليوم لا توجد نساء كثيرات فى مواقع قيادية بالصين، ويبلغ عدد الوزيرات فى حكومة الصين، وهى حكومة كبيرة، أقل من عدد أصابع اليد الواحدة. وتتولى منصب وزير العلاقات الاقتصادية والتجارة الخارجية الصينية بلجنة الحزب الدائمة السيدة «وو يى». وقد ولدت بمدينة ووهان عام ١٩٣٨، وفى المرحلة الجامعية سافرت إلى بكين للدراسة فى معهد البترول، ثم بعد تخرجها عملت لسنوات طويلة فى المجال التقنى وتدرجت فى المناصب القيادية، وتولت على التوالى مناصب: نائب مدير مصنع دونج فانجهونج لتكرير البترول ببكين، ومساعد المهندس العام بالمصنع، ونائب مدير عام

شركة يانشان للصناعة البتروكيميائية، ونائب عمدة بكين، ونائب وزير العلاقات الاقتصادية والتجارة الخارجية، ثم وزير العلاقات الاقتصادية والتجارة الخارجية.

وتمتاز السيدة وو يى بالشخصية القوية، والقدرة على الحوار والدبلوماسية وميكانيكية العمل. لذا أثبتت جدارتها فى كل موقع شغلته، وتتجلى مهارتها عندما تتفاوض مع رجال الأعمال والمستثمرين الأجانب.

وليس الحاضر فقط هو القاسى على المرأة الصينية، وليس الماضى القريب وحده هو الظالم لها. إنه الماضى السحيق أيضا.

فعبر مئات السنين كانت المرأة الصينية مظلومة، وكان زواجها أشبه بالبيع والشراء، حتى أن الثورة الشيوعية حين جاءت فى أواخر الأربعينيات كان من بين أولوياتها تحرير المرأة.

وذات يوم غير بعيد وقف مخرج غربى كبير فى أحد ميادين شنغهاى ومعه فريق من العاملين لتصوير لقطات من فيلم مشترك عنوانه «محمل الدموع». ويروى الفيلم قصة تحرير المدينة بأيدى القوات الشيوعية فى عام ١٩٤٩. وفى إحدى اللقطات تم تسليط الكاميرا على فتاة فى عمر الزهور قرر أهلها أن يزوجوها رغما عنها لوريث واحدة من أغنى أسر شنغهاى. وبالقرب من الفتاة وقف شقيقها الذى يبلغ من العمر ١٨ عاما، وكان ينتمى إلى خلية سرية فى الثورة، وأخذ يتطلع إلى قوات الجيش الأحمر وهى تدخل المدينة قائلا لشقيقته الصغرى: «الآن بإمكانك رفض هذا الزواج.. فقد ماتت الصين القديمة».

وقد بدأ التمرد على الاضطهاد الذى تتعرض له المرأة فى الصين فى أوائل القرن العشرين. ففى بلدة «شانجا» فى عام ١٩١٨ ودعت فتاة صينية تدعى «جاو» ـ عمرها ٢٣ عاما ـ أسرتها، وركبت محمل العرس، وفى الطريق لاحظ الحمالون خيطا من الدم يسيل من المحمل، وعندما فتحوا الستار فوجئوا بالعروس وقد فارقت الحياة وإلى جوارها آلة حادة قطعت بها شرايينها. وأثار هذا الحدث ضجة كبرى، وكتبت الصحف الصينية تصف ما جرى بأنه «سقوط ضحية أخرى لنظام الزواج الإجرامى».

ومن بين المقالات العديدة التى تناولت هذا الحدث كان هناك مقال يحمل توقيع شاب لم يكن معروفا فى ذلك الوقت، هو ماو تسى تونج.

وفى هذا العام ١٩١٨ - قبل ثلاثة أعوام من تأسيس الحزب الشيوعى الصينى - أقسم ماو ومجموعة من أصدقائه الثوريين من الشباب والفتيات على أن يستمروا بلا زواج من هول ما يرونه ويعرفونه عن نظام الزواج فى الصين. وأدانت حركات طلابية وحركات ثورية العقيدة الكونفوشيوسية التى تدعو إلى الزواج عن طريق الخاطبة، وزواج الأطفال الصغار، وإرغام النساء الأرامل على عدم الزواج بدعوى الوفاء لذكرى أزواجهن.

وكان الزواج قد تحول إلى عملية بغيضة فى الصين، وكان غض الطرف عن الزواج، وتجنب اكتساب المعرفة بالحياة الزوجية هو النموذج المثالى للأنثى، لأن «المرأة الجاهلة» كانت هى الفضيلة بعينها فى ذلك الوقت. أما الأرملة التى كانت تتزوج بعد وفاة زوجها الأول فكانت فى نظر الناس أحقر من بائعة الهوى، وكان الناس يتجنبون المرور فى طريقها، وعلى العكس من ذلك كانت تقام أقواس النصر واحتفالات المعابد للسيدات اللاتى يمتن فى بؤس ويأبين الزواج مرة ثانية.

وكان بعض الآباء شديدى الفقر يئدون بناتهم حديثات الولادة حتى لا ينفقوا على ابنة ستنتقل يوما ما إلى العيش فى كنف زوجها، ولن تكون سندا لهم فى شيخوختهم.

من أجل هذا كله أعلن ماو الحرب على سيطرة الرجال على مصير النساء، وكان تحرير المرأة من الأمور الثابتة فى حركته الثورية، وقد ذللت عقيدته الثابتة جميع العقبات. وكان قانون الزواج الصادر فى أول مايو عام ١٩٥٠ هو أول القوانين التى فرضها ماو وأصدقاؤه بعد استيلاء الحزب الشيوعى الصينى على السلطة، وكان أكثر هذه القوانين ثورية بحيث استحق أن نسميه «قفزة كبرى إلى الأمام». فقد أتاح للمرأة لأول مرة حرية اختيار شريك حياتها.

ولكن منح المرأة حرية اختيار شريك حياتها فى الواقع العملى، والتصدى للتقاليد المتأصلة، كانا بحاجة لثورة شاملة لفرض الفكر الجديد.

صدق أو لا تصدق، أنه بات مألوفا فى بكين الآن أن ترى مظاهر الصخب والاحتفال بالزواج، بالضبط كما يحدث فى عواصم دول أخرى فى الغرب والشرق. فارتفاع مستوى المعيشة جعل الناس يبتهجون بالزواج ، خصوصا فى وجود الفرص التى لم تكن متاحة كثيرا من قبل للنساء لاختيار شريك الحياة.

وعلى الرغم من ارتفاع معدل الطلاق فإن الزواج يشهد ازدهارا لم يحدث من قبل، والذى بسببه انتشرت ستوديوهات تصوير حفلات الزواج، وانتشرت شركات تأجير السيارات الخاصة بتلك المناسبة، والقاعات التى تقام فيها الولائم، ومتاجر الأثاث للمتزوجين حديثا.

وكانت العقود الماضية قد شهدت ضغوطا حكومية متواصلة من أجل إقامة حفلات زواج بسيطة، أما الآن فقد أصبحت حفلات الزواج الباهظة التكاليف نوعا من الموضة، ومظهرا من مظاهر التفاخر الاجتماعى بعد خمسة عشر عاما من النمو الاقتصادى السريع الذى ترك آثاره الإيجابية على كثير من الأسر الصينية.

وفى أحد المتاجر الراقية فى بكين تباع هدايا الزواج بما يعادل ٥٠٠ دولار، وتباع الهدية أحيانا بمبلغ يعادل ١٢ ألف دولار، وغالبا ما تكون قطعة من الأثاث.

وصدق أو لا تصدق أيضا، أن عدد الرجال الذين يريدون الزواج فى الصين هذه الأيام ولا يجدون زوجات يصل إلى ٧٠ مليون شاب. ففى كل عام يزيد عدد المواليد الذكور بمقدار مليون طفل على عدد المواليد الإناث. وقد سبقت الإشارة إلى أن هناك سببين رئيسيين لذلك هما: إجهاض الأجنة من الإناث فى بطون أمهاتهن ووأد الأطفال منهن عقب الولادة. ويضاف ذلك إلى وفاة أعداد كبيرة من الأطفال الإناث اللاتى يتم إدخالهن دور رعاية الأيتام بعد أن يتركهن آباؤهن فى الشوارع إذا لم يتخلصوا منهن بالقتل.

وتجد السلطات الصينية شيئا إيجابيا فى هذه المسألة، وهو تحذير الشعب من هذا التزايد الخطير فى عدد الرجال، ودعوة الآباء والأمهات إلى عدم التخلص من الأطفال الإناث أو إجهاض الأجنة منهن. وتأمل السلطات الصينية بذلك أن يصل الأمر فى نهاية المطاف إلى الاعتراف بأهمية سياسة «طفل واحد لكل أسرة».

٣ وسائل للتخلص من الأطفال الإناث

إجمالا تتخذ الجريمة ضد الأطفال الإناث ثلاث صور هى:

- التخلص منهن بالإجهاض.
- إلقاؤهن وهن على قيد الحياة فى مياه الأنهار ليلقين حتفهن، أو قتلهن بمجرد الولادة.
- إلقاؤهن فى الشوارع فيصبحن لقيطات.

والنتيجة أن عدد الإناث يتقلص فى الصين.

واللافت للنظر اليوم أن تخلص الآباء من المواليد الإناث فى الوقت الراهن لم يعد خشية الفقر والإملاق كما كان الأمر فى الماضى. ففى الماضى كان الفلاحون الفقراء يتخلصون من بناتهم بإغراقهن فى النهر، أو تركهن فى العراء حتى يمتن أو تلتقطهن يد حانية أو شخص صاحب حاجة. فالآباء اليوم يفضلون الذكور، خصوصا فى ظل سياسة تحديد النسل الصارمة التى تنتهجها السلطات الصينية.

وقد اعترف لى مسئول كبير فى الحكومة الصينية بأن حكومته تتوقع تفشى جرائم قتل المواليد الإناث، التى عادت بشكل وبائى منذ منتصف السبعينيات بعد أن فرضت حكومة الصين ـ التى كاد عدد سكانها وقتئذ يتجاوز المليار نسمة ـ حظرا على إنجاب أكثر من طفل للأسرة الواحدة فى المدن.

وتشير التقديرات إلى أن تسعة ملايين طفل يولدون سنويا فى الصين دون أن تصدر لهم شهادات ميلاد تحدد الأبوين، وهو ما يجعل هؤلاء الأطفال غير شرعيين فى واقع الأمر. والسبب فى ذلك هو بطبيعة الحال سياسة «طفل واحد لكل أسرة بالمدينة وطفلان للأسرة بالقرية» التى تطبقها الدولة.

فكثير من الآباء والأمهات فى الصين لا يقيدون أبناءهم فى السجلات المدنية، والمرأة الصينية مضطرة دائما للإجهاض عندما تحمل فى الطفل الثانى حتى لا تتعرض للتعقيم المنتشر هناك.

وإزاء كل هذه الظروف القاسية على المرأة الصينية تنتشر هناك حالات الانتحار بمعدلات عالية بين النساء. ويقول خبير صينى إن هناك جوا من القلق العام فى الصين إزاء ظاهرة انتحار النساء، لأن النساء الصينيات يتخلصن من حياتهن بأعداد كبيرة. وقد كان من المعتاد اعتبار دراسة حالات الانتحار فى الصين من المحرمات التى يجب عدم الاقتراب منها، ولكن زيادة عدد المنتحرات جعلت التعامل مع هذه المشكلة بجدية أمرا ضروريا.

وقد أشارت الإحصاءات الأخيرة إلى أنه تقع بالصين ١٤٠ ألف حالة انتحار أو أكثر كل عام، ٧٠٪ منها من النساء. وقال الخبير الصينى الذى أنقل كلامه: إن الانتحار على نطاق كبير لم يعد أمرا لافتا للنظر بشدة لكثرة تكراره. وتشير الإحصاءات التى نشرت أخيرا إلى أن الانتحار أصبح العامل الأول فى قائمة أسباب الموت الناجم عن الحوادث فى الصين. وقد أوضحت دراسة أمريكية أن معدل الانتحار بين نساء الصين أعلى من نظيره بين النساء الأمريكيات.

وتشير هذه الإحصاءات إلى أن معدلات الطلاق فى المدن الكبرى زادت على ٢٠٪ فى السنوات الأخيرة، مقابل ٣٪ فقط عام ١٩٧٨. والسبب فى ذلك هو تصاعد المشكلات الاجتماعية التى لم يكن القانون مهيأ لمعالجتها، أو التعامل معها، مثل العلاقات العاطفية وتورط المتزوجين فى كثير منها، والعلاقة بين الرجل والمرأة بدون زواج، والأطفال مجهولى الأب، وهذه المشكلات تتزايد فى المجتمع الصينى الذى لم يعتد فى الماضى على هذا النوع منها.

ولم يكن القانون مهيأ كذلك لمواجهة حالات زواج الأشخاص الذين يعانون من أمراض عقلية، أو المرضى بالإيدز وغيره من الأمراض التناسلية، ولم يكن القانون يتضمن قواعد تتعلق بالأمراض سوى تحريم الزواج من مرضى الجذام والبرص.

ولم يكن فى القانون الصينى سبب للطلاق العادى سوى أن يعانى الزوجان من «تحطم العواطف». ولكن التشريع الحديث يتجه إلى تطليق الزوجين لأسباب مثل: الانفصال لعدد من السنوات، والخيانة الزوجية، والتصرفات الأخرى غير الأخلاقية من

جانب أحد الزوجين، وتعدد العلاقات غير الزوجية، واللجوء إلى العنف فى الحياة الزوجية، واختلاف العادات والتقاليد بين الزوجين.

ومن اللافت للنظر فى الصين أن سن الزواج قد تأخرت، فقد زاد متوسط سن الزواج فى عام ١٩٩٦ فى بكين على ٢٦ سنة، وزاد فى شنغهاى على ٢٥ سنة، وزاد على ٢٤ سنة فى مقاطعات كوانج دونج وسنكيانج وشاندونج وهونان وفوجيان ومنطقة كوانج شى. وفى منطقتى التبت ونينج شيا كان أقل من ٢٣ سنة، وفى باقى المقاطعات يتراوح متوسط سن الزواج بين ٢٣ و ٢٤ سنة.

وقد أشار إحصاء صينى إلى أن أكثر من ٨,٥ مليون شخص تزوجوا عام ١٩٩٠ ولم يكونوا قد بلغوا السن القانونية للزواج، أكثر من ٨٨٪ منهم فى الريف، وتراوح عمر الزوج بين ١٥ و ٢١ سنة وعمر الزوجة بين ١٥ و ١٩ سنة. ولكن فى عام ١٩٩٦ قل عدد الزيجات المبكرة إلى مليونين و١٧٠ ألف زيجة، أى أقل بنسبة ٧٥ فى المائة عن عام ١٩٩٠، فأصبح متوسط عمر الزوج حوالى ٢٦ سنة ومتوسط عمر الزوجة قرابة ٢٣ سنة.

الفصل السادس

القصر الإمبراطوري

يقع القصر الإمبراطورى، الذى تشعر أمامه بالهيبة والإحساس بالروعة، فى قلب بكين. وقد برهن هذا البناء العملاق على الأسلوب المتفرد لفن البناء التقليدى فى الصين القديمة. فقد كان أول ما بنى فى عصر أسرة «مينج» عام ١٤٠٦، وقد استغرق العمل فى الجزء الأساسى منه ١٨ عاما مرورا بأسرتين ملكيتين هما «مينج» و «تشينج»، وشهد حكم ٢٤ إمبراطورا. ويعود تاريخ هذا القصر إلى ما يقرب من ٦٠٠ عام الآن.

وتوجد أسوار على الجوانب الأربعة للقصر الإمبراطورى تسمى «المدينة المحرمة»، ويبلغ ارتفاع أسوارها حوالى ١٠ أمتار، ويصل طولها إلى ٧٦٠ مترا من الشرق إلى الغرب باتساع ٩٦٠ مترا من الجنوب للشمال، فتبدو على شكل مربع. وتبلغ المساحة الكلية للقصر أكثر من ٧٢٠ ألف متر مربع.

وتحتوى المدينة المحرمة على أكثر من تسعة آلاف غرفة، فى قصر شامخ، ويرجى بوابة القصر، وأعمدة منقوشة، وعوارض مزخرفة مما يشكل منظرا رائعا يخلب اللب. وتوجد على الأركان الأربعة للمدينة المحرمة أبراج حراسة فى غاية الاتقان. كما أن العوارض التسع والأعمدة الثمانية عشر بها تسر الناظرين.

ويفضل زوار القصر الإمبراطورى أن يمروا بميدان السلام السماوى الذى يقع عند البوابة الجنوبية للمدينة المحرمة. وفيما يتعلق بمدينة الإمبراطور، فلم يتبق منها سوى

جانب من الجهة الشمالية لشارع «تشانج آن». وعند دخولك ميدان السلام السماوى تسير مسافة جهة الشمال، وتجتاز بوابة «دوان» لتقابلك بوابة «وو» الضخمة التى تعتبر المدخل الرئيسى للقصر، ويوجد بها خمسة مبان تسمى «العنقاوات الخمس»، وقد شيدت تلك المبانى بأفاريز ملتوية من القرميد الأحمر، وحوائط صفراء فبدت بمنظر رائع.

وفى هذا المكان كانت تُكتب فى شتاء كل عام كتب التقويم فى عهدى أسرتى «مينج» و«شينج» الملكيتين، وفيه أيضا كانت تصدر أحكام الإمبراطور على الأسرى بعد عودته منتصرا، وعلى المجرمين والمذنبين، وكان يتم جلدهم هناك.

وأول ما يلفت نظرك عند دخولك من بوابة «وو» نهر المياه الذهبية، وعلى سطح هذا النهر يمتد جسر يطلق عليه «جسر المياه الذهبية». وعلى امتداد ضفتى النهر يوجد حاجز من مياه. وهذا النهر بارع التعرج كما لو كان يشبه فى شكله حزاما من الأحجار الكريمة. وعبر النهر جهة الشمال، مرورا ببوابة «تاى خيه»، تجد أشهر أبنية القصر الإمبراطورى على الإطلاق، وهى «القصور الثلاثة الكبيرة»: قصر «تاى خيه» وقصر «جونج خيه» وقصر «باو خيه». وقد شيدت هذه القصور بحجارة على منصة ارتفاعها ثمانية أمتار، وقسمت المنصة إلى ثلاثة أدوار، كل دور منها يحوطه حاجز، بحيث إذا نظرت إليه من مسافة بعيدة يبدو كأنه قصر من المرمر، على حد تعبير الأساطير. ويمتاز موقع القصر بمناخ جيد نادرا ما تجده فى أى مكان آخر.

ويطلق على قصر (تاى خيه) اسم «قاعة العرش الذهبية» حيث يعتبر أضخم وأروع بناء فى القصر الإمبراطورى، ويبلغ ارتفاعه ٢٨ مترا، ويبلغ مجموع الغرف فى القصر ٥٥ غرفة، ويحتوى على ٨٦ عمودا تمتاز بالمتانة والسحر.

وبداخل هذا القصر توجد منصة صغيرة ارتفاعها متران، معروض عليها كرسى إمبراطورى نفيس منقوش بالذهب، وعند منتصف قمة الكرسى الذهبية تتدلى مرآة دائرية من الزخارف السقفية المربعة الشكل. وعلى السقف مرسوم تصميم لجوهرة ملكية على هيئة تنين، وعلى الجانبين تقف أعمدة ذهبية دائرية عالية، وفى خلفية الكرسى حاجز أنيق جميل.

وقصر (تاى خيه) هو المكان الذى كانت تقام فيه الاحتفالات الرسمية الضخمة فى عهد أسرتى مينج وتشينج، وفيه كان يتوج الإمبراطور، وتصدر المراسيم الملكية المهمة، بالإضافة إلى الاحتفال بمناسبات عيد رأس السنة الجديدة، وعيد ميلاد الإمبراطور، وتصدر فيه أسماء أفراد الحرس الإمبراطورى الذين اجتازوا اختبارات القبول بنجاح.

وفى عهد أسرتى مينج وتشينج كانت أدخنة البخور تتصاعد عند إقامة حفل تولى الإمبراطور حكم البلاد متماوجة من الطنجرة والكركى المعروضين فى واجهة القصر والناقوس الذهبى أسفل رواق القصر، والناقوس ومزامير شنج، والصفارة، ومزمار البامبو، والقيثارة، بينما يهتف مئات الموظفين المدنيين والعسكريين بحياة الإمبراطور، ويمتلىء القصر بجو من الهيبة والفخامة.

ويعتبر قصر (جونج خيه) الواقع خلف قصر (تاى خيه) قاعة مربعة الشكل، وبداخله الكثير من التنانين المحفورة من الذهب فتبدو كما لو أنها أشعة ذهبية مشرقة، وبالقصر أيضا كرسى نفيس، وطنجرة ذهبية، ومدفأة الدخان، وغيرها من الأثاث النادر. وقد كان الإمبراطور يستريح فى هذا القصر قليلا قبل أن يتوجه إلى قصر (تاى خيه) لإقامة المراسم والاحتفالات، أو يقوم فيه بالتدريب على البروتوكول وآداب التشريفات.

أما قصر (باو خيه) فهو ثالث القصور وآخرها، ويمتاز ببناء رائع، كما يمتاز بأثاثه الذى تم تجهيزه كله فى عهد أسرة مينج، ويرجع هذا الأثاث إلى تاريخ يمتد عشرات من السنين.

وفى ليلة رأس السنة القمرية من كل عام كان الإمبراطور يقيم مأدبة طعام للأمراء ورجال البلاط فى هذا القصر.

وتعتبر القصور الثلاثة (تاى خيه وجونج خيه وباو خيه) قلب القصر الإمبراطورى. وكل من الجانبين الشرقى والغربى لبوابة قصر (تاى خيه) الواقعة بالطرف الجنوبى للقصر بهما مجموعة من الأبنية. ففى الجانب الشرقى يوجد قصر (وين خوا) وقصر (وين يوان) وقصر (تشوان شين)، وعلى الجانب الشرقى يوجد متحف لأسرة (تشينج)، وبجواره تقع البوابة الشرقية (دونج خوا) للمدينة المحرمة.

وقصر (وين خوا) هو المكان الذى كان يقرأ فيه ولى عهد الإمبراطور فى عهد أسرة مينج، وقد كان ملوك أسرتى تشينج ومينج يلقون فيه أيضا المحاضرات خلال فصلى الربيع والخريف. وكان على موظفى وضباط البلاط الإمبراطورى أن يلقوا على الإمبراطور مسامع من أبواب المعرفة الأربعة، وهى تعاليم كونفوشيوس، والتاريخ، والفلسفة، والآداب. وبعد ذلك يقوم الإمبراطور بترديد جزء منها. أما بالنسبة لـ (وين يوان جيه) فهو المكان الذى جمعت فيه أسرة (تشينج) الكتب ليصبح مكتبة داخلية للقصر.

وقد شُيد قصر (تشوان شين) فى بداية عهد أسرة (تشينج). ويوجد داخل القصر متحف تاريخى به النياشين، وكانت تعقد فيه الندوات الثقافية والعسكرية، وحفلات السمر. وقبل إقامة المآدب كان الإمبراطور يرسل المثقفين والأدباء لتقديم القرابين للأجداد.

أما قصر (وو ينج) وقصر (نان شوين)، فهما القصران الرئيسيان فى الجهة الغربية لبوابة (تاى خيه). كما توجد على الجانب الغربى البوابة الغربية للمدينة المحرمة وهى بوابة (شى خوا).

ويحظى قصر (وو ينج) بشهرة كبيرة فى تاريخ الحضارة الصينية حيث قامت أسرة (تشينج) بتجميع مؤلفات وإصدارات العديد من الأدباء فى هذا القصر، ومن أشهر هذه الإصدارات الكتب الأربعة الكبرى لكونفوشيوس، وكتاب وين فو للشعر والأدب والموسيقى، وكتاب المجموعة المكتبية للقديم والحديث، وغير ذلك من الكتب الشهيرة.

ولم يكن قصر (وو ينج) مكانا لكتابة الكتب فقط، بل وطباعتها أيضا، حيث استخدمت ألواح الحروف المحفورة فى الخشب، وهى بالتالى إصدارات تعتبر تحفة فريدة، ومن ثم أطلق على هذا القصر اسم «قصر الإصدارات». وقد كان للحروف المطبوعة شكل جميل، كما كانت هناك لجنة تصحيح وتوثيق، وكان يختار الورق والحبر من الدرجة الأولى لأن الكتب التى كانت تطبع هناك ذات قيمة علمية رفيعة المستوى.

وفى قصر (نان شوين) تم تجميع صور ورسومات للأسر المالكة السابقة، وتعتبر هذه المجموعات من الصور الأصلية التى جمعتها أسرة (مينج) وأضافت بعدها أسرة (تشينج) بعض الزخرفة إليها، وأعادت حفظها فى هذا المكان.

وكما جرت العادة، فقد تم تقسيم البلاط الإمبراطورى إلى قسمين: الجهة الخارجية، والجهة الداخلية. الجهة الخارجية توجد بها القصور الثلاثة الأخيرة، أما الجهة الداخلية فتقع شمال قصر (تاى خيه).

والجهة الخارجية هى مقر الإمبراطور لإدارة شئون الدولة، أما الجهة الداخلية فهى مقر معيشة الإمبراطور.

وعلى الجانب الغربى من بوابة (تشيان تشينج) يوجد عدد من الحجرات المنخفضة التى تبدو أكثر بداوة عند مقارنتها بشكل القصر الذى يحيط بها. ولكن هذا المكان على العكس مما يبدو، كان المكان السرى المفضل لأسرة (تشينج) ويُسمى مقر الإدارة العسكرية، وتحول بعد ذلك إلى هيئة عامة، لا تنتهى حدود صلاحيتها عند الأمور العسكرية بل امتدت تدريجيا لتدير حكومة البلاد كلها. وعادة ما كان المقر العسكرى يتناوب العمل فيه رجال البلاط العسكريون، حيث كان الإمبراطور يستدعيهم كل يوم تقريبا ليتلقوا منه الأوامر، أو لصياغة مشروع مرسوم إمبراطورى. لذا فقد كان عبارة عن هيئة تنوب عن الإمبراطور فى تنفيذ الأمور بصورة مباشرة.

وعندما نتجاوز بوابة تشيان تشينج ونتجه شمالا نجد أن أهم المبانى هو قصر (تشيان تشينج) وقصر (جياو تاى) وقصر (شينج تشيونج). وإلى جانب هذه القصور الثلاثة يقع القصر الشرقى السادس، والقصر الغربى السادس، وهما مكانا إقامة محظيات الإمبراطور، ويطلق عليها الناس «القصور الثلاثة والحدائق الست».

وتوجد بقصر (تشيان تشينج) تسع غرف، منها خمس غرف بالداخل، وفى المنتصف يوجد كرسى نفيس يفصل بين المقصورة الشرقية والمقصورة الغربية اللتين تعتبران حجرتى نوم كل من إمبراطورى أسرتى تشينج ومينج، وأيضا مكان العمل اليومى. وكان هذا المكان يتحول إلى ساحة لإقامة الولائم الكبيرة لرجال البلاط فى الأعياد .

ساعتان بارتفاع الحجرة

توجد بقصر (تشيان تشينج) أيضا ساعة مائية لقياس الزمن منذ العهد القديم، وساعة أخرى على الطراز الغربى، وكلتاهما تبلغ ارتفاع الحجرة طولا.

وكان تابوت الإمبراطور يوضع فى هذا المكان بعد موته، ولما كان عهد الإمبراطور (ليانج) من أسرة (تشينج) مزدهرا، فإنه ظل لا يعلن عن اسم ولى العهد المحدد سلفا. ثم جرت العادة على أن يكتب الإمبراطور اسم ولى العهد القادم، ويضع اللوح المكتوب فيه فى صندوق صغير ثم يضعه خلف لوحة موجودة فى قصر (تشيان تشينج). وبعد وفاة الإمبراطور يفتح الصندوق ويعلن اسم الإمبراطور الجديد.

ويقع قصر (جياو تاى) فى الجهة الشمالية من قصر (تشيان تشينج) وهو رباعى الشكل، ويتسم بالضيق، ولذلك استخدم فى عهد أسرة (مينج) كمقصورة للإمبراطورة. وفى عهد أسرة (تشينج) استخدم لحفظ الخاتم الإمبراطورى، والآن يُحتفظ فيه بخاتم إمبراطورى يحتوى على ٢٥ لؤلؤة. وقد كانت الإمبراطورة تتلقى فيه التهانى بعيد ميلادها أيضا، وفى الربيع والخريف من كل عام كانت الإمبراطورة تربى فيه دودة القز، وقيل إنها كانت قدوة لكل سيدة تربى دودة القز.

ويقع قصر (شينج تشيونج) فى الجهة الخلفية من قصر (جياو تاى)، وقد كان بمثابة مكان ارتقاء الروح فى عهد أسرة تشينج (١٦٤٤-١٩١١) وتعقد فيه الاحتفالات الرسمية عند زواج الإمبراطور لمدة ثلاثة أيام، بعدها يذهب الإمبراطور والإمبراطورة - كل على حدة - إلى القصر المحدد لإقامتهما. وفى هذا القصر يعرض على الحائط الشمالى «هودج» مغلف من الخارج بالحرير الأحمر، ومطرز بأشكال تمثل التنين والعنقاء بصورة دقيقة، وهو الهودج الصغير الذى جاءت به الإمبراطورة إلى القصر عند زواجها، أما فى الجانب الشرقى من هذا القصر فيقع منزل زواج الإمبراطور.

ومرورا بقصر (شينج تشيونج) ، على شماله نجد الحديقة الملكية، وهى التى أنشئت فى عهد أسرة (مينج) لتتنزه فيها الأميرات. وفى منتصف الجهة الشمالية تقع بوابة السماء الأولى. وهذه المقاطع الثلاثة مطعمة بلحاء شجر الصنوبر الأخضر فى منتصف

جدار القصر الأحمر اللون، فتبدو أشجار الصنوبر الأخضر واقفة عاليا كالمظلة. وترجع هذه البوابة إلى أكثر من ٤٠٠ عام مضت.

وأول ما يقابلك عند دخولك بوابة السماء الأولى قصر (تشين آن) الذى تم بناوه فى الأعوام الأربع عشرة التى سادها الهدوء والطمأنينة فى عهد أسرة (مينج). وهذا القصر ذو سطح مستو ، تحاط حواف جوانبه الأربعة بنقوش ورسومات ذات أسلوب مميز وجمال تقليدى رائع وبسيط، كما يوجد أمام القصر حاجز صخرى أبيض، وكذلك العديد من المدافىء النحاسية، والطناجر النفيسة، وغير ذلك من الأثاث القديم المنسق.

وينقسم قصر (تشين آن) إلى طابقين، وبداخله وعلى جدرانه نقوش ورسومات بديعة.

وفى الجزء الشرقى من القاعة يوجد جبل اصطناعى ذو قمة عالية، تم حفره ببراعة فائقة، وكدس بالحجارة، وهو جبل (تاى خيه). وعلى قمة الجبل أقيمت مقصورة أطلق عليها اسم (يوجينج تينج) أى استراحة الإمبراطور. ومرورا بالجنوب الشرقى نجتاز قاعة (تشين جاو)، والمقصورة ذات اللون الأخضر الزمردى، ومقصورة الألف ربيع ، ونجد أنفسنا أمام مرتفع الجليد المتساقط حيث توجد أمامه منصة زهور، غير أن بتلاتها محاطة بأربع كئوس، وعندما يأتى موسم تفتح الأزهار نجد رائحة عجيبة رائعة تعبق الأنوف، إنها حقا نوع نادر نفيس.

ونتجه غربا من منصة الزهور، حيث نجد جبلا اصطناعيا مرصوصا من الحجارة، من الممكن تسلقه إلى قمته.

وخلف الجبل الاصطناعى توجد منضدة ومقعد حجريان، وهو مكان لعب الشطرنج واحتساء الشاى، حيث الأشجار اليانعة الخضرة والأعشاب البرية الصخرية العجيبة. وهناك واد ملىء بالتعرجات الكثيرة، وأعلى البناء توجد إحدى الغرف التى كانت مخصصة للمطالعة فى ذلك الوقت.

ثم نتجه الى الشمال من هذا المكان فنجد مقصورة الألف خريف، وهى المقصورة الميمونة التى تقدم بها القرابين للنجوم تقليدا للطاويين، ونعرج شرقا من المقصورة

المباركة فإذا بنا فى الجانب الشمالى للحديقة الإمبراطورية، وعلى الرغم من ضيقها إلا أنها رائعة الدقة، ونجد الزخارف تزين كل جزء فى المبانى والمقصورات والأعشاب العجيبة والصخور، ونتجه صوب الشمال عند خروجنا من الحديقة نحو بوابة (شين وو) التى تعتبر البوابة الشمالية للمدينة المحرمة.

إن ما جرى شرحه فى السابق هو الطريق الأوسط للقصر الإمبراطورى، والطريق الشرقى الخارجى، والطريق الغربى الخارجى، حيث يبدأ الطريق الأوسط من بوابة (وو) مرورا بالردهات الثلاث الكبرى، وقصر (تشيان تشينج)، وقصر (جياو تاى)، وقصر (شينج تشيونج) مباشرة حتى بوابه (شين وو) من الجنوب للشمال مكونا محورا لجميع القصور التى يضمها القصر الإمبراطورى. وهذا المحور هو أيضا محور مدينة بكين كلها.

وينقسم القصر المحورى فى المدينة المحرمة إلى جانبين، والعديد من أفاريز المقصورات.

والآن نعود أدراجنا إلى بوابة (تشيان تشينج) ونستعرض بالتسلسل أهم القصور الشهيرة فى الطريق الشرقى والغربى داخل البلاط الإمبراطورى.

من الناحية الشرقية لبوابة (تشيان تشينج) توجد بوابة المنظر المتحرك، ومرورا بها نجد فقط خشب السرو القديم، وإلى الجنوب نجد جدار حاجب من القيشانى محفورا عليه تسعة تنانين تتدفق كالخيول الراكضة وسط الأمواج العاتية والسحب الرقيقة فى قوتها ومتانتها وشكلها المفعم بالحركة، ويطلق عليه «جدار التنانين التسعة» الذى أنشىء فى الوقت نفسه مع جدار التنانين التسعة الموجود فى حديقة (باى خاى).

وإذا عرجنا جهة الشمال نجد مقصورة (خوانج جى) وقصر (نينج تشو)، وتوجد ساحتان أمام وخلف بوابة قصر (نينج تشو) وتلتف فيها أشجار الصنوبر اليانعة الخضراء بحيث تغطى الجدار كله. وعندما تدخل بوابة قصر (نينج تشو) ترى فقط عمودا صخريا يحميه، والطريق واسع يضفى على المكان جلالا ورهبة. وقد تمت إقامة مقصورة (خوانج جى) تماما مثل قصر (تشيان تشينج).

وقد عاش الإمبراطور (خونج لى) من أسرة (تشينج) فى قصر (خوانج جى) بعد أن تنازل عن العرش لابنه، وأصبح الإمبراطور الأب هو الحاكم الأعلى للبلاد، لذلك فقد بنى هذا القصر بصورة رائعة. ويقال إنه تمت إقامة مأدبة الألف شيخ المشهورة فى هذا المكان، وبعد ذلك جاء الملك بفرقة المسرح الشعبى لتعرض مسرحياتها داخل القصر. والآن أصبح هذا المكان متحفا للرسم حيث يتناوب الرسامون والأدباء المشهورون، عرض أعمالهم الرائعة فيه كل عام.

ونتجه نحو الغرب بعد أن نعرج من قصر (خوانج جى)، ونذهب أولا إلى قصر (جاى) وهو القصر الذى كان الإمبراطور يأكل فيه طعامه قبل ذهابه إلى المعبد السماوى لتقديم القرابين، وهو يقع فى الجهة الخلفية لقصر (تشينج سو) الذى كان يسكن فيه الإمبراطور.

وبالجهة الشمالية من قصر (جاى) يوجد العديد من القصور ذات المنظومة الفريدة مثل قصر (جينج آر) وقصر (تشينج تشاو) وقصر (يونج خيه) وقصر (جينج يانج). وكانت هذه القصور مخصصة لإقامة محظيات الإمبراطور، والآن تم تحويلها إلى متحف لتجميع فنون الأسر المالكة السابقة، تعرض فيها الأعمال الفنية النادرة الخاصة بها مثل أسرة جينج، وتشينج، ويوان، وسونج، وتان، وغيرها.

وإذا اتجهنا غربا من بوابة تشيان تشينج إلى الشمال من الطريق سنجد مقصورة (ماى شين) ومازالت محتفظة بنظام ذلك الوقت. وقد تمت دراسة ما بداخلها، وتعتبر مكان إدارة الحكومة لملوك أسرة تشينج السابقين. وفى الصباح الباكر من كل يوم كان الإمبراطور يستقبل فيها رجال البلاط المختصين بالشئون العسكرية، ويستمع إليهم وإلى أعمال الحكومة. وهناك أيضا مقصورة (سيه شى جاو) التى أسسها الإمبراطور (تشونج دى). ومازالت النافذة الجنوبية للمقصورة الغربية محتفظة بالحواجز الدائرية الخشبية التى ميزت ذلك الوقت، والتى أقيمت خصيصا للاحتراس من مسترقى السمع أو المتلصصين، وبذلك تتضح لنا أهمية وسرية هذا المكان.

ومن قصر (يانج شين) نتجه إلى الشمال حيث مقر قصر (يونج شو) وقصر (تاى جيه) وقصر (تى يوان) الذى يعد واحدا من أجمل الأبنية وأروعها، حيث كان يقيم به

الإمبراطور فى سنوات حكمه الأولى. ويتميز قصر (تى يوان) بجدران قاعاته الضخمة، ويشبه خشبة المسرح فى شكله، وقد اعتاد الإمبراطور أن يستدعى أغوات القصر الشبان إلى هذا المكان ليقدموا العروض البهلوانية والتمثيلية والموسيقى والأغانى.

وقد رسمت شخصيات قصة (حلم المقصورة الحمراء) المعروفة أسفل ممر الهروب فى القاعة ذاتها، وهى ذات أشكال بديعة وتبدو كأنها حية.

وفى الجهة المقابلة يوجد قصر الربيع الطويل، وهو معروض حاليا على حاله الأصلى، وقد أقيم فى منتصفه كرسى نفيس وبه «بارافان» ومراوح يدوية وغيرها .

وفى أقصى الغرب توجد غرفة النوم، وفى أقصى الشرق غرفة الزينة، وجميع المعروضات رائعة الجمال.

ويوجد قصر (تشينج فو) وقصر (إى كوين) وقصر (تيه خيه) وقصر (تشو شيو) وغيرها من القصور إلى الغرب من قصر الربيع الطويل. وهى أيضا أماكن إقامة محظيات الإمبراطور منذ تأسيس هذا القصر عام ١٤٢٠ حتى ١٩١١. وخلال عهد أسرتى (مينج) و (تشينج) كان هو المقر الرئيسى الذى يحكم الملوك الاقطاعيون البلاد منه. وعندما أطاح (تسوين جونج شان) قائد ثورة شين خاى عام ١٩١١ بإمبراطور أسرة (تشينج)، سمح لآخر إمبراطور (بو يى) بأن يعيش فى نطاق البلاط الملكى. وفى عام ١٩١٣ أنشىء متحف القصر الإمبراطورى، وفى عام ١٩٢٥ طُرد الإمبراطور (بو يى) من القصر، وافتتح القصر الإمبراطورى أمام الجمهور للزيارة. ولكن تذاكر الدخول فى ذلك الوقت كانت باهظة الثمن، ولم يكن القصر منظما من الداخل، حيث كانت غرف القصر فى حالة فوضى، وتشابكت الأشجار والنباتات المتسلقة.

آلاف السياح كل يوم

اعتبارا من عام ١٩٦١ لقى القصر الإمبراطورى اهتماما كبيرا بوصفه مكانا أثريا مهما يحتاج إلى الحماية، فتم إصلاحه وتحسينه وترتيبه حتى أصبح على حاله الذى هو عليه اليوم.

ويجذب القصر الإمبراطورى الافا مؤلفة من الصينيين والسياح الأجانب كل يوم لزيارته. فالقصر يتكون من مجموعة أبنية من القصور القديمة المشهورة عالميا، كما أنه ميراث حضارى نادر وثمين فى الضين ، ويمثل أيضا خلاصة فن البناء الصينى القديم، كما يعطى انطباعا حضاريا جيدا، وإحساسا فنيا غنيا لكل من زاره من الأجانب والصينيين.

إنه واحد من أروع البقاع التى يزورها السائح فى بكين.

و «بو يى» هو آخر إمبراطور للصين فى عهد أسرة تشينج قبل قيام ثورة ١٩١١ الديمقراطية، عندما احتلت اليابان شمال شرق الصين. وبعد هزيمة اليابان اعتقل الإمبراطور بو يى كمجرم حرب، ثم أفرج عنه فى عفو خاص من الحكومة الصينية.

وفى أثناء وجوده فى المعتقل كتب بو يى الجزء الأول من مذكراته، ونشرت فى كتاب يحمل عنوان «من إمبراطور إلى مواطن». وجاءت المذكرات عفوية صادقة، وقد غطت معظم جوانب حياته. وبعد إطلاق سراحه، ظل يدون مذكراته لمدة ٨ سنوات كتب خلالها ٢٨ جزءا، وبسبب الثورة الثقافية الكبرى فقد ١٧ جزءا ولم يظهر منها سوى ١١ جزءا.

وعندما كان الإمبراطور بو يى يعيش فى المدينة المحرمة (القصر الإمبراطورى) لم يكن لديه حرية التجول فى أرجاء بكين، ولذلك فإنه عندما خرج من الشرنقة التى عاش فيها حوالى نصف قرن كان حائرا.

ويقول فى مذكراته: لقد أدركت أن الإنسان لا يمكن أن يحيا بدون عمل. لذا عمل بستانيا بحديقة بوتنشيال فى بكين، وتعلم كيف يتعاون مع زملائه.

وعمل بو يى بعد ذلك مصنفا للأحداث التاريخية، ثم قرر كتابة مذكرات الجزء المبكر من حياته التى نشرت بفضل مساعدة شو إن لاى رئيس وزراء الصين الراحل.

وتوضح مذكرات بو يى بجلاء كيف يمكن لشخص مثله أن يتحرر من الأيديولوجيا، ولكن من الصعب أن يهرب الإنسان من عادة تشكلت على مدى فترة طويلة، أو كما يقول مثل صينى: من السهل أن تغير الأنهار والجبال، ولكن من الصعب أن تغير طبيعة شخص.

ويمكن الاستمتاع أيضا بعيدا عن ذكريات هذا الماضى الثرى من خلال ما فى الواقع من حياة على الطريقة الصينية، خاصة فى المناسبات.

وما أكثر المناسبات الصينية وأبدعها، ومن بينها عيد الربيع الذى يصادف دائما النصف الثانى من يناير، أو النصف الأول من فبراير عندما يكون نصف الكرة الأرضية الشمالى فى الشتاء البارد. ولأن هذا الوقت موسم فراغ زراعى، فإنه من أكثر الفترات نشاطا للثقافة التقليدية فى الريف. وبعد هذا العيد تأتى نسمات الربيع التى تبعث الحيوية فى الأرض الشاسعة.

وعيد الربيع هو العيد الأكبر فى الصين، وتمتد نشاطاته - أقصد نشاطات قومية «هان» التى يمثل سكانها أكثر من ٩٠٪ من سكان الصين - عدة أسابيع تتخللها احتفالات ونشاطات ترفيهية وزيارات و نزهات. فهذا العيد لا يضاهيه أى عيد آخر من حيث طول مدته وكثرة النشاطات .

وفى اليوم الأول من العيد يتناول الصينيون الأرز فى بعض المناطق، رمزا للحصاد الوفير، وتكاثر المواشى والدواجن . كما يبدأ الصينيون فى هذا اليوم بإعداد لوازم العيد من المأكولات والملابس. وعشية يوم العيد هى أجمل الأوقات بالنسبة لهم، إذ ينشغلون بلصق شعارات العيد، ورسومات السنة الجديدة. وهذه العادة هى امتداد لنشاطات طرد الشياطين ، وتجنب الأشرار، وتدور موضوعاتها حول سرد القصص والتعبير عن الشعور والتهنئة بالبركة والعمر المديد والتغنى بالحياة السعيدة. كما ينشغلون بإعداد الأطعمة اللذيذة ، ويتجمع الأطفال للقيام بنشاطات التسلية مثل إشعال الفوانيس.

ويحرص الصينيون فى هذا اليوم على إعداد طعام يسمى «جياوتسى»، ويتناول جميع أفراد الأسرة هذا الطعام سويا، وتسمى «وجبة التئام شمل الأسرة». وإذا كان أحد أفراد الأسرة غائبا فإنهم يتركون مقعده خاليا، ويضعون أمام المقعد العصوين اللتين يأكل بهما وكأسا، تعبيرا عن شوق أفراد الأسرة إليه.

وفى اليوم الأول من عيد الربيع يقدم الصغار التهنئة لكبار السن متمنين لهم السعادة والصحة. أما طعام «جياوتسى» الذى يحرص الصينيون على تناوله أول أيام

عيد الربيع فيرجع تاريخه إلى ١٦٠٠ سنة، وطريقة صنعه وتناوله مختلفة، فالحشو ينقسم إلى نوعين، الحشو الخالى من اللحوم ويصنع من الكرّات أو الملفوف الصينى «الكرنب» أو الفجل والبيض والجمبرى المجفف والزيت والبصل والزنجبيل. والنوع الثانى هو الحشو المصنوع من اللحم، وقليل من الخضار والزيت وبعض التوابل.

وفى عشية عيد الربيع يضع أرباب الأسر النقود «العيدية» تحت وسادات الأطفال ليأخذوها فى صباح اليوم التالى، بينما يفضل البعض تقديم «العيدية» للأطفال عندما يأتون لتهنئتهم بالعيد فى أول أيام عيد الربيع، متمنين لهم ألا يحتاجوا إلى المال، وأن تدوم عليهم صحتهم فى السنة الجديدة.

وإذا كان للأقليات القومية بالصين عيدها التقليدى فإن قومية «الهان» ليست استثناء من ذلك، ففى اليوم الرابع من شهر مارس يحتفل الهانيون «أكثر القوميات تعدادا» بعيد الفوانيس. وأهم ما يميز هذا العيد هو الألوان الكثيرة من الأطعمة، وتختلف نوعية الطعام من مكان لآخر، مع بقاء «حساء يوانشيا» المخلوط بالخضراوات والفواكه المتنوعة طبقا مشتركا للجميع، خصوصا فى مقاطعة شنشى. أما فى مدينة لويانج ومدينة لينجبا بمقاطعة خنان، فتكون كعكة العناب هى الوجبة الرئيسية فى عيد الفوانيس، فى حين يفضل مواطنو مدينة كونمينج عاصمة مقاطعة يونان الجنوبية طعام «دوميانتوان»، وهو عبارة عن كريات من دقيق الفول.

وعيد الفوانيس مناسبة طيبة للفلاحين للترفيه والتسلية بعد سنة طويلة من العمل الشاق، فيقام المهرجان الشعبى الذى يستمتعون فيه بمشاهدة مهرجان الفوانيس والبرامج الترفيهية الشعبية. ففى الساعة العاشرة صباحا يتوجه أهل قرية شيوتسون بمقاطعة شنشى إلى ميدان القرية من كل صوب وحدب، ويبدأ مهرجان العيد مع أصوات الطبول والصنوج والأبواق وعروض الألعاب النارية، ومعها تزداد حرارة البهجة فى جميع أرجاء القرية.

وتقام فى هذا العيد العروض الفنية الشعبية الرائعة والمتنوعة، ومنها رقصة «يانجكة» للمسنين، ورقصة الأسد، واللعب بالسفينة البرية، وركوب الفرس الخيزرانى،

والمشى بالعصوين الطويلتين، وضرب المائة طبلة وصنج التى تجسد روح القوة والعظمة بأصواتها القوية التى تهز أوتار القلب. ويعود ضرب الطبول والصنوج فى قرية شيوتسون - كما يقول أحد الفلاحين المسنين - إلى عهد أسرة يوان (١٢٠٦ - ١٣٦٨) عندما انتصرت على أسرة جين (١١١٥ - ١٢٣٤). فقد كانت فرقها الموسيقية العسكرية تضرب الطبول والصنوج عند الاحتفال بهذا النصر، ثم ورث المواطنون هذا الأسلوب الفنى فى الاحتفالات المختلفة. وكان الطبّال يلبس الخوذة المدببة والمئزر الأبيض العسكرى والصديرية الصفراء، وينتعل الحذاء العسكرى ويضرب الطبلة ورجلاه منثنيتان، وهو بذلك يجسد جميع خصائص الفارس المنغولى. ومع مرور الزمن أدخلت بعض التعديلات على ملابس الطبال، إلا أن أسلوب ضرب الطبلة المتميز بالقوة والعظمة لم يتغير، وأصبح ضرب الطبول برنامجا فنيا تقليديا يحبه الشعب الصينى.

أما عيد «شيوه دون» فهو واحد من الأعياد التقليدية لقومية التبت. وفى اللغة التبتية تعنى «شيوه» اللبن الحامض، و «دون» تعنى الوليمة، وعيد «شيوه دون» هو عيد تناول اللبن الحامض. ويبدأ العيد فى أوائل الشهر السابع من التقويم التبتى (حوالى منتصف أغسطس). ويتراوح وقت الاحتفال به بين ٥ و ٧ أيام. وقبل القرن السابع عشر كان عيد «شيوه دون» عيدا دينيا، فطبقا للعقيدة البوذية التبتية يحرم على اللامات (الكهنة) الخروج من المعابد عشرات الأيام فى الصيف، وعندما يرفع التحريم يخرج اللامات من المعابد للحصول على اللبن الحامض الذى يقدمه عامة الشعب لهم، فيأكلون ويلهون فى الشوارع بدون قيود. وفى منتصف القرن السابع عشر أصبحت احتفالات «شيوه دون» أكثر ثراء، حيث بدأ عرض أوبرا التبت فى معبد تشهيونج، وكان ذلك يسمى «شيوه دون تشهيونج»، ومنذ ذلك الوقت ظهر عيد «شيوه دون».

وأوبرا التبت فى حد ذاتها فن شامل، ففيها القصة الغنائية، والرقص، والموسيقى، والملابس، وأدوات التمثيل، وكثيرا ما تعرض فى مكان مفتوح. وفى أواخر القرن الثامن عشر، عندما كان الدلاى لاما ينتقل من قصر بودالا إلى القصر الصيفى لوهبوليكا، كانت تقام نشاطات الاحتفال بعيد «شيوه دون» كل سنة، حيث تجرى العروض الفنية المشتركة التى تقوم بها فرق أوبرا التبت القادمة من لاسا وشيكاتسى وتشونججى

ويالونج ودهلو نجد هتشينج ونيمو. كما كان يأتى كبار موظفى حكومة التبت لمصاحبة الدلاى لاما فى مشاهدة العروض الفنية، وعندئذ تقام وليمة كبيرة لتكريم كبار موظفى الحكومة، وكان اللبن الحامض طعاما أساسيا فيها. وخلال ذلك كان يمكن لسكان مدينة لاسا والأماكن المجاورة أن يدخلوا قصر لوهبوليكا لمشاهدة أوبرا التبت. وبعد ذلك انضمت النشاطات الترفيهية الشعبية إلى عيد «شيوه دون» الذى تحول تدريجيا إلى عيد شعبى تقام فيه عروض أوبرا التبت المشتركة بصورة رئيسية.

واليوم كلما يحل عيد «شيوه دون» يذهب السكان إلى قصر لوهبوليكا وبحيرة التنين فى مدينة لاسا لمشاهدة أوبرا التبت، وبالإضافة إلى ذلك يتنزهون أيضا فى الغابات والحدائق العامة، وينصبون الخيام الملونة على الأرض الخضراء، وتحت الأشجار، يشربون فيها خمر شعير الهضاب، والشاى المخلوط بالزبد، ويغنون ويعزفون أو يلعبون الورق.

ولكن هناك قصة أخرى حول بداية عيد «شيوه دون» تقول إنه ظهر لإحياء ذكرى المعلم تانجدون جيهبوه. وتمضى القصة فتقول: قبل مئات السنين، جاء «لاما» شاب اسمه تشاو وو بان دنج إلى نهر يالوتسانجبو، ولم يجد جسرا واحدا على النهر، وقد غرق كثير من عامة الشعب فى مياهه عند عبوره، فصمم على بناء جسر عليه. وبمساعدة سبعة من إخوانه أجادوا فنون التمثيل، نظم اللاما الشاب أول فرقة لأوبرا التبت. وبفضل دعايته تبرع بعض المشاهدين بأموالهم، وقدم بعضهم الآخر الحديد والحبوب الغذائية من أجل بناء الجسر، وفى الوقت نفسه جاء عدد كبير من البناة المتطوعين إلى موقع البناء. ولم يكن تشاو وو بان دنج يصمم جسرا معلقا فحسب، بل صنع بنفسه بعض الأدوات الحديدية المطلوبة لبناء الجسر، ولذلك أطلق عليه اسم «تانجدون جيهبوه»، أى (ملك الميدان). وعبر عشرات السنين تم بناء عشرات الجسور المعلقة على نهر يالوتسانجبو ونهر لاسا ونهر شيانجتشيوى.

وقد اعتبر التبتيون المعلم تانجدون جيهبوه إلها لأوبرا التبت والبوذا الحى لبناء الجسور المعلقة، وخصصوا الفترة بين ١ و ٥ من الشهر السابع «حوالى منتصف أغسطس» عيدا لأوبرا التبت، وهو عيد «شيوه دون» اليوم.

سباق قوارب التنين

هناك متعة أخرى فى الصين هى سباق قوارب التنين. وسباق قوارب التنين موطنه الصين. والتنين حيوان أسطورى يعتبره الصينيون رمزا لهم. ولذا تستطيع أن تشاهد دائما صورة التنين فى النشاطات الترفيهية، مثل عيد رقصة التنين فى الخامس عشر من فبراير، وطائرة التنين الورقية فى عيد تشنج منج (يوم الصفاء والنقاء) فى شهر أبريل، وقوارب التنين فى الخامس من يونيو.

وقد جاء فى دراسة للمؤرخ الصينى الشهير «وين يى دوه» (١٨٩٩ - ١٩٤٦) أن تاريخ عيد «دوان وو» الذى يقام فيه سباق قوارب التنين يرجع إلى ما قبل ٣ آلاف عام.

وفى الخامس من أغسطس عام ١٩٩٨، أقيمت الدورة التاسعة من كأس «تشيوى يوان» لسباق قوارب التنين بمحافظة نانهاى بمقاطعة كوانجدونج فى جنوب الصين. وقد شارك فى هذا السباق أعداد كبيرة من فرق التجديف جاءوا من جميع أنحاء الصين، إحياء لذكرى الشاعر الصينى الكبير «تشيوى يوان».

وقارب السباق على شكل تنين، ويتكون من جسم القارب ورأس وذيل التنين، ومختلف الزينات مثل الرايات والرسوم على جسم القارب، وكذلك الطبول والصنوج. وينحت رأس التنين من الخشب، ويصنع ذيل التنين من الخشب أيضا.

وقد كان عيد «دوان وو» مناسبة يقوم فيها أبناء قومية «وو يويه» القديمة المقيمة فى «جيانفسو» و «تشجيانج» حاليا بالصلاة لطوطم التنين. وكان سباق قوارب التنين برنامجا دينيا وترفيهيا يرافق الصلاة، كما كان يعتبر من أهم نشاطات الإنتاج الزراعى فى ذلك الوقت، حيث كان الفلاحون يبتهلون للتنين للتخلص من كوارث الفيضان، والقحط، والأمراض.

فقد كان الصينيون يعتقدون أن الأحوال الجوية تؤثر مباشرة فى الإنتاج الزراعى، والتنين هو إله الماء الذى يقرر سقوط الأمطار، ولذلك كانوا يقدسون التنين.

وتعبيرا عن تقديسهم للتنين كانوا يبتهلون إليه للتخلص من الكوارث والمحافظة على الأرواح والممتلكات، كما ركبوا تمثال التنين الأسطورى الذى له رأس حصان، وذيل

ضبع، وقرن أيل، ومخلب كلب، وحرشف سمك، على القارب. وجدفوا القوارب على صوت الطبول والصنوج، رمزا إلى أن أحفاد التنين يلعبون على صفحة الماء.

ويرى البعض أن سباق قوارب التنين ظهر على أيدى أبناء دويلة «تشو» القديمة - فى «هونان» و«هوبى» حاليا - تخليدا لذكرى الشاعر الكبير «تشيوى يوان» الذى مات منتحرا فى نهر ميلوه بمقاطعة هونان.

وفى مختلف مناطق الصين توجد عادات متباينة فى سباق قوارب التنين. ففى مناطق كوانجدونج الشرقية، كلما انتهت زراعة الأرز مبكرا فى كل سنة قام الفلاحون بطلاء قوارب التنين، والتدرب على التجديف، ثم يبدأون عرض مهاراتهم فى تجديف القوارب أمام المتفرجين. ويجرى العرض بالتناوب فى مختلف المناطق فى الفترة بين ١ و ٢٠ من شهر مايو. وفى يوم المسابقة، تحشد قوارب التنين فى النهر، ويتجمع المشاهدون على ضفتى النهر، كما تسود موقع السباق أجواء العيد البهيجة.

وفى منطقة ليانجيانج بشرق مقاطعة فوجيان يحتفل الفلاحون بمراسم إنزال قوارب التنين إلى مياه النهر فى نهاية شهر أبريل، ويُزين كل قارب بالشرائط الحمراء، ويحمله المجدفون للتجول به فى القرية طلبا للبركة من القرويين، وذلك برش الماء عليه.

وسباق قوارب التنين من عادات الأقليات القومية الصينية، وفى عيد «دوان وو» من كل سنة يقيم أبناء قومية تشوانج فى كوانجشى، وأبناء قومية «داى» فى «يونان»، وأبناء قومية مياو فى كويتشو سباقا كبيرا لقوارب التنين. ويقيم أبناء قومية مياو فى كويتشو مهرجان سباق قوارب التنين احتفالا بانتهاء زراعة الأرز، وشوقا إلى الحصاد الوفير.

وفى حوض نهر ميلوه نجد أن سباق قوارب التنين له عادات متفردة. ففى تلك المنطقة تتسابق الأسر للإسهام فى صناعة قوارب التنين، ومن يملك المال يتبرع به، ومن لا يملك يقدم المواد الخام اللازمة لصنع القوارب.

وفى بداية شهر يونيو تقام مراسم عرض قارب التنين فى المعبد، حيث يقود الربان مجدافى القارب، ويتقدم عازفو الطبول والصنوج حاملين رأس التنين الخشبى إلى معبد

تشيوى يوان، ويقوم رئيس الكهنة بلف قطعة من الحرير الأحمر على رأس التنين متمنيا لقارب التنين الفوز فى السباق.

وفى عام ١٩٨٤ أدرجت لجنة الدولة للتربية البدنية والألعاب الرياضية (وزارة الشباب والرياضة) سباق قوارب التنين فى قائمة ألعاب المسابقات الرسمية بالصين، كما وحدت نظام السباقات. وفى عام ١٩٨٥ تأسست الجمعية الصينية لقوارب التنين فى بيتشانج بمقاطعة هوبى، وهى مسقط رأس الشاعر الصينى الشهير تشيوى يوان.

وقد مات كل من «ووتش شيوى» و «تشيوى يوان» فى الخامس من يونيو، أى يوم عيد «دوان وو» الذى بدأ سباق قوارب التنين فيه. وهناك أساطير شتى عن سباق القوارب تختلف من مكان إلى آخر، ومن قومية إلى أخرى. وعلى الرغم من ذلك فإن الهدف الذى يقدم له الناس القرابين قد تحول من إله الماء فى البداية إلى الشخصية القديرة. ويدل ذلك على أن ذكرى الشخصية التى يحترمها الشعب فى مناسبة ما، تشكل إحدى سمات الحضارة التقليدية القديمة فى الصين.

وأكثر الأساطير شيوعا عن سباق القوارب هى أسطورة ذكرى الشاعر «تشيوى يوان» لأن الشعب الصينى كان يحب هذا الشاعر، كما أن أشعاره كانت مرآة لأحاسيس ونبض الشعب الصينى.

ومنذ الثمانينيات دخل سباق قوارب التنين ضمن قائمة الألعاب الرياضية الصينية والعالمية. ونجحت الصين فى إقامة ٨ دورات وطنية من كأس «تشيوى يوان» لسباق قوارب التنين، والدورة الأولى من كأس «يان هوانج» لسباق قوارب التنين للصينيين فى العالم، والبطولة الآسيوية الأولى لسباق قوارب التنين، والبطولة العالمية الأولى لسباق قوارب التنين، وسلسلة من المسابقات الودية الدولية لقوارب التنين. وقد أقيمت إحدى وعشرون دورة فى مختلف مناطق الصين.

وفى يونيو عام ١٩٩٥ أقيمت البطولة العالمية الأولى لسباق قوارب التنين بمدينة يوهيانج التى انتحر فى نهرها الشاعر «تشيوى يوان» قبل ٢٠٠٠ سنة، واشترك فى

هذه البطولة ١٤ دولة من خمس قارات منها الولايات المتحدة، وبريطانيا، وألمانيا، وإيطاليا، وجنوب إفريقيا، ونيوزيلاندا، والسويد.

وفى يونيو عام ١٩٩٧ حصل فريق النساء الصينى من محافظة «دو من» بمقاطعة فوانجدونج على الميدالية الذهبية فى الدورة الثانية من البطولة العالمية لسباق قوارب التنين التى أقيمت فى هونج كونج. وسوف تقام الدورة الثالثة من البطولة العالمية لسباق قوارب التنين فى بريطانيا عام ١٩٩٩، وهى أول مرة تقام فيها هذه الرياضة الصينية القديمة خارج الصين.

الفصل السابع

الصين ومشكلات المستقبل

هل تتجه الصين إلى المستقبل بلا مشكلات كبيرة، أو خطيرة ؟

الإجابة بالنفى قطعا، خصوصا أن تاريخ وحاضر الإقليم الذى تقع فيه الصين ملىء بالوساوس، والشكوك، والحروب، وروح الانتقام، وهو مفعم اليوم بمنافسة على الأسواق تصل إلى حد الحروب التجارية.

صحيح أن معظم دول هذا الإقليم تعلمت كيف تجيد ارتداء القفازات الناعمة وقت اللكم، ولكن الصحيح أيضا أن الكلمات الحادة الناقدة تتطاير بين وقت وآخر، وأن التهديدات تتجدد، وأن روح الانتقام لما مضى، تظهر حين تفجرها حادثة أو أخرى.

ومنذ أكثر من سنتين وقفت الصين بصورة ما على حافة الحرب مع تايوان التى تساندها الولايات المتحدة، وذلك حين أجرى الجيش الصينى مناورات واسعة النطاق بالذخيرة الحية فى خليج تايوان، وكان القصد من هذه المناورات إثبات قدرة الجيش الصينى على عزل تايوان عن العالم، واستردادها بالقوة المسلحة، إذا صدر القرار من بكين. وقد تحركت البوارج الحربية الأمريكية صوب المنطقة، ولكنها اختارت الوقوف بعيدا إلى أن تنتهى هذه المناورات حتى لا يحدث احتكاك لا تحمد عقباه. وتجددت المواجهة مرة أخرى فى صيف العام الحالى (١٩٩٩).

ويثور سؤال حائر فى الدوائر العالمية كلما حدثت مواجهة من هذا النوع أو أقل منه شدة، هو: هل ستنشب حرب فى مضيق تايوان بين جزءى الشعب الواحد المنقسمين منذ أكثر من ٤٦ عاما؟

ويتبين ـ فى الإجابة عن هذا السؤال ـ أن الأوضاع لم تصل إلى مرحلة كهذه، وإن كانت الصين قد أكدت بطرق مختلفة أنها لن تتخلى عن مبدأ عودة جزيرة تايوان إلى الوطن الأم، مهما يكن القلق الذى تثيره هذه الأوضاع، خصوصا فى الدوائر الغربية.

وقال البعض إن هذه التحركات تعيد إلى الأذهان الإجراءات الصينية التى مهدت بها لعملياتها العسكرية على الحدود مع فيتنام فى عامى ١٩٧٨ و ١٩٧٩، وهى آخر حرب شهدتها تلك المنطقة.

ومضى البعض إلى حد اتهام الصين بإجراء المناورات ـ على هذا النطاق الواسع الذى شمل قصفا صاروخيا كثيفا للمرة الأولى ـ بهدف إذلال السلطة الحاكمة فى تايبيه، وإثنائها عن أى تحرك على المسرح الدولى لنيل الاعتراف الدبلوماسى بجمهورية تايوان.

ومن المؤكد أن هذه الأزمة بمختلف أبعادها تضاف إلى دواعى القلق الإقليمى إزاء الصين التى تمر بمرحلة تحول يترقب العالم نتيجتها النهائية، وانعكاساتها السياسية والاقتصادية والعسكرية. فالصين تمر الآن بمرحلة انتقالية بكل ما تحمله الكلمة من معنى. ومن المؤكد أن هذه المرحلة تستحق من الغرب، وغير الغرب، تركيز الانتباه على الصين، وملاحقة ما يقع بها من تطورات اقتصادية أو سياسية أو عسكرية، وذلك بقصد قياس التصرفات والقرارات والإجراءات التى تقدم عليها بكين فى مواجهة مشاكل الإقليم الذى تعيش فيه، ومشاكل العالم أيضا.

واللافت للنظر أن القادة الصينيين يشعرون إزاء ذلك بالأهمية الإقليمية، والأهمية الدولية لبلادهم والتى يعاملهم العالم على أساس منهما. وقد تولد هذا الشعور فى البداية حين سعت الولايات المتحدة بواسطة وزير خارجيتها الأسبق هنرى كيسنجر نحو الصين، ثم بدأ البلدان عملية تطبيع العلاقات بينهما عام ١٩٧٩. وفى ذلك الوقت

وجدت الصين نفسها فى حالة معنوية عالية، بل زائدة على الحد، لأنها أصبحت ذات أهمية استراتيجية، وكان ذلك فى عنفوان الحرب الباردة بين الشرق والغرب.

وشيئا فشيئا عرفت الصين معنى التقدم الاقتصادى، والتبادلات التجارية مع دول العالم المختلفة، خصوصا الولايات المتحدة وفرنسا وألمانيا واليابان. وبتقدم الاستثمارات فيها، وما جلبته من عائدات هائلة، بدأ القادة الصينيون يتصرفون بحذر تجاه عدد من القضايا، ويتجنبون فعل أى شيء يسيء إلى مصالح بلادهم الاقتصادية أو إلى صورتهم الجديدة، باعتبار بلادهم قطبا اقتصاديا جديدا فى العالم. وقد حدث ذلك على الرغم من أن بكين كانت حادة اللهجة، وأبدت ردود فعل عنيفة تجاه عدد آخر من القضايا، خصوصا ما يتصل منها بالأوضاع السياسية الداخلية.

وبهذه الصورة تكون تايوان واحدة من مشكلات المستقبل الجوهرية للصين، بل إن هذه المشكلة تنطوى على احتمال أن تسيء الصين الحساب، وهى تحاول استرجاع تايوان، مثلما أساء صدام حسين رئيس العراق الحساب وهو يغزو الكويت عام ١٩٩٠، قائلا إن أرض العرب للعرب، وإن الكويت كانت يوما ما جزءا من العراق!!.

والحقيقة أن التفكير الصينى إزاء تايوان مختلف تماما عن التفكير العراقى تجاه الكويت، فالصين ترى أن الوقت كفيل بحل المشكلة، خصوصا إذا سارت النهضة الاقتصادية الصينية فى طريقها المرسوم، فحينئذ لن يمانع التايوانيون كثيرا فى العودة إلى الوطن الأم بشروطهم، وأهمها أن يسود الصين نظام حكم ديمقراطى، وأن تتقدم الصين اقتصاديا بما لا يؤثر فى مستوى معيشة شعب تايوان الذى كان قد سبق الصينيين فى الوطن الأم نحو الازدهار الاقتصادى والرخاء.

والحقيقة أن تطورا مهما حدث فى السنوات الماضية فى اتجاه الوحدة بين الصين وتايوان، وتمثل فى أن جزيرة تايوان صارت مصدرا مهما للاستثمارات فى الصين، فقد تدفقت أموال الشركات التايوانية إلى الصين بمليارات الدولارات، وتوجهت أيضا العقول الإدارية والاستثمارية من تايوان إلى الصين. وأصبح باب الأمل مفتوحا أمام التايوانيين فى أن يستفيدوا بأقصى درجة من الإمكانات المتاحة فى الصين. ولما

استعادت الصين هونج كونج وأبقت على نظامها الرأسمالى، شعر التايوانيون بالراحة، ولم يعودوا خائفين كثيرا من المستقبل.

ومع ذلك تبقى تايوان ـ فى حقيقة الأمر ـ كيانا مستقلا عن بكين، ويبقى هذا الوضع مشكلة للصين، بل إنها واحدة من مشكلات المستقبل الصعبة. وتزداد المشكلة تعقيدا كلما حدث تطور فى غير اتجاه الوحدة، أو كلما حدث تطور فى اتجاه تكريس الانقسام، ومن ذلك مثلا حصول تايوان على الأسلحة الحديثة من الولايات المتحدة أو غيرها، أو سعى المسئولين التايوانيين إلى الاعتراف الدولى بتايوان بلدا مستقلا، أو إذا أجريت انتخابات ديمقراطية رئاسية وبرلمانية.

هذه التطورات جميعا تثير قلق الصين، وتسعى بشدة لإحباطها.

ولكننا يجب ألا ننسى أن العلاقات المستمرة طيلة عشرات السنين بين تايبيه وواشنطن تقوم على الحماية العسكرية الأمريكية، والروابط الاقتصادية العميقة مع الولايات المتحدة، فهذه العلاقات تعد عائقا جوهريا أمام الوحدة الصينية ـ التايوانية. ولن توافق الولايات المتحدة على هذه الوحدة إلا إذا ضمنت استتباب الاستقرار والأمن فى المنطقة إذا عادت تايوان إلى الوطن الأم.

وستظل هذه القضية مصدر توتر كبير فى العلاقات بين واشنطن وبكين، ولكن بكين ستكسب فى النهاية إذا خاضت معركة النفس الطويل لاستعادة تايوان، وإذا هيأت المناخ داخليا لعودتها.

وقد اعترف المسئولون التايوانيون فى أكثر من مناسبة بأنهم ليس لديهم وسائل الدفاع عن النفس فى مواجهة الصين، بما يمكنهم من الاستغناء عن الحماية الأمريكية. ولما اندلعت حرب الخليج الثانية فى يناير عام ١٩٩١، تخيل التايوانيين أن موقفهم سيكون مثل موقف الكويت التى وقف العالم كله ضد محوها من الوجود بأيدى قوات صدام حسين. ومع ذلك يواصل التايوانيون التفكير فى الموقف الذى يمكن أن يقفه المجتمع الدولى منهم، إذا أقدمت الصين على عمل عسكرى ضدهم، وهم ليسوا سوى دولة صغيرة غنية، ولكنها يمكن أن تكون فريسة سهلة للقوة العسكرية الصينية الهائلة

التى يعتبرها الخبراء اليوم القوة العسكرية الثانية بعد القوة العسكرية الأمريكية، وذلك فى الوقت الذى انحطت فيه القوة العسكرية السوفيتية إلا ما يتصل منها بالأسلحة النووية.

ويرى البعض أن الولايات المتحدة لن تسكت أمام أى غزو صينى لتايوان، وأن رد فعلها سيكون شديدا، خصوصا أن هناك مؤشرات على وجود معاهدات دفاعية سرية بين الجانبين. ويضاف إلى ذلك أن الكونجرس الأمريكى لا يستريح لمواقف الصين وسياساتها الداخلية فى وجه المطالبين بالديمقراطية وحقوق الإنسان، وهذا الأمر فى مصلحة تايوان.

وقد اتفقت مواقف دول شرق وجنوب شرق آسيا إزاء المناورات الصينية قرب سواحل تايوان على ضرورة اجتناب إثارة غضب بكين، وتجنب المزيد من التوتر فى المنطقة. وأولى الدول وأقربها إلى ميدان المناورات هى اليابان، إذ تقع أهداف الصواريخ المثبتة إلى الشمال من جزيرة تايوان على بعد ٦٥ كيلومترا من إحدى الجزر اليابانية. ولخصت الحكومة اليابانية قلقها فى وصف المناورات بأنها غير سارة، كما جاء فى تعليق رئيس الحكومة (وقتها) ريوتارو هاشيموتو، الذى أضاف: «لما كانت المناورات تجرى فى بحار مفتوحة فإنها لا تشكل أية مشكلة للقانون الدولى».

وصدر فى الفلبين، وهى الدولة الثانية الأقرب إلى ساحة المناورات، بيان «هادئ» دعا إلى التحفظ والحد من نطاق العمليات. وذهبت تايلاند إلى مدى أبعد فى مجال اجتناب نقد بكين، أو إثارتها، بل حاولت تأييدها، وتأكيد أحقية الصين فى إجراء المناورات فى داخل حدودها. وتساءل وزير خارجية تايلاند قائلا: عندما تقوم دولة ما بإجراء تدريبات عسكرية فى داخل حدودها، بهدف صد إحدى مقاطعاتها عن الانفصال، هل تمنعونها من إجراء هذه التدريبات؟!.

ومع ذلك تؤكد حالة الاستقرار السياسى التى تعيشها الصين، منذ بداية سنوات الانفتاح على العالم فى أواخر السبعينيات إلى الآن، أن من الصعوبة بمكان توقع عمل طائش من جانب بكين فى اتجاه تايوان يثير حفيظة حلفاء تايبيه، وفى مقدمتهم الولايات

المتحدة. ويبين رد الفعل العالمى على وفاة زعيم الصين الراحل دنج شياو بنج فى فبراير عام ١٩٩٧ أن العالم كله ثقة فى استقرار الصين ونضج قيادتها.

فقد اتفقت الأصداء العالمية لنبأ وفاة رجل الصين القوى ومؤسس نهضتها الحديثة، دنج شياو بنج، على أن السياسة الصينية لن تتغير بوفاته، وأنها لن تترك أى أثر سلبى يذكر على العلاقات التى تربط الصين بدول العالم، وأن سياسة الإصلاح والانفتاح الاقتصادى التى انتهجها الزعيم الراحل سوف تستمر.

وقال الرئيس الأمريكى بيل كلينتون إن دنج كان ـ على مدى العقدين الماضيين ـ زعيما غير عادى على المسرح الدولى، كما كان القوة المحركة لقرار الصين بتطبيع علاقاتها مع واشنطن. وأضاف كلينتون أن قرار دنج بانفتاح الصين على العالم الخارجى جعلها تلعب دورا مهما فى السياسة الدولية، مشيرا إلى أن انتهاج بكين سياسات مستقرة، وبرامج اقتصادية انفتاحية، واحترامها حقوق الإنسان وسيادة القانون يجعلها شريكا كاملا لبناء نظام عالمى يتسم بالأمن.

ووصفت وزيرة الخارجية الأمريكية مادلين أولبرايت الزعيم الصينى بأنه زعيم تاريخى، وأنه بطل هذه الفترة الانتقالية فى تاريخ الصين. وقال مسئول أمريكى كبير إن وفاة دنج لن يكون لها تأثير سلبى يذكر على العلاقات الصينية ـ الأمريكية، لأن الزعيم الراحل كان مبتعدا فى السنوات الأخيرة عن مقاليد الحكم، وأن خلفاءه سوف يسيرون على نهجه. وقد اتفق المسئولون والمحللون الأمريكيون على أن وفاة دنج لم يكن لها وقع المفاجأة القاسية، لأن هناك ثقة تصل إلى درجة اليقين فى أن خلفاء دنج ماضون على طريقه.

ولكن كان من الطبيعى أن يختلف خبراء الشئون الصينية الأمريكيون فى الرأى حول ما يمكن أن يحدث فى الصين بعد وفاة دنج، فقد توقع بعضهم انتقالا سلميا للسلطة، بينما حذر آخرون من احتمال أن يصل الأمر إلى حدوث صراع دموى للوصول إلى السلطة أو البقاء على قمتها، وهو أمر لم يحدث كما رأينا.

وقال رئيس وزراء اليابان هاشيموتو إنه يشعر بحزن عميق لوفاة الزعيم الصينى، وأشاد بالدور الذى لعبه طوال سنوات فى دعم وتطوير العلاقات الصينية ـ اليابانية.

وكما حدث من جانب الأمريكيين، توقعت مصادر يابانية مطلعة ألا يطرأ أى تغيير فى مسار العلاقات بين البلدين بعد وفاة دنج، استنادا إلى أنه من غير المتوقع حدوث تغيرات جذرية فى السياسة الصينية. ومع ذلك قالت الدوائر اليابانية إنها ستراقب عن كثب التطورات الجارية فى بكين.

وأشاد الرئيس الفرنسى جاك شيراك بالزعيم الصينى، وقال: إنه سيخلد فى الأذهان كواحد من أعظم شخصيات التاريخ الصينى. وأشاد به كوفى عنان الأمين العام للأمم المتحدة باعتباره مهندس عملية التحديث فى الصين، ورائد الإصلاحات الاقتصادية الكبيرة فيها.

دور عالمى بوعى ومسئولية

على كل حال بدت الصين عبر سنوات طويلة فى صورة بلد يمارس دوره العالمى بقدر كبير من الوعى والمسئولية. ومن أقوال رئيس وزراء الصين السابق، وهو رئيس البرلمان الحالى، لى بنج: «لا يمكن للصين أن تطور نفسها بمعزل عن بقية أنحاء العالم». وقد صدرت عنه هذه الكلمات على الرغم من أنه الأكثر ميلا إلى التيار القومى من بين القادة الصينيين البارزين.

ولم تكن هذه الأقوال مجرد ردة فعل عاطفية، بل إنها تمثل دلالة على وجود تحول مهم فى السياسة الخارجية للصين. وفى توقيت مقارب لهذا التصريح المهم، بدأت الصين حملة تتسم بالإصرار على الترويج لسياسة خارجية جديدة، تؤكد فيها ذاتها ووجودها الفعال على المستوى الإقليمى، وذلك فى الوقت الذى تسعى فيه إلى تحقيق أهدافها الدولية بنشاط من خلال المنتديات والمنابر الدولية.

ولكن هناك ملاحظة جديرة بالاهتمام، وهى أن الصين كانت فى السابق تفضل التعامل مع القضايا الحساسة بصورة ثنائية. أما فى حقبة ما بعد دنج شياو بنج،

فإنها ترسى دعائم سياسة خارجية أكثر فعالية وتماسكا، لتوازى أهميتها الاقتصادية المتزايدة.

وقد شجع الصينيين على ذلك كثيرا أنهم استعادوا جزيرة هونج كونج عبر المفاوضات والدبلوماسية، وهى عملية تعتبر ناجحة إلى حد كبير.

ومن المؤكد أنه ستمر فترة ليست بالقصيرة إلى أن تستقر السياسة الخارجية للصين، ولابد أن تتسم هذه الفترة بالمزيد من الإسهام الإيجابى من جانب بكين فى القضايا الدولية.

فاستقرار السياسة الخارجية لدولة ما لا يكون واضحا بمجرد أن تكون هناك تغطية واسعة للنشاط الدبلوماسى للسياسيين والقادة فى وسائل الإعلام المملوكة للدولة، أو لغيرها، بل إن ذلك يستند على أفكار، ومواقف، وحسابات معقدة أحيانا، إلى جانب وزن اقتصادى وعسكرى للدولة، وانتشار استراتيجى لها فى الإقليم الذى توجد به، أو فى العالم.

وقد لاحظنا - ولاحظ مراقبون آخرون أيضا - أن وسائل الإعلام الصينية بدأت منذ فترة تركز كثيرا على نشاط الرئيس جيانج تسه مين رئيس الصين فى زياراته الخارجية، وتصور دوره باهتمام كبير جدا، وأظهرته فى أحد الاجتماعات مع قادة دول اتحاد جنوب شرق آسيا - التى تعانى من متاعب الانهيار المالى - رجلا حكيما يوزع نصائحه عليهم كما لو كانوا تلاميذ مذنبين. ويختلف هذا الوضع بصورة جذرية عن الصورة السابقة للسياسة الخارجية الصينية التى كانت تعبر عنها جريدة «الشعب» الصينية ربما دون غيرها.

وقد فرضت هذا النمط الأخير من الدبلوماسية، الشكوك الصينية التقليدية فى بواعث الأغراب، وهى شكوك مترسخة بعمق فى بلد ابتعد بقدر الإمكان عن الاتصال بالعالم إلى عهد قريب نسبيا.

ولكن هناك مؤشرات غير قليلة على التغيير نحو مسار جديد للسياسة الخارجية لبكين، وهو مسار يسمح فيما يبدو بتحسين علاقات الصين مع الجيران والغرب. ومن

الأهداف الرئيسية للسياسة الخارجية الجديدة الإيحاء أو الإقناع بأن الصين تخرج بسرعة، وبقوة، من إطار العزلة الذى حبست نفسها فيه منذ أواخر الأربعينيات إلى أوائل السبعينيات، وأنها تبدأ - فى مجال تحسين وتوطيد العلاقات مع دول العالم - بالأقرب فالأبعد، أى بالجيران ثم الآخرين بعدهم.

وعلى كل حال لم تكن السياسة الخارجية الصينية ثابتة ومحددة طوال الوقت منذ أن بدأت الصين انفتاحها على العالم، فمنذ نهاية السبعينيات تعرضت السياسة الصينية لعدد من الهزات والتغيرات. وبدأ ذلك مع الإفراط فى التفاؤل فيما يتصل بالإمكانات التى تنطوى عليها العلاقات الصينية - الأمريكية، فقد أعلن دنج شياو بنج أن الولايات المتحدة والصين تجمعهما مصلحة عالمية متطابقة فى معارضتهما للاتحاد السوفيتى.

ولكن وقوع أحداث ميدان تيان آن مين (ميدان السلام السماوى) بعد عشر سنوات من ذلك، أجهض هذا التصور للإمكانات الكبيرة التى تنطوى عليها العلاقة الصينية - الأمريكية. ثم انهار الاتحاد السوفيتى بصورة أرغمت الصين على إجراء مراجعة لمكانتها فى العالم الذى أصبح خاضعا لهيمنة قوة عظمى واحدة.

وربما أسفرت هذه المراجعة عن نتيجة أساسية مفادها أنه ليس من السهل على الصين أن تصل إلى وضع «قوة عظمى» فى منطقة آسيا والمحيط الهادى، حيث تتجاور اليابان وأمريكا وروسيا إلى جانب الصين. وبدأ المسئولون الصينيون فى تبيان أولويات السياسة الخارجية بمنتهى الوضوح، بما فى ذلك ما يوصف بأنه «بداية طيبة» للعلاقات الصينية - الأمريكية.

وأخذ الصينيون (انطلاقا من موقف عملى) فى اعتبارهم أن الحرب الباردة انتهت، وصمموا على أن العالم يجب أن يتحرك باتجاه تعددية قطبية، وبالتالى لابد من وجود نوع جديد من العلاقات بين الدول الكبيرة يقوم على مراعاة وجود دول أخرى كبيرة مؤثرة فى المسرح العالمى. وبمعنى واضح صمم الصينيون على أنه يجب على الولايات المتحدة ألا تتصرف وكأن الآخرين غير موجودين، وأنه إذا كانت الولايات المتحدة تطلب

تعاون الآخرين معها فى هذه القضية أو تلك، فإن عليها أن تحترم مواقف الآخرين من القضايا المختلفة.

ولم يكن سهلا بطبيعة الحال أن تحقق الصين هذه الأهداف مرة واحدة، أو على وجه السرعة، فالعالم بعد الحرب الباردة لم يتشكل فى صورة نهائية إلى اليوم، وبالتالى سوف تظل الحسابات غير قائمة على أرضية محددة. وعلى سبيل المثال كانت الصين جزءا من الحملة الدولية لتحرير الكويت من الاحتلال العراقى، ولكن الولايات المتحدة لم تضع موقف الصين فى اعتبارها حين أخذت تتعامل مع العراق بمنطق القوة فقط فيما بعد.

وقد كان جيانج تسه مين صادقا حين عبر عن هذا الوضع الدولى فى خطابه أمام المؤتمر الخامس عشر للحزب الشيوعى الصينى، حيث أشار إلى أن علاقات القوى الكبرى تتعرض لتغيرات رئيسية وعميقة، وأن الصين ترى فى نفسها عنصرا فاعلا فى هذه التغيرات.

ويقول كينيث ليبرتال الخبير الأمريكى بالشئون الصينية إنه ليس من الواضح ما إذا كانت رغبة الصين فى إقامة سياسة خارجية متماسكة هى مجرد محاولة لمقاومة النفوذ الأمريكى، أو ما إذا كانت بكين تؤمن حقا بأن هذه هى أفضل طريقة لتنظيم علاقاتها الدولية.

وعلى كل حال فإن من الواضح أن القيادة الصينية اتخذت - منذ وفاة دنج شياو بنج - جانب الدفاع على الصعيد الدبلوماسى. ومنذ إعادة هونج كونج إلى السيادة الصينية انهمك المسئولون الصينيون فيما يصفه أحد أبرز مراقبى الشئون الصينية بـ «الدبلوماسية الرفيعة»، وشمل ذلك عقد اجتماعات قمة مع أمريكا وروسيا، ومحادثات قمة، ومحادثات أخرى رفيعة المستوى مع اليابان، ومشاركة فى اجتماعات منتدى التعاون الاقتصادى لمنطقة آسيا والمحيط الهادى، واجتماعات رابطة أمم جنوب شرق آسيا (الآسيان)، والمشاركة فى جهود إنقاذ الاقتصادات الآسيوية التى تعانى من مشكلات وأزمات خانقة، وتوشك على الغرق والإفلاس، بالإضافة إلى لعب دور بارز فى تشجيع محادثات جنيف بشأن كوريا الشمالية.

ويتعارض هذا النشاط البناء بشكل حاد مع أجواء الأزمة التى خيمت على المنطقة فى أوائل عام ١٩٩٦، إبان المناورات الصينية بالذخيرة الحية فى مضيق تايوان، وهى المناورات التى كانت قد أدت إلى موجة غضب واسعة، وتوجيه اللوم لبكين، ونشر حاملتى طائرات أمريكيتين بالقرب من مسرح المناورات. كما أن هذا النشاط يختلف أيضا نسبيا عن أجواء الاحتكاك الأخيرة بين الصين وتايوان فى العام الحالى، وكذلك عن أجواء التوتر التى سادت بين واشنطن وبكين بسبب أزمة كوسوفا التى كادت الصين تناصب أمريكا العداء خلالها، خصوصا بعد قصف السفارة الصينية فى بلجراد. ويقول ليبرتال: «إن الصينيين يسعون بسلوكهم المتعاون مع الآخرين إلى ترسيخ وضعهم كدولة مهمة يمكن الانسجام معها، وكذلك وضعهم كدولة مهتمة بالتنمية الاقتصادية بشكل رئيسى. وربما أن جيانج تسه مين زعيم الصين يحاول أن يجرب ملابس البلد الكبير لكى يرى كم هى مناسبة لبلاده».

وفى هذا السياق تحاول الصين أن توصف بأنها طامحة إلى دور قوة كبرى، وذلك من خلال المشاركة على المستوى الإقليمى، بدلا من العزلة القديمة. وعلى أى الأحوال، فإن صعود الصين إلى مركز قوة إقليمية فى آسيا لم يعد محل شك، لأن تأثيرها كبير فى أحداث آسيا الاقتصادية والسياسية والعسكرية، ولن يتخلى الصينيون بأى حال عن هذا الدور فى المستقبل، بل سيواصلون البناء عليه نحو دور عالمى للصين يبدو محتوما فى النصف الثانى من القرن الحادى والعشرين على الأكثر.

وقد جاء وقت على الصينيين فى أواخر عام ١٩٩٣ وأوائل عام ١٩٩٤ حاولوا فيه أن يقولوا للعالم إن بلادهم عملاق جاهز ليكون بديلا - لا تنقصه المؤهلات - للاتحاد السوفيتى. وفى ذلك الوقت انشغلت بكين، وشغلت معها جهازها الدبلوماسى، فى استقبال وتوديع زوارها من رؤساء دول وحكومات ٢٨ دولة أجنبية، وفى إعداد الرسل والمبعوثين الصينيين على أعلى المستويات إلى عواصم القارات لإيجاد مواطئ أقدام للصين تحت مظلة النظام العالمى الجديد، وتأكيد فتح أبواب بكين للصداقة والتعاون والاستثمار.

وقد حاول الزعيم الصينى لى بنج، حين كان رئيسا للوزراء، الكشف عن هذه الدبلوماسية الصينية الجديدة خلال جولة قام بها فى أوروبا فى يوليو عام ١٩٩٣، فقد

تعمد توسيع الحاشية المرافقة له لتضم عددا كبيرا من رجال الأعمال الصينيين، وكان يردد عبارة: «أنا أريد أن أخدم كبائع متطوع لمصلحة الصين». ونجحت مقولة لى بنج فى إثارة اهتمام مسئولى الحكومات ورجال الأعمال الأجانب على السواء، ولفت انتباههم حديث المسئولين الصينيين عن بلادهم باعتبارها أكبر سوق عالمية ذات طاقات وإمكانات كامنة؛ إذ تضم مليارا و ٢٠٠ مليون مستهلك.

المهمة الأكبر للدبلوماسية الصينية

يقول المحللون إن التنين الصينى مستعد أن يتقبل ويتفهم ويستوعب ما يمر به العالم من تقلبات وتطورات، سواء كانت سياسية أم اقتصادية، وذلك لكى يتجنب المصير الذى انتهى إليه الاتحاد السوفيتى. وعلى الرغم من أن الصين ألزمت نفسها بالتحديث إلى جانب استيعاب الاستثمارات الأجنبية والتكنولوجيا والخبرات المتقدمة، فإن طبيعة الأوضاع الدولية تظل مسألة حاسمة فى مجال تقدمها المطرد.

وهكذا فإن أكبر مهمة للدبلوماسية الصينية المعاصرة تتمثل فى إيجاد مناخ للتعاون الثنائى والمتعدد الأطراف. وقد أتت هذه الاستراتيجية الدبلوماسية ذات التأثير الكبير فى التنمية ثمارها. ففى جولة لى بنج الأوروبية، وقعت الصين مع ألمانيا والنمسا اتفاقيات وعقودا و «خطابات نوايا» قيمتها ٥,١ مليار دولار أمريكى. وفى أبريل عام ١٩٩٤، أسفرت جولة لى بنج فى أربع دول بوسط آسيا ومنغوليا عن توقيع اتفاقية تاريخية مع قازاقستان لتسوية نزاع على الحدود، بالإضافة إلى توقيع أربع اتفاقيات وعقدين و «خطاب نوايا». ويرى الدبلوماسيون من الجانبين فى هذا الأمر أنه خطوة مهمة فى إعادة بناء «طريق الحرير» القديم.

وحتى بالنسبة للدول الغربية التى اختلفت طويلا مع الصين حول مسائل سياسية معينة، يبدو أن المصالح أخذت تتغلب على النزاعات الأيديولوجية، فقد تحسنت العلاقات الصينية - الفرنسية بعد الزيارة التى قام بها رئيس الوزراء الفرنسى - وقتذاك - إدوار بالادور لبكين، وكانت العلاقات قد توترت نتيجة بيع فرنسا طائرات حربية لتايوان.

وتشهد العلاقات الصينية ـ الأمريكية من جانبها تحسنا حذرا، فقد زار بكين فى أوائل عام ١٩٩٤ وزير الخزانة الأمريكى ـ وقتذاك ـ بنتسن، ووزير الخارجية ـ وقتها ـ وارين كريستوفر، وفى نهاية مايو من العام نفسه، قرر الرئيس الأمريكى كلينتون تمديد وضع الدولة الأولى بالرعاية للصين، وفصل المراجعات السنوية للدولة الأولى بالرعاية عن مسائل حقوق الإنسان المثارة ضد بكين. وفى أواخر عام ١٩٩٨ قام كلينتون نفسه بزيارة للصين، تم التوصل خلالها إلى اتفاق تاريخى بوقف تصويب الصواريخ النووية العابرة للقارات إلى المدن فى البلدين.

ويبدو واضحا أن الصين تركز على تحسين صورتها لدى جيرانها، وتثبيت مبدأ «حسن الجوار» على رأس أولوياتها الدبلوماسية. وكانت رحلة نائب الزعيم الصينى تشو رونج جى ـ الذى أصبح رئيسا للوزراء فيما بعد ـ لليابان فاتحة هذا النهج، وأعقبتها زيارة رئيس الوزراء اليابانى للصين، ثم زيارة رئيس كوريا الجنوبية لبكين، وذلك أثناء تفاقم الأزمة النووية فى شبه الجزيرة الكورية التى واجهتها الصين بإصرار على التسوية عبر الحوار والمشاورات، وليس بالمقاطعة والعقوبات.

وإلى جانب ذلك نجحت بكين فى إحراز تقدم مذهل فى علاقاتها مع روسيا، وتحقق الود مع «الدب الروسى» الذى كان يتربع على عرش العملاق السوفيتى الراحل.

ووسط هذا الانهماك حافظ قادة الصين على وجود اتصال مستمر مع رؤساء دول وحكومات رابطة أمم جنوب شرق آسيا من أجل تأكيد التزام الصين بالتعاون الإقليمى. وكانت نتيجة هذه اللقاءات والمشاورات الإقليمية العالية المستوى أن أصبحت علاقات الصين مع جيرانها أقوى مما كانت عليه فى أى فترة أخرى.

ومن الواضح أن الصين ـ باعتبارها أكبر دولة نامية تعدادا بالسكان فى العالم ـ مازالت شديدة الاهتمام بالمحافظة على علاقات طيبة مع العالم الثالث. ويبقى تطوير وتوسيع العلاقات الودية مع الدول النامية الأخرى أساسا لسياسة الصين الخارجية. وخلال السنوات الماضية زار وزير خارجية الصين عددا من دول القارة الإفريقية. كما شهدت العلاقات زيارات متبادلة على مستوى عال بين الصين ودول أمريكا الجنوبية.

فقد زار وفد حزبى صينى أوروجواى، والأرجنتين، والبرازيل، وزار الصين رؤساء الإكوادور، وسورينام، وبيرو. وترتبط الصين بعلاقات دبلوماسية مع ١٥٩ دولة.

ومع ذلك تبقى هناك مشكلات مهمة تتطلب الحسم من القيادة الصينية الحالية، وكذلك القيادات التى تعقبها فى السنين المقبلة. ومن هذه المشكلات وضع هونج كونج بعد عودتها إلى الصين، فقد كانت هونج كونج بمثابة الدجاجة التى تبيض ذهبا قبل عودتها إلى الصين، ووافقت بكين على أن تبقى هذه المدينة بنظامها الرأسمالى الاستثمارى كى تبيض ذهبا للصين أيضا. ولكن بعد العودة تدهور وضع هونج كونج الاقتصادى متأثرا بالتدهور المالى الحاد فى دول النمور الآسيوية. ونتيجة لذلك صار هناك معنى للتحذيرات التى ترددت فى الغرب عن احتمالات تدهور أوضاع هونج كونج الاقتصادية بعد بسط السيادة الصينية عليها، على الرغم من أن هذا التدهور لم يكن نتيجة أخطاء ارتكبتها القيادة الصينية، بل نتيجة وضع اقتصادى عام فى المنطقة كلها.

وسوف يكون مطلوبا من الصين أن تتخذ الإجراءات الاقتصادية اللازمة لتنشيط اقتصاد هونج كونج كلما حدثت تقلصات اقتصادية بها، بالطريقة نفسها التى تطبق بها إجراءات تنشيط الاقتصاد الصينى، خصوصا أن بكين صممت على تخفيض دولار هونج كونج، بالدرجة نفسها التى صممت بها على عدم تخفيض العملة الصينية (اليوان).

وسوف تتعرض العلاقات اليابانية - الصينية لاختبار صعب فى السنوات المقبلة، سببه السياسات الاقتصادية لكل منهما، وهى السياسات التى تؤثر كل منهما بها فى الأخرى. فمنذ أواخر عام ١٩٩٨ ظلت اليابان تطالب الصين بتخفيض قيمة عملتها من أجل دفع الاقتصادات المتدهورة فى دول النمور الآسيوية الأخرى إلى الانتعاش، ولكن الصين ظلت ترفض ذلك، وتحمّل اليابان المسئولية عن هذا التدهوّر، باعتبار أن اليابان ساعدت الدول الآسيوية الأخرى على الدخول فى توسع اقتصادى غير محسوب لكى يظل الاقتصاد اليابانى مزدهرا على حساب اقتصادات هذه الدول، ثم حدث الانهيار نتيجة للمضاربات على العملات فى البورصات.

وللحق، قدم اليابانيون المساعدات للصين أيضا بهدف تحقيق استقرار دائم لها داخليا. ولكن الصينيين يقولون إنهم غير مسئولين عن السياسات غير الواقعية التى انتهجتها كوريا الجنوبية، وماليزيا، وإندونيسيا، وتايوان، وسنغافورة بدرجة ما، وهى السياسات التى أدت إلى الانهيار المدوى الذى لا يمكن معالجة آثاره كاملة قبل مرور سنوات أخرى مقبلة.

ويحذر الخبراء الاقتصاديون القادة الصينيين من أن الإصرار على عدم تخفيض العملة قد تكون له آثار اقتصادية غير طيبة على المدى البعيد، ولكن هؤلاء الخبراء ينسون أن حكام الصين رفضوا منذ سنوات طويلة تلقى الأوامر أو التعليمات من الخارج، وذلك رغبة منهم فى أن يعطوا بلادهم ثقلا على المسرح العالمى.

فقد ظل الاقتصاد الصينى فى عزلة وسبات طوال العقود الأربعة التى تلت الحرب العالمية الثانية، بينما قطعت الدول المجاورة مثل اليابان، وهونج كونج، وكوريا الجنوبية، وسنغافورة، وتايوان طريقا طويلا نحو التقدم أخذا باقتصاد السوق الحرة، ثم تلتها الدول التى ازدهرت فى مرحلة لاحقة بسرعة قياسية مثل تايلاند، وماليزيا، وإندونيسيا، والفلبين. وأخيرا جاءت مرحلة تطور الصين السريع الذى فاق فى سرعته نظيره فى جميع الدول المحيطة بها. وخلال عملية التطور اكتسبت بكين قدرة وكفاءة عاليتين كانتا موضع اهتمام الدول الآسيوية، بما فيها تلك الدول التى لم تقبل بنظام المركزية والفردية، ولا بأوضاع الإنسان وحقوقه فى بكين. وذهب معظم هذه الدول بعيدا عندما ربطت مستقبل اقتصاداتها باقتصاد الصين وسوقها الكبيرة.

وقد شاركت استثمارات الدول الآسيوية فى عملية تطور اقتصاد الصين، ففى غضون سنوات تدفقت استثمارات زادت على ٣٤٠ مليار دولار إلى الصين، كان ٧٠٪ منها من دول آسيوية. وخلال عشر سنوات (١٩٨٤ - ١٩٩٤) تضاعفت الصادرات الآسيوية إلى الصين عبر هونج كونج مرات عديدة، فزادت من ١٨ مليار دولار عام ١٩٨٤ إلى ١٢٠ مليار دولار عام ١٩٩٤.

وهناك صناعات مثل النسيج والأحذية والدمى اختفت بالكامل فى تايوان وهونج كونج وبعض الدول الآسيوية الأخرى، وظهرت بكامل طاقتها الإنتاجية فى مقاطعات

الصين الجنوبية. وفى الوقت نفسه أدت معدلات النمو الكبيرة فى الصين إلى قيام مجموعة من المؤسسات الصناعية الحديثة بالاستفادة من تكنولوجيا وتجهيزات الدول الآسيوية المجاورة. ورافق ظهور هذه المؤسسات قيام طبقة متوسطة قوية. وبين صفوف الطبقة المتوسطة، انتشرت التعاليم القومية الصينية الجديدة التى هى مزيج من الكونفوشيوسية والماوية. ودأب القائمون عليها على إحياء تراث وأمجاد القرون الماضية على امتداد التاريخ الصينى الطويل (٥٠٠٠ سنة).

وهنا تكمن مشكلة أخرى إلى جانب المشكلة التى يثيرها البطء فى نمو اقتصادات النمور الآسيوية. فقد بعثت الموجة القومية الصينية الجديدة مخاوف كبيرة لدى الدول الآسيوية المجاورة، وجاءت أزمة تايوان والتعبئة العسكرية الصينية بشأنها لتقوى هذه المخاوف، على الرغم من تأكيدات بكين أن المسألة داخلية ولا علاقة لها بالدول الأخرى فى المنطقة، وأن الصين حريصة على الحل السلمى لها. ورأت الدول المجاورة فى المناورات الصاروخية الصينية والبيانات القومية المتطرفة فى صددها، تهديدا للنهضة الاقتصادية فى منطقة شرق وجنوب شرق آسيا.

ويقول المراقبون إن المخاوف من القومية الصينية الجديدة ليست بغير أساس، فهناك النزاعات على الحدود بين الصين وأكثر من دولة فى المنطقة. وفى بحر الصين الجنوبى تقع أرخبيلات وجزر عديدة، مثل جزر سبراتلى وجزر باراسيل الغنية بالبترول، فضلا عن أنها تقع على أهم الطرق التجارية فى العالم، حيث يمر عبر هذه الطرق البحرية ٨٠٪ من واردات اليابان النفطية، وتمتد القناة الاستراتيجية التى تربط بين المحيطين الهادى والهندى. ويذكر أن هناك ست دول هى: الصين وفيتنام، والفلبين، وماليزيا، وتايوان، وبروناى، تتنازع السيادة على هذه الجزر وثرواتها النفطية.

الفصل الثامن

الله أكبر ولو فى الصين

فى رحلات ابن بطوطة إلى الصين قبل أكثر من ٩٠٠ سنة، يذكر أن أهل الصين كانوا فى ذلك الوقت يعبدون الأصنام، ويحرقون موتاهم مثل الهنود. ويستطرد قائلا: «إنه يوجد فى كل مدينة من مدن الصين حى يعيش فيه المسلمون منفردين، ولهم فى هذه الأحياء مساجد لإقامة صلاة الجمعة، و «هم فى معظمهم محترمون». و «لابد فى كل مدينة من مدن الصين من شيخ للإسلام تكون أمور المسلمين كلها راجعة إليه، وقاض يقضى بينهم».

ويصف ابن بطوطة أحياء المسلمين فيمنحها صفة الحسن، ويقول إن أسواقها مرتبة «كترتيبها فى بلاد الإسلام، وبها المساجد والمؤذنون، وقد سمعناهم يؤذنون بالظهر عند دخولنا». ويسجل الرحالة العربى الكبير احترام العبادات فى الصين، وإن لم يعجبه بالطبع أن يأكل الصينيون لحوم الخنزير والكلاب، ويبيعونها فى أسواقهم.

ويعتقد ابن بطوطة أن حرية العبادة جزء من الإحساس العام بالأمان الذى كانت الصين تعيش فيه، فهى فى رأيه «بلاد آمنة وأحسنها حالا للمسافرين، فالإنسان يمكنه أن يسافر منفردا مسيرة تسعة أشهر، وتكون معه الأموال الطائلة فلا يخاف عليها. وترتيب ذلك أن لهم فى كل منزل ببلادهم فندقا عليه حاكم ويسكن به جماعة من

الفرسان والرجال. فإذا كان بعد الغروب أو العشاء جاء الحاكم إلى الفندق ومعه كاتبه فكتب أسماء جميع من يبيت به من المسافرين، وختم عليها وأقفل باب الفندق عليهم. فإذا كان الصبح جاء ومعه كاتبه فدعا كل إنسان باسمه، وكتب بها تفصيلا وبعث معهم من يوصلهم إلى المنزل التالى له، ويأتيه ببراءة من حاكمه أن الجميع قد وصلوا عليه، وإن لم يفعل طالبه بهم. وهكذا العمل فى كل منزل ببلادهم من أقصاها إلى أقصاها».

وقد ظلت حرية العقيدة مباحة فى الصين لقرون طويلة حتى تعرضت لبعض التضييق فى فترات الثورة الماوية والثورة الثقافية. ولكن بعد التغيرات الأخيرة التى مضت فيها على طريق التقدم الاقتصادى والتغير السياسى، عادت الصين من جديد تسمح للأقليات الدينية بحرية ممارسة شعائر العقيدة. وقد بدا لى - فى زياراتى المختلفة لبكين - أن الصينيين مستعدون لما هو أكثر من ذلك، بشرط ألا ينطوى ذلك على تهديد لوحدة البلاد أو سيادتها.

وفى هذه الزيارات كذلك كنت حريصا على أن ألتقط الكثير من الحقائق والمعلومات عن الأقلية المسلمة هناك، التى نشعر بأننا نرتبط بها بمشاعر الدين وثقافته.

لقد دخل الإسلام الصين من حدودها الغربية بعد فتح منطقة تركستان الشرقية المتاخمة لهذه الحدود، كما دخلها عن طريق البحر إلى شرق الصين. ففى نهاية عصر الخلفاء الراشدين وصل مبعوث مسلم إلى الصين، وكان ذلك فى عام ٣١ هجرية فى عهد عثمان بن عفان رضى الله عنه ثم توالت البعثات الإسلامية حتى بلغ عددها ٢٨ بعثة فى الفترة بين عامى ٣١ و ١٨٤ هجرية.

وكانت هذه البعثات ثقافية وتجارية، وقد جاءت عن طريق البحر. وبفضل هذه البعثات بدأ الإسلام ينتشر فى الصين من المناطق الساحلية إلى داخل البلاد. ودخلت الصين الإسلام فى عام ٦١١ ميلادية، وتعرض الإسلام فيها لموجات من الصعود والهبوط فى عصر أسرة تانج التى تولت مقاليد الحكم فى الصين فى عام ٦١٧ ميلادية، أى بعد دخول الإسلام بست سنوات. وأخذ الإسلام ينتشر شيئا فشيئا فى عصر أسرة سونج التى انتهى حكمها فى عام ١٢٦٧ ميلادية.

واشتد عود الإسلام فى عصر أسرة يوان، أو ما يسمى بالحكم المغولى، وكان ذلك فى الفترة بين ١٢٧٧ و ١٣٦٧ ميلادية، وكذلك فى عصر أسرة «مينج» بين عامى ١٣٦٨ و ١٦٤٣ ميلادية.

لكن سرعان ما حلت الكوارث بالإسلام فى عصر أسرة «المانشو» بين عامى ١٦٤٤ و ١٩١١ . ففى هذه السنوات الممتدة إلى قرون كانت السلطة فى الصين تمارس بقسوة عملية اضطهاد للإسلام والمسلمين.

ولذلك كانت أهم فترة ازدهر فيها الإسلام فى الصين هى الفترة المغولية، حيث انتشر الإسلام بسرعة مذهلة فى جميع أنحاء ولايات الصين. وتتفق المراجع والمصادر المختلفة على أن ٨ ولايات من مجموع ١٢ ولاية كان عليها حكام من المسلمين. ولكن هذه النهضة الإسلامية تبدد معظمها فيما بعد فى عصر المانشو.

ومع قيام الثورة الوطنية فى الصين فى عام ١٩١١ بقيادة صن يات سن، قضى على حكم المانشو، وعاد المسلمون يتمتعون بحرية ممارسة العقيدة والشعائر الدينية، بل إن المسلمين حاربوا من أجل توحيد الصين، ومن أجل الحكم الوطنى بعد وفاة صن يات سن، كما حاربوا الاحتلال اليابانى للصين، وتكونت جمعيات الصين الإسلامية لإنقاذ الوطن، واتصلت هذه الجمعيات بالمسلمين فى خارج البلاد طلبا للدعم والمساندة.

ومع بداية الحكم الشيوعى ـ منذ نصف قرن ـ تعرض المسلمون من جديد لموجات ساخنة من الاضطهاد بسبب موقف الشيوعية المناهض للدين، واستمر الحال على هذا النحو حتى أواخر التسعينيات حين بدأت الصين تنفتح على العالم، وحين بدا أن هناك معايير جديدة تحكم علاقات الصين الدولية، منها احترام الحريات العامة والخاصة بجميع أنواعها وألوانها .

وفى ظل هذه الأجواء بدأ المسلمون يستردون الشعور بالطمأنينة بدرجة كبيرة فى مجالات الدعوة والعمل والحياة. وعادت الجمعيات الإسلامية للازدهار مثل جمعية « التقدم الإسلامى» وجمعية «الأدب الإسلامى» و «الجمعية الاتحادية لعموم الصين». وتصدر هذه الجمعيات عدة مجلات لتوعية المسلمين الصينيين بأمور دينهم.

وكان أول مسجد بالصين قد تأسس عام ٧٤٢ ميلادية، وكان ذلك فى مدينة «جانج آن» عاصمة الصين حينئذ، ثم بنى مسجد آخر فى كانتون، ثم ثالث فى بكين، ويقدر عدد المساجد فى الصين اليوم بنحو ٢٣ ألف مسجد، منها أكثر من ٥٥ فى العاصمة بكين.

ومن المآثر التى تحكى عن المسلمين فى الصين قديما، أنه عندما كانت المجاعات تجتاح البلاد، كان الآباء يضطرون إلى بيع أبنائهم فى الأسواق، فيسارع المسلمون إلى شرائهم وتربيتهم تربية كريمة، وقد حدث هذا مرارا فى القرن الثامن عشر. وفى عام ١٩٠٠ عندما لقى المسيحيون اضطهادا كبيرا على أيدى حركة «البوكسرز» عمد كثير منهم إلى بيع أبنائهم، فلم يجدوا من يتقدم لشرائهم غير المسلمين لدوافع إنسانية محضة.

ولم يصل الإسلام إلى تايوان إلا فى العصر الحديث، عندما هاجر إليها قرابة ٢٠ ألف مسلم من الصين الشيوعية عام ١٩٤٩ وهو عام استيلاء الشيوعيين على السلطة فى بكين. ويبلغ عدد المسلمين فى تايوان حاليا أكثر من ٦٠ ألف نسمة. وقد تمتع مسلمو تايوان بوضع أفضل فى ممارسة شعائرهم بالمقارنة بالأقلية المسلمة فى الصين تحت الحكم الشيوعى، ولهم إسهاماتهم الطيبة فى مختلف شئون تايوان من خلال عضوية المجالس التشريعية ومجلس الوزراء والجيش.

وهناك أيضا أقلية مسلمة فى هونج كونج التى عادت إلى سيادة الصين عام١٩٩٧. وكان الإسلام قد وصل إلى هذه المنطقة مبكرا عبر البعثات الإسلامية إلى منطقة كانتون الصينية المجاورة لهونج كونج، وكان ذلك فى القرن الأول الهجرى. ثم تتابعت هجرة المسلمين إلى المنطقة من جزر الهند الشرقية، والملايو. وكان عدد كبير من المسلمين قد فروا من جنوب الصين إلى هونج كونج من شدة القمع فى السنوات الأولى من الحكم الشيوعى فى الصين. وهاجر إليها عدد من المسلمين وقت الثورة الثقافية فى الصين، التى كانت تفتش فى ضمائر الصينيين بحثا عما كانوا يسمونه، وقتها «الفكر الرجعى».

ويبلغ عدد مسلمي هونج كونج حوالى ٣٥ ألفا. ويوجد بها عدد من الجمعيات التى ترعى شئون المسلمين، بما فى ذلك إدارة المساجد والتعليم الدينى، وتتكتل هذه الجمعيات فى «اتحاد المنظمات الإسلامية». وهناك عدد من المدارس الابتدائية الإسلامية فى هونج كونج، وتوجد أيضا كلية هونج كونج الإسلامية، وهى فى مستوى المدارس الثانوية.

ولكن كم يبلغ عدد المسلمين فى الصين؟

يصل عدد المسلمين فى الصين إلى حوالى ٢٠ مليون نسمة أو أكثر قليلا، وهم موزعون بين عدة قوميات، تشمل «الهاو» وهى أكبر قومية إسلامية صينية. ويشير الباحثون إلى أن الهاو أو (الخوى) لا ينتمون إلى عرق آخر غير العرق الصينى (الهان)، ولكنهم قاوموا بشدة محاولات إزالة هويتهم الإسلامية، وهى المحاولات التى قامت بها السلطة الصينية فى فترات متباعدة، وتمسكوا بدينهم وخصائصهم الحضارية.

وقد تطرف البعض من مسلمى «الخوى» فى مواقفهم من الصينيين، فكانوا يعملون بقدر الإمكان على إثبات شخصية مختلفة عن «الهان» فى المأكل والملبس والمسكن، وكانوا يميلون إلى الانعزال عنهم من خلال حدود فاصلة بينهم وبين الهان، فلا يأكلون طعامهم، ولا يسمحون لمن يأكل لحم الخنزير بأن يقترب من طعامهم. ويزيد عدد المسلمين الخوى على ٨ ملايين نسمة.

وتمثل قومية الخوى، ما يمكن تسميته «المسلمون الصينيون»، تمييزا لهم عن الأقليات القومية المسلمة الأخرى التى مازالت الغالبية منها تقطن أوطانها الأصلية، وهى الأوطان التى تم ضمها إلى الصين بطريقة أو بأخرى. ومن بين هذه القوميات «اليوجور»، وهم مسلمو تركستان الشرقية التى تعرف اليوم بـ «سنكيانج»، وتعنى باللغة الصينية «الأرض الجديدة». وقد جاء اليوجور الذين يزيد عددهم اليوم على ٧ ملايين نسمة من منغوليا إلى هذه المنطقة عام ٨٤٠ ميلادية. وهم يتحدثون اللغة اليوجورية، وهى متفرعة عن اللغة التركية القديمة، ويستخدمون الحروف العربية فى الكتابة، وهى

الحروف ذاتها التى كانت تكتب بها اللغة التركية قبل ثلاثة أرباع القرن، حين استخدم كمال أتاتورك الحروف اللاتينية فى كتابة اللغة التركية وهو يتجه إلى العلمانية على الطريقة الغربية.

وهناك أيضا القومية «القازاقية»، ويقيم أغلبهم فى سنكيانج وشنغهاى، ولغتهم أيضا متفرعة عن اللغة التركية، ويستخدمون الحروف العربية فى الكتابة. وهناك قومية الدونج يانج، وهم شعب منغولى يتحدث اللغة المنغولية، ويتمتع بالحكم الذاتى، ويسكن بعضهم فى سنكيانج. وبينما يزيد عدد القازاق على المليون نسمة فإن عدد قومية الدونج يانج لا يزيد على ٤٠٠ ألف نسمة.

وهناك أيضا القومية القرغيزية وهم بضع مئات من الألوف من أصول تركية أيضا، ويتمتعون بالحكم الذاتى فى مقاطعة سنكيانج. وكانت قبائل القرغيز قد سكنت منطقة الحدود مع تركستان فى آسيا الوسطى فى المناطق التى تعرف اليوم باسم جمهورية قرغيزيا.

ويضاف إلى هذه القوميات:

- **السالار** : وعددهم حوالى مائة ألف نسمة، وينحدرون من أصول تركية، ويقيم أغلبهم فى مقاطعة «شى هو» ذات الحكم الذاتى.
- **الأوزبك** : وعددهم حوالى مائة ألف نسمة، وهم أيضا من أصول تركية، ويعيش معظمهم فى مقاطعة سنكيانج.
- **الطاجيك** : وعددهم حوالى ٣٠ ألف نسمة، وهم من أصول فارسية، ويوجد معظمهم فى مقاطعة سنكيانج، ويستخدمون لغتهم الأصلية (الفارسية).
- **الباوان** : وعددهم حوالى ٤٠ ألف نسمة، وينحدرون من أصول مغولية، ويتركز معظمهم فى مقاطعة «لين شيا».
- **التتار** : وعددهم حوالى ٥ آلاف نسمة، ويتركزون فى سنكيانج.

المسلمون يقاومون الانصهار

إذا كان (الخوى) المنحدرون من أصل عرقى صينى قد قاوموا الانصهار فى المجتمع الصينى، وهو ما أراده حكام الصين فى فترات مختلفة، فإن مقاومة القوميات الإسلامية الأخرى ـ وهى لا تنحدر من العرق الصينى ـ لمحو شخصيتها وتراثها الإسلامى، كانت أقوى وأعنف.

والحقيقة أنه من واقع محاورات عديدة أجريتها فى بكين مع شخصيات سياسية ودبلوماسية تتسم بالوعى والتقدير الصائب والعقلانى للأمور، فقد وصلت إلى نتيجة مهمة بخصوص الأقليات المسلمة، وهى أن أى محاولات انفصالية إسلامية تقع فى الصين بين وقت وآخر إنما ترجع أساسا إلى قدر كبير من القمع والكبت تتعرض له هذه الأقليات حين يتسم الحكام الصينيون بالدكتاتورية.

والوجه الآخر لهذه النتيجة هو : حين يكون الحكم الصينى متسامحا، ومتفهما، وموافقا على التمايز الدينى والثقافى للأقليات الإسلامية، فإنه لا تقع أحداث انفصالية، بل تضعف التيارات الداعية إلى الانفصال.

وبسبب تركز أكثر من نصف المسلمين بالصين فى مقاطعة «سنكيانج»، فقد كانت هذه المنطقة مكانا لمحاولات انفصال إسلامية. وفى عام ١٩٤٤ اندلعت ثورة فى سنكيانج أسفرت عن إقامة جمهورية مستقلة ضد حكم شيانج كاى شيك، ولكن هذه الجمهورية انضمت إلى الصين الشيوعية عام ١٩٥٠ بعد أن احتلها الجيش الصينى.

ووقعت أعمال عنف فى سنكيانج فى فبراير عام ١٩٩٧، وكانت آخر محاولة انفصال إسلامى فى الصين، وقد أدت هذه الأحداث إلى تركيز الأضواء على قضية المسلمين فى الصين للأسباب المهمة التالية:

- اشتركت فى الأحداث عدة فصائل منها حركة تركستان الشرقية الحرة، والجبهة الوطنية الثورية لطشقند، وكان معنى ذلك أن تيارات إسلامية عديدة اشتركت فيها.
- أن مقاطعة سنكيانج ذات موقع استراتيجى مهم لأنها تعتبر جسر اتصال بين آسيا والشرق الأوسط.

●● أن سنكيانج غنية بالثروات والموارد الطبيعية، مثل الفحم والحديد.

●● قلق الصين من قيام اتصال وتنسيق بين التنظيمات الإسلامية فى سنكيانج وجمهوريات آسيا الوسطى الإسلامية.

وكانت الحكومة المركزية الصينية قد عمدت فى فترات الصراع مع المسلمين فى «سنكيانج» إلى تغيير التركيبة السكانية للمنطقة من خلال توطين ملايين الصينيين فيها، وقد حدث هذا فى بداية الحكم الشيوعى عام ١٩٥٠. ولكن السلطة الصينية الحالية تبدو أكثر تفهما وتسامحا إزاء المسلمين الصينيين فى ظل الانفتاح الذى تعيشه البلاد. وتحاول الحكومة الصينية اتباع أساليب عديدة للتغلب على الاتجاهات الانفصالية الإسلامية فى الإقليم، ومنها تكثيف الجهود التنموية فى سنكيانج، وتوثيق العلاقات مع جمهوريات آسيا الوسطى الإسلامية، حتى لا تمد هذه الجمهوريات يد العون للحركة الإسلامية. وقد أكدت السلطة الصينية فى عصر الانفتاح احترامها للدين الاسلامى، فحينما أصدرت دار نشر فى شنغهاى فى عام ١٩٨٩ كتابا عنوانه «العادات الجنسية»، وتبين أن به إساءة إلى الإسلام، قامت السلطات بمصادرة الكتاب ومعاقبة مؤلفه وناشره. وكان قد تم كذلك استثناء المسلمين من قانون تحديد النسل الذى يفرض على كل أسرة ألا يزيد عدد أطفالها فى المدن على طفل واحد، وألا يزيد عدد أطفالها فى القرى على طفلين، أيا كان نوع المولود فى الحالتين.

وقد لمست أيضا فى بكين أن موقف السلطة الصينية تغير من الديانتين السماويتين الأخريين: المسيحية واليهودية. فالنظرة الإلحادية التى كانت تسود الدوائر السياسية والثقافية فى الصين، تحت الحكم الشيوعى المتشدد، لم تعد قائمة اليوم. بل إن القيادة الصينية فى وجود الانفتاح الذى مر عليه قرابة عشرين سنة تبدو أبعد نظرا، وأكثر تبصرا فى معالجة وضع شائك مثل علاقة الدولة بأهل الأديان السماوية، وذلك من خلال العمل على نشر التنمية فى مختلف المناطق بصورة تؤدى إلى إحساس الناس بالراحة، وتبادل الاحترام للشعائر والمقدسات الدينية.

ولم تعد القيادة الصينية ترى فى الدين أفيونا للشعوب، بل إنه من غير الممكن أن تقسو السلطة الصينية على العدد الأكبر من مسلمى الصين لأن الجميع من عرق واحد.

ومثل هذا الفكر من شأنه أن يحد كثيرا من قوة تماسك هذه الأقليات، وأن يضعف دورها السلبى على الساحة السياسية، وأن يقوى الدور الإيجابى المنتظر منها فى ظل مناخ الانفتاح الذى تعيشه الصين، فهذه الأقليات الدينية تعتبر عامل ارتباط بين الصين الجديدة والدول الأجنبية، كأن يقوم المسلمون الصينيون بدور مهم فى تقوية العلاقات بين الصين والدول العربية والإسلامية.

ونحن نعرف أن البوذية هى الديانة الرئيسية فى الصين، إذ يدين بها أكثر من ١٣٠ مليون نسمة. وبالإضافة إلى البوذية هناك عدة ديانات ومذاهب كبيرة مثل التاوية والكونفوشيوسية والإسلام والبروتستانتية والكاثوليكية.

والحقيقة أن الديانات السماوية الثلاث، الإسلام والمسيحية واليهودية، لم تواتها فرص اكتساب المزيد من الأتباع بسهولة، فى ضوء حالة العزلة التى فرضتها الصين على نفسها عبر القرون الطويلة، وكذلك فى ضوء سيطرة عقائد أخرى غير سماوية على الصين، وارتباط الثقافة الصينية بهذه العقائد. وكان خضوع الصين للحكم الشيوعى قد ترتب عليه كبت حرية التدين بصفة عامة. ولكن منذ إطلاق حرية العبادة فى عام ١٩٨٠ انتهى القمع والكبت، بل إن القيادة الصينية انتبهت ـ كما قلت ـ إلى أهمية التعامل مع الدين الذى ظل ورقة منسية فى حسابات السياسة الخارجية للدولة. فالصين تحاول اليوم أن تجعل مقاطعة سنكيانج الواقعة فى شمال غرب البلاد ـ وتقطنها أغلبية مسلمة ـ جسرا لمد أواصر التعاون مع جمهوريات آسيا الوسطى الإسلامية، ودول الشرق الأوسط ذات الأغلبية الإسلامية. وتراهن الصين أيضا على أقلياتها المسيحية لتدعيم التعاون مع الفاتيكان الذى كانت قد قطعت العلاقات معه عام ١٩٥٧.

وكانت المسيحية قد دخلت الصين منذ عهد طويل. وفى أوائل القرن التاسع عشر، استقرت شركات تجارية أوروبية فى بعض الموانىء الصينية، فكان ذلك بمثابة وضع

أفضل للمبشرين لممارسة نشاطهم. وكان قد جاء إلى كانتون مبشر بروتستانتى، اسمه روبرت موريسون، فى عام ١٨٠٧ ميلادية، وعمل بوظيفة مترجم فى شركة الهند الشرقية، وأقام فى هذه المدينة ٢٧ عاما متصلة ترجم خلالها عددا كبيرا من الكتب المسيحية إلى اللغة الصينية.

وقد عانى المسيحيون فى الصين، كما عانى المسلمون، من فترات اضطهاد طويلة، كان آخرها فى ظل الحكم الشيوعى الذى ظل يمارس سياسة قمع الحريات الدينية حتى أواخر السبعينيات. ومنذ بداية الثمانينيات، سمح للمسيحيين بإقامة شعائرهم. ومنذ عام ١٩٨٣ قام العديد من الكاثوليك فى كندا والهند وبعض دول العالم الثالث بزيارة الصين بدعوة من الرابطة الكاثوليكية الوطنية الصينية. وشاركت وفود كاثوليكية صينية فى اجتماعات المجالس الكنسية الدولية، وشارك نحو ٩٥٠ كاثوليكيا صينيا فى المجالس الشعبية والوطنية والمؤتمرات الاستشارية السياسية الصينية.

ولا ينسى المسيحيون الصينيون أنهم سمعوا فى أغسطس عام ١٩٨٣ أجراس الكنائس تدق لأول مرة بعد سنوات طويلة من الحظر الرسمى عليها، وظهرت فى الأسواق مئات الآلاف من نسخ الإنجيل. وفى ٢٤ ديسمبر عام ١٩٨٥ تم الاحتفال بفتح الكنيسة الكاثوليكية فى بكين للصلاة. وفى ٣٠ مارس عام ١٩٨٦ تم الاحتفال بعيد القيامة لأول مرة منذ عام ١٩٥٨.

وقد كان من نتائج هذه الأجواء الانفتاحية أن ارتفع عدد المسيحيين فى الصين، إذ تشير الإحصاءات إلى أن بالصين نحو عشرة ملايين بروتستانتى، وقد كان عددهم عام ١٩٤٩ حوالى ٧٠٠ ألف نسمة فقط. أما عدد الكاثوليك فيبلغ نحو أربعة ملايين شخص، وتعتبر شنغهاى منطقة تركز كاثوليكى وبها أكثر من عشرين كاتدرائية.

ولا تجد حكومة الصين صعوبة فى التعامل مع الأقليات المسيحية لأنها ليس لديها نوايا انفصالية، كما أن الصين حريصة حاليا على استخدام هذه الأقليات لمد أواصر التعاون مع الغرب المسيحى. ويضاف إلى ذلك أن الصين تحرص الآن على ألا تبدو فى صور المنتهك لحقوق الإنسان من الناحية الدينية على الأقل.

وبنهاية عصر الاضطهاد الدينى عاد الاهتمام بفنون العمارة الإسلامية التى يعد المسجد أبرز علاماتها.

وقد بنيت المساجد فى الصين مع دخول الإسلام إليها فى القرن السابع. ثم تتابع بناء المساجد أينما وجد المسلمون. وتشير الإحصاءات إلى أن الـ ٢٣ ألف مسجد فى الصين حاليا، بعضها قديم جدا والبعض الآخر حديث. وهناك بعض المساجد يتسم بالضخامة ويتسع لآلاف المصلين، والبعض الآخر صغير يستوعب فحسب عشرات المصلين.

وتنقسم المساجد جميعها من ناحية النمط المعمارى إلى ثلاثة أنواع تبعا للتقاليد الثقافية لكل منطقة.

- ويتخذ **النوع الأول** من المساجد العمارة الصينية التقليدية نمطا للبناء، وفيه تلحق بجانبى المصلى الشمالى والجنوبى عدة مبان يتخذ منها الأئمة عادة قاعات للدروس الدينية وسكنا لهم، ويوجد صف من الأروقة تعتبر استراحة للأئمة وعامة المسلمين، وذلك بالإضافة إلى غرف الغسل والميضأة والمطبخ. ويزخر المصلى بأعمدة منقوشة وعوارض مزخرفة مزدانة بآيات من القرآن الكريم بخط مذهب، ويتصدره محراب بديع فى الجمال والفن. كما تقام المآذن عادة على شكل جوسق مربع.

- ويتسم **النوع الثانى** بالطراز المعمارى العربى الذى صاحب دخول الإسلام فى بعض المدن الساحلية فى جنوب شرق الصين، مثل مسجد هوايشنج بكوانجتشو ذى المئذنة العربية، على الرغم من أن معظم مبانيه الحالية شيد فى عهد أسرة تشينج على نمط المعمار الصينى التقليدى. ويقال إن لتلك المئذنة أثرها فى تطور الفن المعمارى البوذى الصينى، وربما تم بناؤه بأيدى الفنيين العرب فى عهد أسرة تانج. وهناك مسجد الصحابة فى تشيوانتشو الذى شيد جميعه من أحجار الجرانيت المحلية على الطراز العربى فى القرن الحادى عشر تقريبا، وتجدر الإشارة هنا إلى أنه اكتشف فى تشيوانتشو عدد كبير من الشواهد الحجرية مدون عليها بعض العبارات العربية.

- أما **النوع الثالث** منها فقد بنى على نمط المعمار الخاص بآسيا الوسطى، بضخامته وفخامته واختلافه البيّن عما فى المناطق الصينية الداخلية من ناحية أشكال النوافذ والزخارف، مثل مسجد سوكونجتا فى توربان، الذى بنى عام ١٧٦٠ ميلادية، ومسجد عيدكاه فى كشجر، وغيرهما من المساجد المنتشرة فى منطقة سنكيانج، التى تحمل صبغة المبانى الإسلامية فى إيران والعراق ومصر والاتحاد السوفيتى.

وللمساجد الصينية مكانة بارزة فى تاريخ المعمار الصينى بما أضفته على الفن المعمارى الصينى التقليدى من أسلوب إنشاء المبانى وزخرفتها، ولها أيضا دورها فى نشر الإسلام، وتعزيز الوحدة بين المسلمين الصينيين بقومياتهم المختلفة، وكذلك نشر الثقافة الإسلامية.

حركة ثقافية جديدة للمسلمين

بدأت حركة الثقافة الجديدة للمسلمين الصينيين فى العصر الحديث منذ أوائل القرن العشرين، بالدعوة إلى إصلاح الشئون الدينية بالصين، وتطوير التعليم، فقد أقام تونج تسونج مدرسة مويوان بمدينة سنكيانج، ودعا إلى تأسيس الجمعية العامة للتعليم الإسلامى بشرق آسيا. وفى بكين أقام آن مينج مدرسة وانبينج الابتدائية، وأقام الإمام وانج كوان مدرسة المعلمين العربية فى بكين عام ١٩٠٧، وأقام «مالين لى» مدرسة كايجين الابتدائية الإسلامية فى شاو يانج، كما أصدر بعض شباب قومية خوى المسلمة صحيفة «الوطنية الحقيقية» فى بكين، واستمرت هذه الحركة الثقافية الإسلامية لمدة نصف قرن.

وفى عام ١٩١١ أنشئت جمعية التنمية الإسلامية الصينية فى بكين، وأصبح لها فروع فى مختلف المدن والمقاطعات. وكان الهدف من إنشاء هذه الجمعية هو الحفاظ على وحدة أبناء قومية خوى، ونشر العقيدة الإسلامية. وفى عام ١٩١٧ تأسست جمعية دعم التعليم الإسلامى بمدينة تشنجدا بمقاطعة هونان. أما فى عام ١٩٢٥ فقد تأسست

الجمعية الإسلامية الصينية بمدينة شنغهاى. وفى شنغهاى أيضا تأسست جمعية الاتحاد الصينى للثقافة الإسلامية فى عام ١٩٣٤، ثم توالى تأسيس الجمعيات الإسلامية فى مختلف أنحاء الصين.

وقد تم تدريس اللغة الصينية واللغة العربية فى هذه المدارس لإعداد أئمة ومدرسين يتقنون العلوم الإسلامية كما فى مدرسة بيجينج (الاسم القديم لمدينة بكين) الإسلامية، ومدرسة المعلمين الإسلامية بتشنجدا عام ١٩٢٥، والمدرسة الإسلامية العربية للمعلمين بشنغهاى عام ١٩٢٨. وفى عام ١٩٢٨ أيضا أنشئت المدرسة الإسلامية للمعلمين بمحافظة وانشيان بسيتشوان، وغيرها من المدارس.

واستقبلت جامعة الأزهر الطلاب الوافدين الصينيين فى الفترة من عام ١٩٣٠ إلى ١٩٤٥ على ست دفعات، وكان مجموعهم ٤٠ طالبا مسلما للدراسة. وكان رئيس البعثة بانج شى تشيان، والمشرف على الطلاب هو شاكوه تشن. ومن بين هؤلاء الطلاب محمد مكين، وعبد الرحمن ناتشونج، ولين تشونج مينج، وتشانج يوتشنج، وإسماعيل ماجين بنج، وتشنج بينج دوه، وناشيون ولين شينج هوا، ودنج تشونج مينج الذين أصبح لهم شأن كبير ودور مهم فى نشر الدين الإسلامى بين الصينيين، والقيام بترجمة العديد من الكتب الإسلامية إلى اللغة الصينية، وذلك بعد عودتهم لبلادهم من مصر. وعلى سبيل المثال، قام محمد مكين بترجمة معانى القرآن الكريم كاملة إلى اللغة الصينية.

كما ظهر العديد من الصحف والمجلات الإسلامية مثل صحيفة الإسلام الشهرية، وصحيفة يويهوا، وصحيفة شينجهوى، ومجلة الإسلام، ومجلة الفجر، ومجلة الإسلام الصينى، ومجلة شباب قومية خوى.

وبعد حرب الأفيون عام ١٨٤٠ تحول المجتمع الصينى إلى مجتمع شبه مستعمر وشبه إقطاعى، فدخلت الصين فترة انقلاب وإصلاح، وحدثت فى هذه الفترة انتفاضة أبناء قومية خوى التى باءت بالفشل، وتعرض بعدها المسلمون الصينيون للاضطهاد، وأصبح تحقيق نهوض الأمة الصينية والاستقلال الوطنى بعد ذلك مهمة مصيرية تواجه أبناء الشعب الصينى بقومياته المختلفة.

وقد كانت قومية خوى المسلمة من أكثر القوميات حماسة، وقد نوه صن يات سن رائد الثورة الديمقراطية الصينية عن ذلك قائلا: إن قومية خوى هى أكثر القوميات الصينية معاناة من الاضطهاد والآلام، لذلك فهى أكثر القوميات ثورية. وقد شجع هذا أبناء قومية خوى المسلمين، واتخذوا من إنقاذ الوطن هدفهم الأول، وربطوا حركة الثقافة الجديدة للمسلمين. ونهوض الأمة الصينية، ونهوض قومية خوى والقوميات المسلمة الأخرى ربطا وثيقا. وخاض التقدميون المسلمون نضالا عظيما فى سبيل إنقاذ الوطن، والنهوض الوطنى، ونشر حقيقة الإسلام، وجعلوا نهوض الثقافة الإسلامية ونشرها فى الصين جزءا من نهوض الأمة الإسلامية.

هذه الحركة الثقافية جعلت الإسلام الذى كان فى حالة مشرفة على الانقراض فى الصين ينبعث من جديد، كما ساعد إتقان المسلمين الصينيين اللغة العربية فى نشر الإسلام بصورة أعمق وأوسع، وجعل البحوث حول الثقافة الإسلامية علما مستقلا دخل مجال البحوث الفلسفية فى الصين.

الفصل التاسع

نحن والصين وتغيير قواعد اللعبة

فى الوقت الذى كان فيه الإنسان الأوروبى لايزال يعيش فوق الشجر، كان المصريون والصينيون قد قطعوا شوطا كبيرا فى مشوار الحضارة. ولو صدقنا علماء الاجتماع الكبار الذين يقولون إن الحضارة لغة لا يتكلمها إلا من يعرفها، فإنه تكون بين المصريين والصينيين لغة مشتركة تمتد مما قبل التاريخ وتصل إلى ما نحن فيه الآن.

وقد عانت الصين من الاستعمار كما عانت مصر، وجرى التحرر الوطنى فى كل من البلدين بثورة قلبت الموازين فى منطقتيهما. وإذا كانت الثورة المصرية نوعا من الثورة الوطنية فإن الثورة الصينية كانت ثورة شيوعية، وكانت مصر سبّاقة فى الاعتراف بالصين، ومد جمال عبدالناصر أول الجسور بين القاهرة وبكين التى كانت إحدى عواصم الدول التى انضمت إلى منظمة التضامن الآسيوى الإفريقى.

ولا جدال فى أن الصين كانت فى حاجة إلى مصر سياسيا فى الوقت الذى كانت الحرب الباردة فيه مشتعلة، وكانت الصين فيه أيضا هدفا لمؤامرات أمريكية شرسة فى منطقتها، وهى مؤامرات جعلتها منطقة ساخنة ملتهبة، ووصلت إلى ذروتها فى حرب فيتنام التى أدت إلى انسحاب الولايات المتحدة من جنوب شرقى آسيا وضعف نفوذها العسكرى والسياسى. وكسبت الصين - التى كانت تساند فيتنام من وراء الستار - الكثير من النفوذ والثقة بالنفس. ولا شك فى أن هذه المرحلة - التى كانت فيها مصر

تناصب واشنطن العداء - قد قربت بين مصر والصين بصورة واضحة، وفيما بعد ساندت مصر الصين فى أن تكون عضوا فى الأمم المتحدة.

والحقيقة أن العلاقات بين البلدين كانت تتأثر قربا وبعدا، صعودا وهبوطا بالمناخ السياسى العالمى. فعندما كانت علاقات الصين بالولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى متوترة كانت القاهرة، وهى عاصمة العالم الثالث وقتها، هى إحدى بوابات الصين للتفاهم مع العالم. وعندما تغيرت العلاقة بين القاهرة والولايات المتحدة بعد رحيل جمال عبدالناصر، وتحرير سيناء بالحرب والسلام تباعدت الصين قليلا، وإن كانت قد تقاربت مع الولايات المتحدة فيما عرف «بدبلوماسية البنج بونج» التى تبناها وزير الخارجية الأمريكية الأسبق هنرى كيسنجر، وكانت الصين أيضا قد انشغلت بأمور الداخل فيما عرف بمرحلة عدم الاستقرار التى جاءت بعد وفاة ماو تسى تونج، وهى مرحلة انتهت فى عصر دنج شياو بنج.

وفى بداية عصر الاستقرار الأخير فى الصين، بدا أنها ستلعب دورا كبيرا فى السياسة الدولية فى المستقبل، وبدا أن هذا الدور سيتزايد إلى حد ترشيح الصين لأن تصبح - خلال الربع الأول من القرن الحادى والعشرين - قوة عظمى إلى جانب الولايات المتحدة وفرنسا وبريطانيا وروسيا وألمانيا واليابان..

ويثور سؤال هو: ماذا أعددنا لهذا التطور؟

منذ المراحل الأولى لتبلور دور الصين فى النظام العالمى، كرست بكين شقا رئيسيا فى سياستها الخارجية لمساندة دول العالم الثالث، والدفاع عن قضاياها. وبدا ذلك واضحا فى أعقاب حصول بكين على المقعد الدائم الذى كانت تشغله تايوان فى مجلس الأمن. وحظيت قضايا الشرق الأوسط، والصراع العربى - الإسرائيلى باهتمام خاص لدى القيادة الصينية. وكانت عضوية الصين الدائمة فى مجلس الأمن مصدرا للمساندة السياسية للدول العربية فى قضاياها المصيرية وخلافاتها مع البلدان الغربية، خصوصا بسبب إسرائيل.

وإذا كان واضحا أن التحولات التى أعقبت انتهاء الحرب الباردة أضعفت الروابط العربية - الصينية، خصوصا بسبب المصالح التى قامت بين الصين والولايات المتحدة - كما قلت - وكذلك المصالح التى نمت بين الصين والدول الغربية الأخرى، وبينها وبين إسرائيل، فإن الأمر يجب ألا نراه مقيدا للتأثير العربى على السياسة الصينية. فالعالم العربى يمثل مصلحة مهمة للصين باعتباره سوقا واسعة لتصريف المنتجات الصينية، وباعتباره مصدرا لرأس المال إلى الصين ومستقبلا لرأس المال الصينى، وكذلك باعتبار العالم العربى مصدر الطاقة الرئيسى لمدة نصف قرن مقبل أو يزيد للعالم. وهذه المصالح - إلى جانب الموقع الاستراتيجى للعالم العربى - تمثل أسسا قوية لعلاقات إيجابية مع الصين، خصوصا إذا درس العرب علاقاتهم مع القوى الكبرى الأخرى واستفادوا من تجاربها وخلاصاتها.

وفى كل الأحوال تدرك الصين أهمية مصالحها الحالية والمستقبلية فى العالم العربى، خصوصا مع مصر ودول الخليج. ولاتزال بكين تؤكد إلى اليوم - انطلاقا من رؤيتها التى تتبلور للعالم الجديد - أن الشعب الفلسطينى لابد أن ينال حقوقه المشروعة فى التسوية السلمية الجارية بين العرب وإسرائيل، على الرغم من أن هذه التسوية خرجت عن نطاق الأمم المتحدة، وصارت فى شكل مفاوضات مباشرة بين العرب وإسرائيل.

إسرائيل لم تعد امتدادا للإمبريالية

لم تعد الصين ترى أن إسرائيل امتداد للإمبريالية الجديدة، كما كانت تقول الأدبيات الصينية فى أوائل النصف الثانى من القرن العشرين. وأصبح من أهداف الصين أن يعم السلام فى الشرق الأوسط بين العرب وإسرائيل، لأنه منطقة حيوية لسلام واستقرار العالم كله.

أما إذا تطور دور الصين العالمى فى المستقبل فسوف يعود التوازن المفقود بغياب الاتحاد السوفيتى، ولكن ذلك لا يعنى أن المنطقة يجب أن تدخل فى نطاق حرب باردة

جديدة بين الشرق، المتمثل هذه المرة فى الصين، والغرب بقيادة الولايات المتحدة. فلقد بات على العرب، الذين يمكن أن يكونوا كتلة سياسية واقتصادية كبيرة فى العالم، أن يعوا مصالحهم ويعملوا بأنفسهم على تحقيقها، لا أن يلقوا بأنفسهم فى دوامات هذا التيار أو ذاك.

ومنذ وقت مبكر كان إدراك الدبلوماسية المصرية لأهمية الصين على المسرح العالمى كبيرا. وتجلى هذا الإدراك بوضوح شديد فى العلاقات المصرية ـ الصينية المتميزة أيام الرئيس جمال عبدالناصر، واستمر الأمر كما هو أيام الرئيس أنور السادات على الرغم من اتجاه مصر غربيا بعد حرب أكتوبر المجيدة.

وكان إدراك الرئيس حسنى مبارك لأهمية الصين مبكرا جدا، فقد زار الصين عدة مرات وقت أن كان نائبا لرئيس الجمهورية، وتبادل الزيارات مع القادة الصينيين بعد أن صار رئيسا لمصر.

وهنا تكمن أهمية الزيارة التى قام بها الرئيس الصينى جيانج تسه مين للقاهرة يوم ١٣ مايو عام ١٩٩٦، وهى الزيارة التى استغرقت أربعة أيام. وقد عكست هذه الزيارة وجود العديد من المصالح والروابط المصرية ـ الصينية، والعربية ـ الصينية، التى ينبغى تطويرها ودفعها إلى الأمام، خصوصا فى مجالات تبادل المصالح الاقتصادية بما فيها الاستثمارات المشتركة، وصولا إلى تفهم مشترك للقضايا الرئيسية على المسرحين الإقليمى والدولى.

فالصين تفرض نفسها على الجميع فى هذه اللحظات الفاصلة بين ألفية تنقضى وألفية تجىء محملة ببوادر دنيا متطورة إلى أبعد الحدود. وتقفز الصين إلى المقدمة كأحد أهم العوامل التى ستحدد شكل المستقبل، خصوصا أن بوادر نهضة شاملة تحلق فى سمائها طوال العشرين سنة الماضية. وتذهب بعض التصورات والسيناريوهات إلى أن التطور الشامل الذى يحدث فى الصين يؤكد أن القرن المقبل قرن صينى، وأن الصين ستصبح القوة العظمى الأولى فى العالم اقتصاديا وعسكريا بعد ثلاثين أو أربعين سنة على الأكثر، إذا استمرت نهضتها بهذه المعدلات السريعة التى لم يعرفها التاريخ من قبل.

وفى وقت قريب كان ما يحدث فى الصين يثير دهشة العالم وانبهاره، فدخول الصين الجديدة إلى الساحة الدولية أصبح أمرا واقعا، واحتلالها مكانا بارزا على المسرح الدولى إلى جانب الولايات المتحدة التى تسيطر على اقتصاد العالم منذ أكثر من قرن أصبح أمرا مرجحا.

فالصين تمتلك مختلف مقومات القوة العظمى: نهضة اقتصادية جبارة، وثورة صناعية حقيقية، وقوة عسكرية ونووية متنامية، ومساحة من الأرض وعدد من البشر يزيد على مساحة وعدد سكان أوروبا كلها. والصين واحدة من أقدم حضارات العالم. بل إنها قد عرفت ازدهارا وتقدما فى جميع فروع العلم والمعرفة والفلسفة والأدب والفنون فى الوقت الذى كان فيه الغرب غارقا فى تخلفه.

الصين هذه لا يمكن أن نقلل من شأنها أو ننسى بوادر مستقبلها، بل إننا يجب أن ندرس بعمق الدور الصينى المرتقب قبل أن يسبقنا الآخرون إلى جنى المكاسب والثمار.

ومن عوامل الارتباط بين مصر والصين أن كلا من البلدين يمثل حضارة قديمة متطورة، بل إن الحضارتين القديمتين فى البلدين هما أقدم حضارتين عرفتهما الإنسانية. وكانت الحضارة المصرية هى الأسبق طبعا، ثم تلتها حضارة الصين وحضارة بين النهرين «العراق حاليا» فى وقت واحد تقريبا.

ومن المعالم الباقية من الحضارة الصينية القديمة، وهى قريبة الشبه بآثار مصر القديمة، مقبرة الإمبراطور تشين شى هوانج. وفى عام ١٩٨٧ أدرجت منظمة اليونسكو هذه المقبرة، وتماثيل الجنود والخيول والعربات الحربية التى تحت الأرض ناحية الشرق منها، ضمن قائمة التراث التاريخى والثقافى العالمى، وبذلك أصبحت هذه الآثار ثروة ثقافية نفيسة لشعوب العالم أجمع.

وكانت هذه التماثيل التى توصف بأنها «عجيبة الدنيا الثامنة» فى ثلاثة سراديب هى السرداب الأول والثانى والثالث. وقد عثر على السرداب الأول فلاح من قرية شييانج فى مارس عام ١٩٧٤ عندما كان يحفر بئرا شرقى المقبرة. وبعد ذلك كشف فريق الآثار بمقاطعة شنشى السردابين الثانى والثالث فى عام ١٩٧٦، كما وجد بين هذين السردابين حفرة لم يكتمل بناؤها وليس بها شىء سوى الرمال.

ويرى الأثريون بعد الدراسة أنه إذا كان السرداب الأول ميمنة الجيش، والسرداب الثانى ميسرته، والسرداب الثالث هو مقر قيادته فإن الحفرة التى لم يكتمل بناؤها هى المقر الأوسط للجيش. وقد يرجع عدم اكتمال بنائها إلى اقتراب جيش انتفاضة الفلاحين حينذاك منها، مما أدى إلى توقف العمل فيها.

وتماثيل الجنود والخيول للإمبراطور تشين شى هوانج مرتبة فى السراديب الثلاثة بمختلف التشكيلات القتالية. ففى السرداب الأول يبدو التشكيل مستطيلا، وعناصر الجيش الأساسية هى المشاة والفرسان، أما فى السرداب الثانى فالتشكيل معقد، إذ يبدو مثل شكل مضلع يضم وحدة قتالية بعيدة المدى مكونة من الرماة الواقفين والراكعين، ووحدة متقدمة من العربات الحربية، ووحدة هجومية مكونة من الفرسان والمركبات الحربية، ووحدة مختلطة من العربات والفرسان والمشاة، أما ترتيب الجنود فى السرداب الثالث فيبدو مثل موكب حرس الشرف من المشاة والفرسان. وتوجد فى السرداب الثانى ١٣٠٠ قطعة من التماثيل الفخارية للجنود والخيول و ٨٠ عربة حربية خشبية، تشكل جيشا متعدد القوات والأسلحة فى التشكيل القتالى لأربع مجموعات مستقلة عن بعضها البعض، هى وحدة الفرسان والعربات الحربية، ووحدة المركبات الحربية، ووحدة الرماة، والوحدة المختلطة من العربات والفرسان والمشاة، وكل وحدة فى تشكيل مربع، ولكن هذه المجموعات الأربع متصلة ببعضها البعض فى صورة التشكيل القتالى ذى الشكل المضلع. وفى السرداب الثانى «ماكيت» لدراسة التشكيلات القتالية القديمة بالصين، وهو أول اكتشاف من نوعه فى تاريخ الآثار بالصين.

ومن أجل القيام بأعمال التنقيب عن الآثار المدفونة فى آن واحد، شارك بعض المتخصصين فى حماية الآثار فى كل عمليات الحفر لقياس درجة الحرارة والرطوبة فى السرداب الثانى كل يوم، والقيام بمراقبة وتسجيل حالة الآثار المكتشفة من ناحية تأثرها بالرطوبة والحرارة.

وقد اختلفت أعمال التنقيب عن تماثيل الجنود والخيول والعربات الحربية المدفونة فى السراديب الثلاثة لمقبرة الإمبراطور تشين هوانج كل الاختلاف عن الطريقة العادية للتنقيب عن الآثار المدفونة تحت الأرض، إذ بنيت أولا قاعة واقية فوق السراديب الثلاثة

قبل بداية أعمال الحفر الفعلى، ثم أجريت أعمال الحفر والترميم. وتقع هذه القاعة على الجانب الشرقى لمتحف تماثيل الجنود والخيول للإمبراطور تشين شى هوانج، وهى مبنية من الأحجار الطبيعية، ويساوى إجمالى مساحتها الإنشائية أكثر من ثلاثة آلاف متر مربع، وشكلها الخارجى على طراز القلعة المستطيلة الشكل، وعلى جدرانها الشرقية والغربية عشرات المنحوتات الرخامية لرؤوس الجنود بمظاهر مختلفة، وهى مأخوذة من تماثيل الجنود الفخارية فى السرداب الثانى، وكل هذا يجعل القاعة تجسد الطابع الصينى المميز وخصائص أسرة تشين.

وفى داخل القاعة بنى ممر للزيارة من طابقين محيط بحافة السرداب الثانى، ويبلغ طول الممر ألف متر، ويمكن للزائر مشاهدة الملامح الكاملة للسرداب الثانى ومكتشفاته فى مواقعها الأصلية، وهو يقف فى هذا الممر.

وتصميم البناء الداخلى متقدم، فلا يوجد فى القاعة الواسعة أى عمود، أما المنشآت الإضافية مثل الإضاءة والتهوية، وتوزيع الضوء والصوت، والوقاية من الرطوبة والماء، وغرفة التحكم فكلها على مستوى تكنولوجى عال. وهذا لا يفيد فقط فى حماية الآثار، بل يلبى أيضا متطلبات دراسة الآثار والاستمتاع بمشاهدتها.

ملحق

الصين : حقائق وصور

كثير من الناس فى شرق العالم وغربه لديهم - كما قلت من قبل فى هذا الكتاب - اهتمام كبير بالصين، خصوصا أولئك الذين عيونهم على المستقبل، كالسياسيين والباحثين والمعلقين والصحفيين والكتاب. ولذلك تعد المعلومات عن الصين ذات أهمية لعدد كبير من الناس فى مختلف مجالات التخصص والاهتمام.

ولا غرابة إذن فى أن أجعل أحد فصول هذا الكتاب، قرب الختام، خاصا بالمعلومات عن هذا البلد الذى أنتظر أن يكون تأثيره كبيرا فى الساحة العالمية، من الآن، وإلى ظهور شمس القرن الحادى والعشرين.

□ أولا - الموقع والمساحة

تترامى جمهورية الصين الشعبية فى مساحة شاسعة على الساحل الغربى من المحيط الهادى فى نصف الكرة الأرضية الشرقى. وتشغل بالتالى موقعا جغرافيا مهما فى قارة آسيا تتنوع فيه الطبيعة وتتباين.

وتبلغ مساحة الصين ٩ ملايين و ٥٩٦ ألفا و ٩٦٠ كيلو مترا مربعا، وتحتل بذلك المرتبة الثالثة فى العالم من حيث مساحة الأرض بعد روسيا وكندا. وتشغل مساحتها ما يقرب من ٦,٤٪ من مساحة اليابسة فى العالم.

وتبدأ حدود الصين ـ فى أقصى الشمال ـ من الخط المركزى لنهر هيلونج شمال نهر موخه (خط عرض ٣٠ ٥٣ شمالا). أما حدودها فى أقصى الجنوب فهى مصيد تسمنجمو البحرى من طرف جزر نانشا الجنوبى (خط عرض ٤ شمالا). وتبلغ المسافة بينهما ٥٥٠٠ كيلو متر. وأقصى نقطة لحدود الصين فى الشرق هى ملتقى نهر هيلونج ونهر وو سو لى (خط طول ٠٥ ١٣٥ تقريبا شرقا). وأقصاها فى الغرب هى هضبة البامير فى منطقة شنج يانج (خط طول ٤٠ ٧٣ شرقا) والمسافة بينهما ٥٢٠٠ كيلو متر.

وتمتد حدود الصين البرية ٢٢ ألفا و ٨٠٠ كيلو متر تقريبا. وتتاخمها من الشرق جمهورية كوريا الديمقراطية الشعبية (الشمالية) بطول ١٤١٦ كيلو مترا. ومن الشمال منغوليا بطول ٤٦٧٣ كيلو مترا. ومن الشمال الشرقى روسيا بطول ٣٦٠٥ كيلو مترات. ومن الشمال الغربى: قازاقستان، وقرغيزيا، وطاجيكستان. ومن الغرب والجنوب الغربى: أفغانستان، وباكستان، والهند، ونيبال، وبوتان. ومن الجنوب: ميانمار ولاوس وفيتنام. وتواجه الصين عبر البحار: جمهورية كوريا (الجنوبية) واليابان، والفلبين، وبروناى، وماليزيا، وإندونيسيا من ناحيتى الشرق وجنوب الشرق.

وتلك الحدود المترامية للصين لا تخلو من نزاعات عليها من الجيران، فهناك قضايا حدودية مازالت معلقة ومحل تفاوض بين الصين من جانب وكل من الهند، وروسيا، وكوريا. ومازال النزاع قائما على أحقية كل من ماليزيا والفلبين وتايلاند وفيتنام والصين فى جزر سبراتلى التى ادعت تايوان أيضا ملكيتها. ومازالت فيتنام تطالب بجزيرة باراسيل التى تسيطر عليها الصين.

ويربط الأراضى الصينية بحر بوهاى، والبحر الأصفر، وبحر الصين الشرقى، وبحر الصين الجنوبى فى الشرق والجنوب. وبحر بوهاى هو بحر داخلى فى الصين، بينما البحار الثلاثة الأخرى تمتد على أطراف المحيط الهادى. وتبدأ سواحل الصين الطويلة شمالا من مصب نهر «بالو» على الحدود الصينية ـ الكورية إلى مصب نهر «بيلون» على الحدود الصينية ـ الفيتنامية جنوبا. ويزيد طول هذه السواحل على ١٨ ألف كيلومتر. وعرض المياه الإقليمية ١٢ ميلا بحريا ابتداء من خط الصفر لمياهها الداخلية، فهى بذلك تشكل منطقة بحرية ترتبط بالبر وبمياه الصين الداخلية.

وتشغل الجزر الصينية مساحة واسعة يبلغ إجماليها أكثر من ٨٠ ألف كيلو متر مربع، إذا أضفنا إليها مساحة تايوان التى تبلغ مساحتها وحدها ٣٦ ألف كيلو متر مربع، وجزيرة هاينان ومساحتها حوالى ٣٤ ألف كيلو متر مربع.

ويبلغ عدد الجزر الصينية أكثر من ٥٠٠٠ جزيرة تتناثر فى مساحتها البحرية الواسعة، وأهمها ما يقع منها فى أقصى جنوب الصين، فى بحر الصين الجنوبى، والمعروفة بجزر دنفشا، وجزر شيشا، وجزر تشونفشا، وجزر نانشا.

□ ثانيا - الأنهار والبحيرات

الصين من البلاد التى تتمتع بثروات مائية هائلة تستغلها كمورد أساسى للطاقة. وتأتى الصين فى المرتبة الأولى فى العالم فى هذا المجال، إذ تصل الطاقة المائية الكامنة فى أنهارها إلى ٦٨٠ مليون كيلووات، ويصل مقدار مياهها إلى ٢٧٠٠ مليار متر مكعب، وهو ما يشكل ٥,٨٪ من مجمل المياه العذبة فى العالم.

وتخترق أراضى الصين الشاسعة أنهار وبحيرات عديدة، وتصل المساحة التى تشغلها هذه المياه إلى ١٦,٦٤ مليون هكتار مربع، منها ٥,٠٣ مليون هكتار صالحة لتربية الأسماك والنباتات المائية.

أما طول الأنهار فيبلغ إجماليه أكثر من ٢٢٠ ألف كيلومتر، ومنها أكثر من ١٥٠٠ نهر تزيد مساحة حوض كل منها على ١٠٠٠ كيلومتر مربع.

وكما هو معروف فإن نشأة الحضارة غالبا ما ترتبط بالأنهار، وقد ازدهرت حضارات عديدة على ضفاف أنهار الصين. ويمكن تقسيم هذه الأنهار إلى أنهار تجرى وتصب فى بحيرات داخلية، وأنهار تضمحل حتى تنتهى فى الصحراء والأراضى الملحية غير المستصلحة. وتحتل مساحة أحواض هذه الأنهار ٣٦٪ من مساحة الأرض اليابسة فى الصين، وأهمها نهر تاريم بجنوب سنكيانج، وهو أطول نهر داخلى فى الصين، إذ يبلغ طوله ٢١٧٩ كيلومترا.

وهناك أنهار تجرى فى أرض الصين، ولكنها تصب فى المحيطات مثل المحيط الهادى، والمحيط الهندى، والمحيط المتجمد الشمالى. فأنهار يانجتسى والنهر الأصفر، ونهر هيلونج، ونهر اللؤلؤ، ونهر لياوخه، ونهر هانجه، ونهر هوانجه، ونهر لانتسانج، وأنهار أخرى أقل أهمية، تجرى باتجاه الشرق، وتنتهى عند مصباتها فى المحيط الهادى.

أما نهر نوج يانج، ونهر يالو تشا نجيو، اللذان ينحدران من هضبة التبت فيصبان فى المحيط الهندى جنوبا، بينما يصب نهر أرتيش فى شينج يانج فى المحيط المتجمد الشمالى شمالا.

ونهر يانجتسى هو أطول أنهار الصين، وثالث أطول أنهار العالم بعد نهر النيل ونهر الميسيسيبى، ويعد شريانا حيويا للنقل المائى يربط شرق البلاد بغربها. كما أن اعتدال الحرارة وكثافة سقوط الأمطار يجعلان حوض النهر أحد المناطق الزراعية المهمة فى الصين. ويأتى نهر اللؤلؤ بعد نهر يانجتسى من حيث وفرة المياه، ويجرى نهر اللؤلؤ مسافات بعيدة بعد أن تلتقى روافده الثلاثة فى جنوب الصين: نهر سنكيانج، ونهر بنج يانج، ونهر دونج يانج. وفى دلتا نهر اللؤلؤ تكثر الجداول، وتمتد مساحات كبيرة من الأراضى الزراعية فيما يعتبر منطقة مهمة لمحاصيل الأرز والسكر وتربية الأسماك ودود الحرير.

أما فى الشمال فيجرى نهر هيلونج الذى يعد أيضا من الأنهار الطويلة فى الصين. وقد ارتبطت الحضارة الصينية القديمة فى بداية نشأة الأمة الصينية بالنهر الأصفر الذى يعتبر ثانى أطول أنهار الصين، وحوض هذا النهر هو الأكثر خصوبة. ويعد حوض النهر الأصفر من أكثر مناطق الصين الزراعية شهرة، فالأراضى خصبة وموارد المياه الجوفية وفيرة.

وإلى جانب الأنهار هناك العديد من القنوات مثل قناة بكين - هانجتشو العظمى التى بدأ شقها فى القرن الخامس قبل الميلاد، ويبلغ طولها ١٨٠١ كيلومتر، فتكون بذلك

أطول قناة فى العالم. وقناة هونان ـ جوانجشى التى تربط بين مياه نهر يانجتسى ومياه نهر اللؤلؤ.

وبحيرات الصين عديدة، ويزيد عددها على ٢٨٠٠ بحيرة تربو مساحة كل منها على الكيلو متر المربع، و ١٣ بحيرة تتجاوز مساحة كل منها ألف كيلو متر مربع، وهناك أيضا عشرات الآلاف من البحيرات الصناعية.

والبحيرات فى الصين نوعان: بحيرات متصلة بالأنهار الخارجية، وبحيرات متصلة بأحواض الأنهار الداخلية. ومعظم البحيرات المتصلة بأنهار عذبة مياهها صالحة للرى والملاحة وتربية الأسماك، وبعضها له شهرة كمراكز للاستجمام والسياحة. أما البحيرات الداخلية فمعظمها مالحة، ولا تصلح للرى والزراعة، ولكنها قد تكون غنية بمواردها من الخامات الكيميائية مثل الملح والقلويات.

□ ثالثا ـ التضاريس والجبال

تتميز تضاريس الصين بتنوعها وتباينها، ويبدو هذا التنوع فى ارتفاع أرضها غربا وانخفاضها شرقا. وتبدو للمشاهد لها من أعلى كدرجات السلم، أعلاها هضبة شنغهاى ـ التبت التى يبلغ متوسط ارتفاعها ٤٠٠٠ متر فوق سطح البحر، لذا يطلقون عليها «سقف العالم». أما قمة جولولانجما على الحدود الصينية ـ النيبالية فارتفاعها يبلغ ٨٨٤٨ مترا فوق سطح البحر، وهى أعلى قمة فى العالم كله.

وينتشر على هضبة شنغهاى ـ التبت الكثير من الجبال مثل جبال كونلون، وجبال كانجديس والهيمالايا. كما ينحدر أيضا العديد من الأنهار الجليدية.

وبعد أن نعبر سلسلتى جبال كونلون وتشى ليان الواقعتين على الحافة الشمالية لهضبة شنغهاى ـ التبت، وجبال هنجدوان الواقعة على حافة الهضبة الشرقية، ينحدر ارتفاع الأرض فجأة ما بين ١٠٠٠ و ٢٠٠٠ متر فوق سطح البحر، وهذا يمثل الدرجة

الثانية من ذلك السلم الجغرافى الطبيعى، حيث تقع هضبة منغوليا الداخلية وهضبة التراب الأصفر، وهضبة يونتان ـ كويتشو وأحواض تاريم وتشونكار وسيتشوان.

وإذا اخترقنا سلسلة الجبال على الحافة الشرقية للدرجة الثانية، ينخفض ارتفاع الأرض مرة أخرى إلى ما بين ٥٠٠ و ١٠٠٠ متر فوق سطح البحر لتبدو الدرجة الثالثة من السلم، حيث يمتد من الشمال إلى الجنوب سهل شمال الصين الشرقى، وسهل شمال الصين، والسهول على المجرى الأوسط والأسفل لنهر يانجتسى. وإلى الشرق من الدرجة الثالثة تمتد منطقة بحرية ضحلة المياه، حيث يقل عمق المياه فيها عن ٢٠٠ متر فتشكل الدرجة الرابعة من السلم.

وبالتالى فالهيكل الأساسى لتضاريس الصين تحدده جبالها التى تنقسم إلى خمسة أقسام رئيسية:

١ ـ **الجبال الشرقية ـ الغربية** : وتضم مجموعة جبال تيانشان، وينشان، ومجموعة جبال كونلون، وتشينينج، ودابين، وسلسلة جبال نانلينغ.

٢ ـ **الجبال الجنوبية ـ الشمالية** : وتضم جبال خلان، وليوبان، وجبال هنجدوان، وغيرها.

٣ ـ **الجبال الشمالية الشرقية ـ الجنوبية الغربية** : وأهمها جبال تشانج باى، وجبال شنجان الكبرى، وجبال تايهانج، وجبال ووشان.

٤ ـ **الجبال الشمالية الغربية ـ الجنوبية الشرقية** : وهى جبال آلتاى، وجبال تشى ليان وجبال كانجديس.

٥ ـ **الجبال القوسية** : أهمها جبال هيمالايا، وجبال تايوان.

□ رابعا ـ المناخ

يتنوع المناخ فى الصين بسبب المساحة الشاسعة التى تشغلها. فطبقا لدرجات الحرارة تنقسم الصين من الجنوب إلى الشمال إلى: المنطقة الاستوائية، والمنطقة

المدارية، والمنطقة شبه المدارية، والمنطقة المعتدلة الأكثر حرارة، والمنطقة المعتدلة تماما، والمنطقة المعتدلة الأكثر برودة. أما طبقا لقياسات الرطوبة، فتنقسم الصين من الجنوب الشرقى إلى الشمال الغربى إلى: المنطقة الرطبة، والمنطقة شبه الجافة، والمنطقة الجافة.

ويظهر فى الصين المناخ القارى القاسى بصورة واضحة فى التغيرات الكبيرة فى درجة الحرارة، والفارق الكبير بين أشد الفصول حرارة وأكثرها برودة. والرياح الموسمية شمالية فى الشتاء، وجنوبية فى الصيف نظرا لوقوعها على أكبر المحيطات، وهو المحيط الهادى.

وتقع معظم أقاليم الصين فى المنطقة المعتدلة مناخيا: ويقع جزء منها فى المنطقة المدارية وشبه المدارية جنوبيا. أما شمال الصين فيقترب من المناطق الجليدية، لذا تتفاوت درجات الحرارة فى مختلف الأقاليم تفاوتا كبيرا. فبينما تشتد الحرارة وتغزر الأمطار تقريبا طوال العام فى بعض الأقاليم كمنطقة هاينان، يطول فصل الشتاء فى مقاطعة هيلونج يانغ بالشمال الشرقى، ويقصر فصل الصيف. أما المناطق القريبة من البحار فى شرق الصين فمناخها معتدل ورطب، وتتباين فيها الفصول الأربعة، بينما فى مناطق الشمال الغربى قد يتقلب المناخ تقلبا شديدا فى اليوم الواحد. أما فى الجنوب الغربى فتمتد مناطق البرد القارس نظرا لارتفاع تلك المناطق الشديد عن سطح البحر، حيث يتراكم الجليد على الجبال وتتجمد الأنهار.

□ خامسا - الموارد الطبيعية

تتنوع الموارد الطبيعية فى الصين بتنوع الأقاليم المناخية واختلاف التضاريس، ففيها - كما نرى - الغابات والأراضى السهلية المنزرعة، إلى جانب الأراضى الجبلية والصحارى المقفرة والسواحل.

وتصل مساحة الأرض المزروعة فى الصين إلى ١٠٨ ملايين هكتار. وتعد سهول شمال وشمال شرقى الصين ومجرى نهر يانجتسى الأوسط والأسفل، ودلتا نهر اللؤلؤ وحوض ستيشوان أخصب مناطق الزراعة فى الصين.

وتتنوع محاصيل سهل شمال الصين الشرقى ذى التربة السوداء الخصبة، فتنتج القمح، والذرة الشامية، والذرة الرفيعة، وفول الصويا، والكتان. بينما تكثر فى سهل الصين الشمالى محاصيل الفاكهة مثل التفاح، والكمثرى، ويكثر القمح، والذرة الشامية، والدخان، والقطن.

أما سهل نهر يانجتسى الأوسط والأسفل فشهرته تأتى من زراعات الأرز التى تجود فيه نظرا لانبساط الأرض وانخفاضها، وانتشار البحيرات والأنهار فيه، مما يساعد على وفرة المياه اللازمة لزراعة الأرز. كما تجود أيضا زراعات الموالح وتنتشر المزارع السمكية.

وتمتاز تربة حوض ستيشوان بلونها الأرجواني، ويساعد مناخ المنطقة الرطب المعتدل على نمو المحاصيل الزراعية المختلفة على مدار السنة، ومنها الأرز، وبذور الشلجم التى يستخرج منها الزيت، وقصب السكر، والبرتقال، واليوسفى، والليمون الحلو، والشاى.

وتعد بيئة الصين فى مناطق عديدة صالحة تماما لرعى وتربية الماشية والخيول والأغنام، فالأرض التى ينتشر فيها العشب تمتد إلى أكثر من ٤٠٠ مليون هكتار، منها ٣١٩ مليون هكتار من المروج الخضراء، وأهمها مروج منغوليا التى تعد أكبر المراعى الطبيعية فى الصين، وتربى فيها الأبقار والخيول والأغنام، وأيضا المناطق الواقعة جنوب جبال تيانشان وشمالها فى سنكيانج.

وتشتهر الصين أيضا بمساحات غاباتها المترامية الأطراف، وتقرب من ١٢٩ مليون هكتار، ومن أهمها مناطق الغابات فى جبال شنغان الكبرى وشنغان الصغرى وجبال تشانج باى فى شمال الصين، وهى غنية بأشجارها مثل الصنوبر الكورى، واللاركس، والصنوبر الأصفر من الفصيلة الصنوبرية، وأشجار البتولا، والسنديان الضخمة، ومران منشوريا، والحور، والدرداء وغيرها من الأشجار العريضة الأوراق.

وهناك أيضا مناطق الغابات فى جنوب الصين الغربى، ومن أشهرها التنوب الباسق، والتنوب، وصنوبر يونتان، إلى جانب الأشجار النادرة ومنها العاج، والأبنوس، والكافور، والماهوجنى.

أما مملكة النباتات فى الصين فتقع فى المنطقة المدارية - سيشونج بانا - فى جنوب مقاطعة يونان، وتمتاز بأن أنواع النباتات فيها تزيد على ٥٠٠٠ نوع، وهى من أندر المناطق فى تنوع نباتاتها.

وكما نجد فى الصين جميع أصناف النباتات المعروفة فى المناطق المتجمدة والمعتدلة والمدارية فى نصف الكرة الشمالى، فإننا نجد أيضا النباتات النادرة. وينبت فى أرض الصين أكثر من ٧٠٠٠ صنف من النباتات الخشبية، منها ٢٨٠٠ صنف من الأشجار. وهناك الكثير من الأشجار التى تنفرد بها أرض الصين مثل الجنكة، والمتياسكويا، وشجر التنوب الفضى، والتنوب، والأرز الذهبى، وتنوب تايوان، وسرو فوجيان، وشجر قناب داود، ويوكوميا الكورتكس.

وهناك أيضا النباتات الغذائية التى تتعدى أنواعها أكثر من ألفى صنف، وتشتهر الصين أيضا بالأعشاب الطبية، ومنها جذور الجنسنج، وزهرة القرطم الصباغية، والعديد من الأنواع التى يعترف بها الطب الحديث فى علاج الكثير من الأمراض.

وتعد الصين من الدول الغنية بأعداد وأنواع الحيوانات البرية التى تعيش على أرضها، حيث تضم ما يتجاوز ١٠٪ من حيوانات العالم. فإلى جانب الأنواع المعروفة من الحيوانات، تمتاز الصين ببعض الأنواع النادرة مثل الباندا العملاقة، والقرد الذهبى، والأيائل البيضاء الشفاه، والغزلان المنحنية القرون، والدرفيل النهرى الأبيض، والكركى الأحمر التاج، والكركى الأسود العنق، وغيرها من الحيوانات والطيور النادرة.

وتتميز الصين بوفرة الموارد المعدنية حيث يحتل مجمل احتياطيها من المعادن المعروفة المرتبة الثالثة فى العالم. ومن معادن الطاقة التى تم تحديد احتياطيها فى الصين: الفحم والبترول والغاز الطبيعى، بالإضافة إلى اليورانيوم والثوريوم، علاوة على خامات الحديد والمنجنيز والفاناديوم والتيتانيوم وغيرها، إلى جانب احتياطيها من المعادن غير الحديدية كالتنجستين، والقصدير، والأنتيمون، والزنك، والزئبق.

سكان الصين

- **بلغ عدد سكان الصين** فى أحدث إحصاء (يوليو ١٩٩٥) مليارا و ٢٠٣ ملايين و٩٧ ألفا و ٢٦٨ نسمة (حوالى ٢٢٪ من سكان العالم).

- **التركيب السكانى**

- من الولادة إلى سن الرابعة عشرة يمثلون ٢٦٪ من إجمالى عدد السكان، وعددهم من الإناث ١٥١ مليونا و ٢٦٦ ألفا و ٨٦٦ نسمة، ومن الذكور ١٧٦ مليونا و ٢٣٤ ألفا و٧٨٢ نسمة.

- من سن ١٤ إلى ٦٤ سنة يمثلون ٦٧٪ من إجمالى عدد السكان، وعددهم من الإناث ٣٩١ مليونا و ٩١٧ ألفا و ٥٧٢ نسمة، ومن الذكور ٤١٩ مليونا و ١٠٣ آلاف و ٩٩٤ نسمة.

- أكثر من ٦٥ سنة يمثلون ٧٪، وعددهم من الإناث ٣٩ مليونا و٥٩١ ألفا و ٦٩٢ نسمة، ومن الذكور ٣٣ مليونا و ٩٨٢ ألفا و ٣٦٢ نسمة.

- **معدل الزيادة السكانية :** ١,٠٤٪.

- **معدل المواليد :** ١٧,٧٨ مولود لكل ١٠٠٠ نسمة.

- **معدل الوفيات :** ٧,٣٦ وفاة لكل ١٠٠٠ نسمة.

- **معدل وفيات الأطفال الرضع :** ٥٢,٠١ حالة وفاة لكل ١٠٠٠ مولود.

- **متوسط العمر :** بين ٦٨,٠٨ سنة و ٦٧,٠٩ سنة للذكور، و ٦٩,١٨ سنة للإناث.

- **كثافة السكان وتوزيعهم**

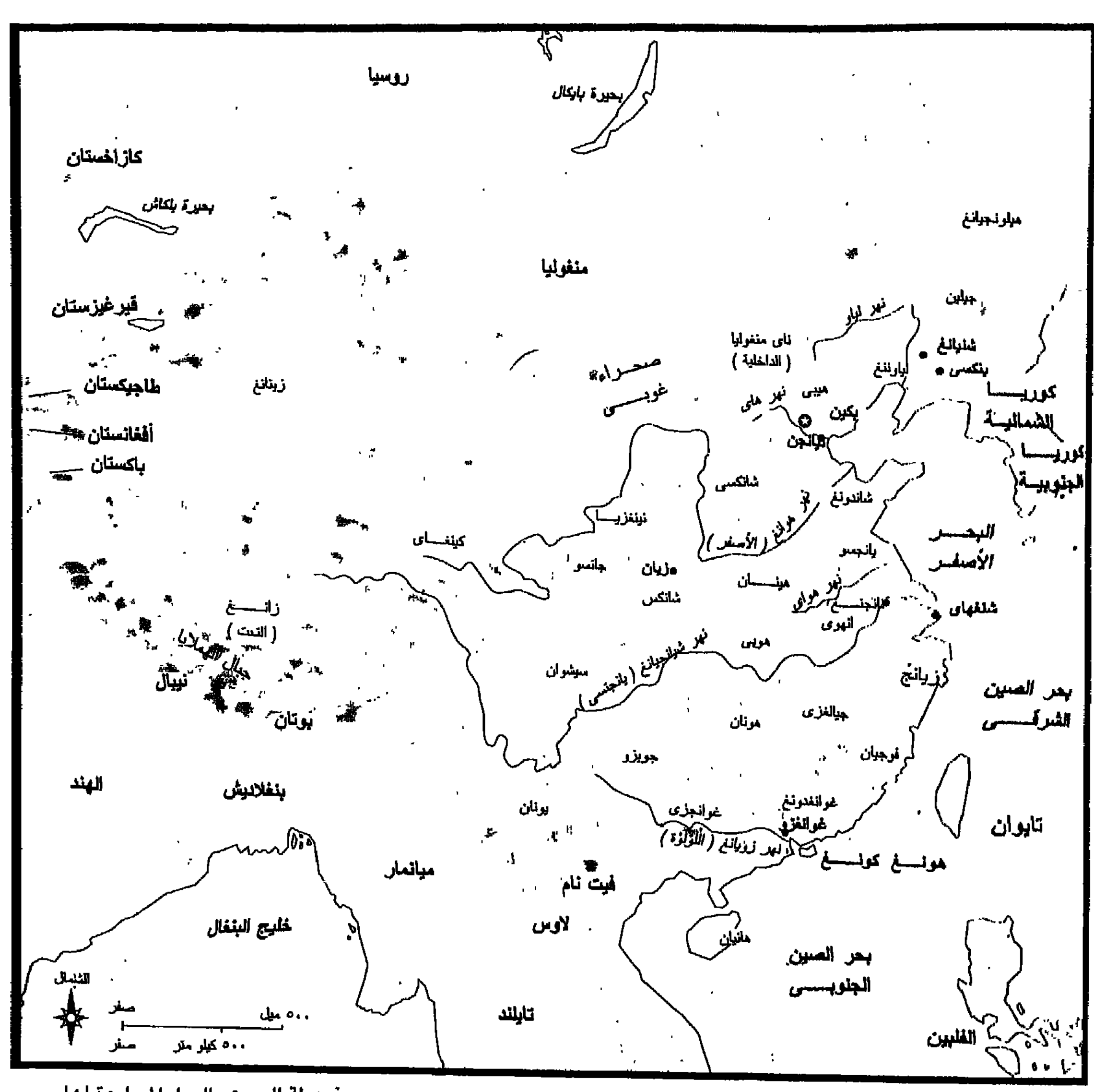
- طبقا لمؤشرات الإحصاء السكانى العام الرابع (أجرى عام ١٩٩٠) بلغ **متوسط الكثافة السكانية** ١١٨ نسمة فى الكيلومتر المربع.

- يختلف **توزيع السكان** تبعا للمناطق اختلافا كبيرا. ففى المناطق الساحلية الشرقية تبلغ الكثافة السكانية ٣٦٠ نسمة فى الكيلومتر المربع، ولكنها لا تتجاوز ١٣ نسمة فى الكيلومتر المربع فى منطقة الهضاب، وتسجل ١٩٧ نسمة فى الكيلومتر المربع فى مناطق الوسط.

وكانت الصين قد بدأت فى تطبيق سياسة تنظيم الأسرة من بداية السبعينيات بهدف تخفيض معدل المواليد. وقد انخفض المعدل من ٣٤,١١ فى الألف عام ١٩٦٩ إلى ١٨,٢٤ فى الألف فى نهاية عام ١٩٩٢.

وانخفضت نسبة الزيادة الطبيعية للسكان من ٢٦,٠٨ فى الألف إلى ١١,٦ فى الألف.

وتتوقع الصين أن يجعل المعدل الجديد للزيادة السكانية عدد سكانها لا يتجاوز ١,٣ مليار نسمة فى نهاية القرن العشرين.



خريطة الصين والدول المجاورة لها.



الزعيم ماو تسى تونج

فى زيارة زعيم الصين جيانج تسه مين لليابان فى نوفمبر ١٩٩٨ تفقد عدة مناطق إلى جانب طوكيو منها هذه المزرعة للزهور وأبدى إعجابه الشديد بالتجربة اليابانية فى التقدم الاقتصادى على الرغم مما تعانيه من متاعب الركود قرب نهاية القرن العشرين



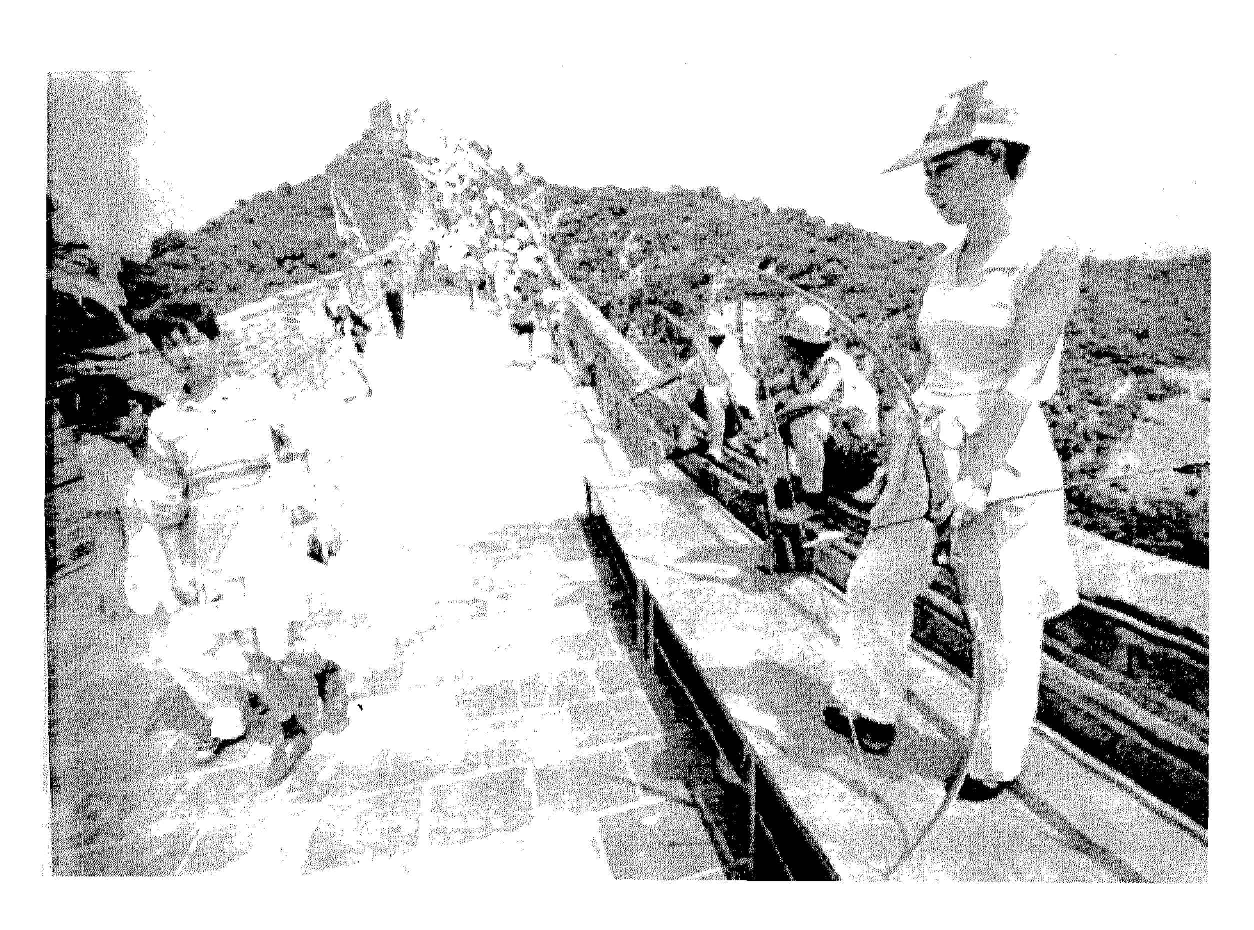
رونج جى رئيس وزراء الصين وزوجته يلوحان لمستقبليهما
فى قاعدة أندروز الجوية خارج واشنطن فى إحدى الزيارات



قاعة الشعب الكبرى فى بكين حيث يجتمع مؤتمر الشعب الوطنى (البرلمان) وهو أعلى سلطة سياسية فى الصين ويمثل جميع أقاليمها.



وضعت السلطة الصينية هذه اللافتة الضخمة لعملتها «اليوان» التى تحمل صور زعمائها أمام متجر لتغيير العملة فى هونج كونج التى عادت إلى الوطن الأم لتقول إنها ترفض بكل قوة تخفيض عملتها.



باعة الاقواس والسهام والهدايا التذكارية للسياح على سور الصين العظيم.

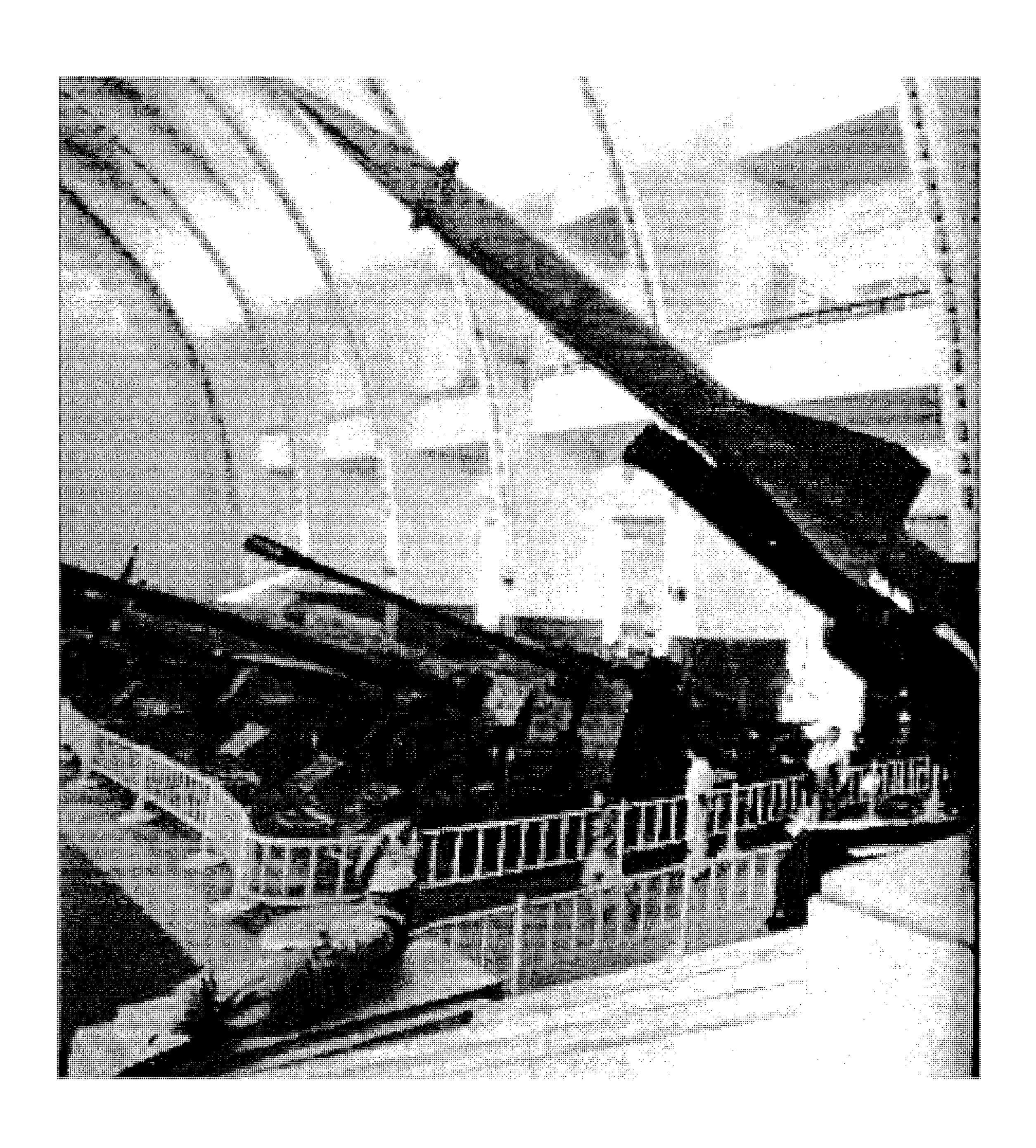


التقاط الأنفاس على سور الصين العظيم فى بك



تخصص الصين أموالا طائلة لتعليم الأطفال وتدريبهم على أحدث وسائل التكنولوجيا.





تطور الصين أسلحة جديدة
بغرض بناء قوة عسكرية
للدفاع عن مصالحها الوطنية
والإقليمية فى القرن المقبل.

كانت الفيضانات التى اجتاحت الصين فى عام ١٩٩٨ فرصة أتيحت للقيادة الصينية لرفع الشعارات القومية من جديد، وهى الشعارات التى تدعو إلى الاتحاد فى مواجهة الأزمات الداخلية والضغوط الخارجية.

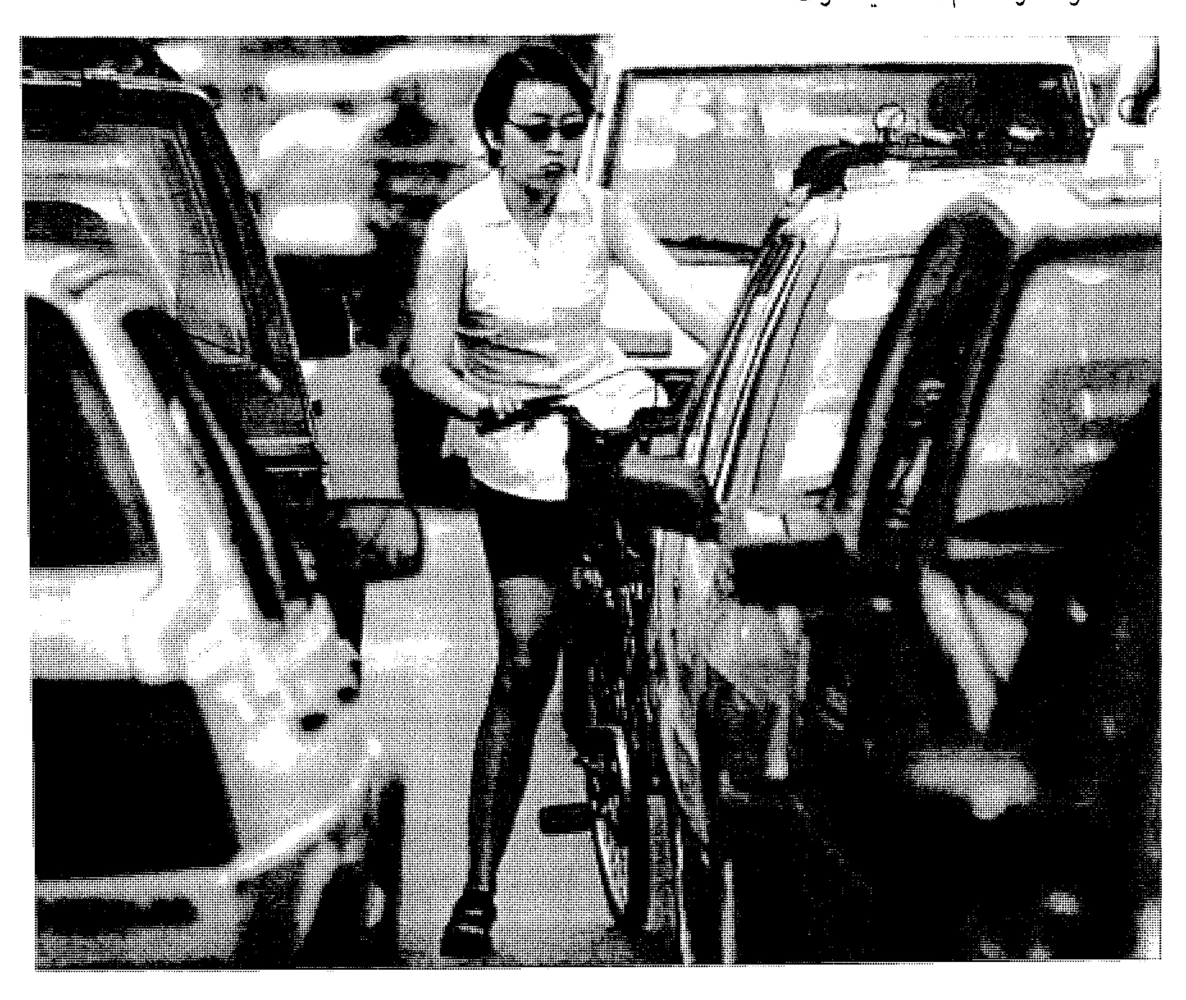


فى شوارع بكين فتيات يعرضن الشاى للمشترين.



عمال صينيون مهاجرون من
الريف ينامون فى شوارع بكين،
حيث ارتفعت معدلات البطالة

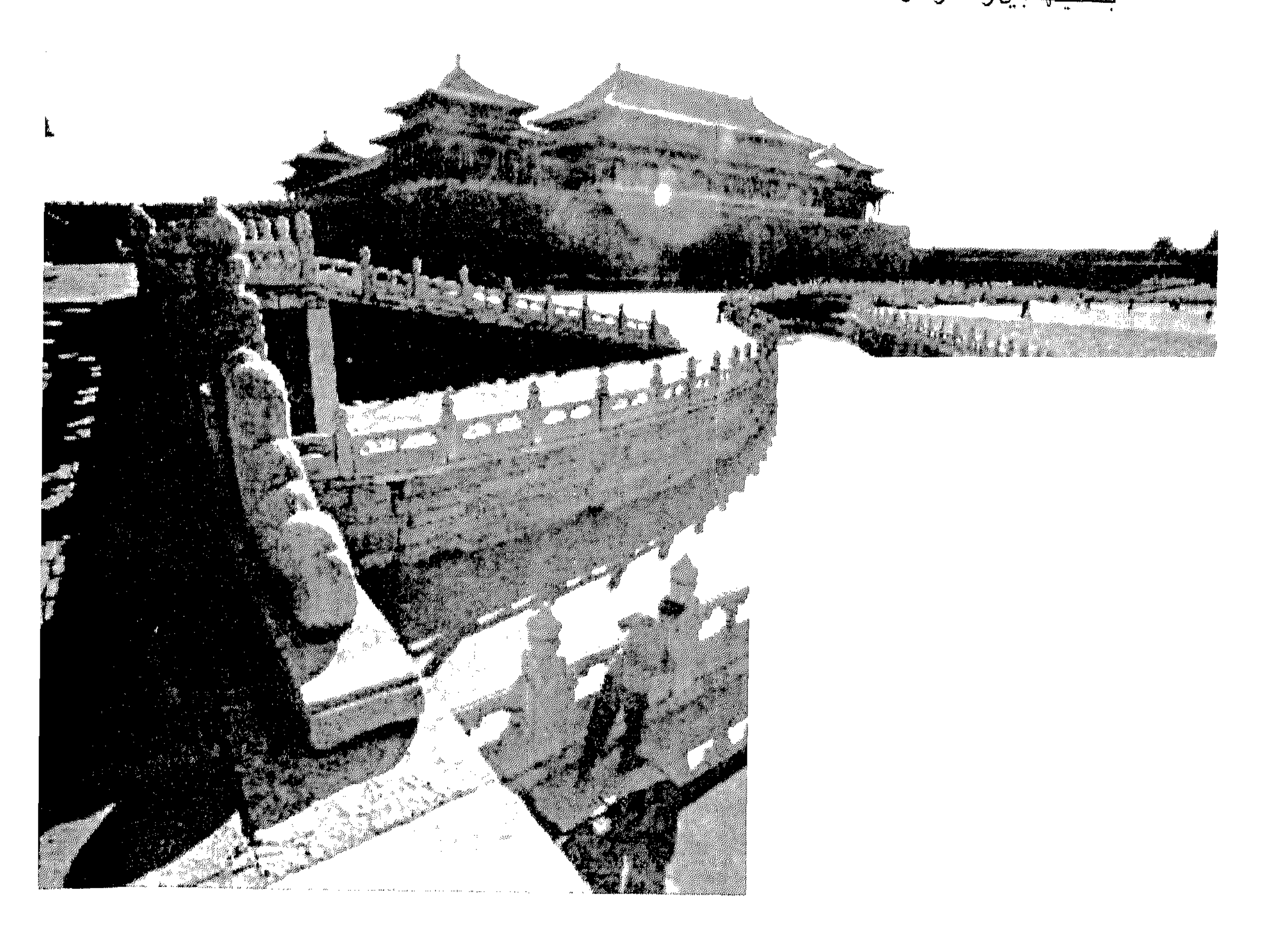
كانت بكين فيما مضى مدينة
الدراجات ولكنها بفضل التطور
والتحديث صارت مدينة
السيارات الفارهة لدرجة أن هذه
الفتاة لا تجد مكانا لدراجتها
وسط زحام السيارات



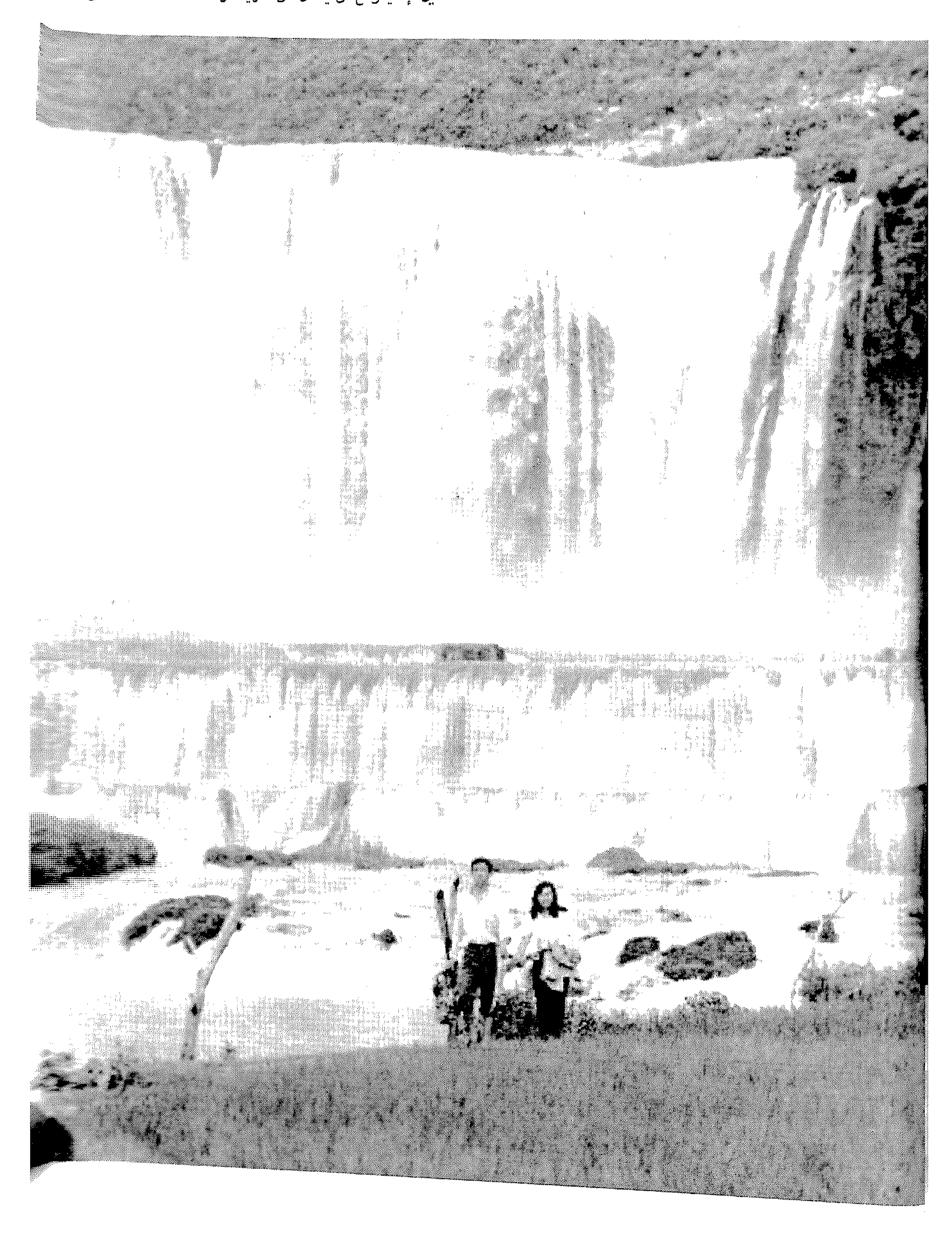
قلب بكين وقد امتلأ بناطحات السحاب فى إطار خطة توفير المساكن بتكاليف منخفضة التى تشمل إقامة مبانٍ فى ١٠٥,٥ مليون متر مربع أو ١,١ مليار قدم مربع.

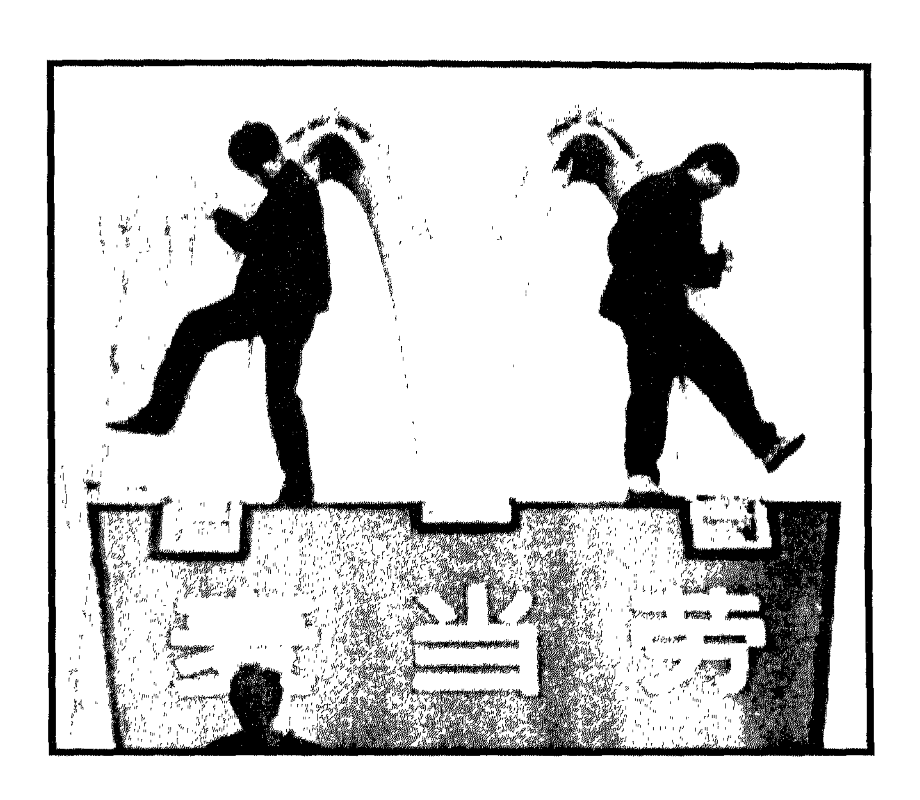


المدينة المحرمة أحد أهم آثار الصين يقوم العمال بتنظيفها بين وقت وآخر.



شلالات التنانين التسعة من أجمل مناظر الصين الطبيعية الخلابة ويعمل قادة البلاد الجدد على اجتذاب ملايين السائحين. إذ يتوقع أن يصل من أمريكا وحدها ٧٠٠ ألف سائح.





قبل الإصلاح الاقتصادى والانفتاح على العالم لم يكن ممكنا أبدا أن تفتح سلسلة المطاعم الأمريكية ماكدونالد فرعا فى بكين.

خاتمة

انتظروا الصين في القرن الحادى والعشرين . .

هذه العبارة لا مبالغة فيها تقريبا بل إنها صيحة يطلقها كل من رأى الصين الحديثة، أو درس أوضاعها وحللها مثلما أفعل فى هذا الكتاب.

وحتى قبل أن يأتى القرن الجديد قالت الصين للعالم بأكثر من طريقة: أنا هنا ..

قالتها بالتقدم الاقتصادى فى تجربة غير مسبوقة فى التاريخ، حين حققت معدل تنمية سنويا اقترب من ١٠٪ عدة سنوات متتالية

وقالتها وهى تسعى بنهم للأخذ بأسباب العلم والتكنولوجيا لتطوير الصناعة لديها، وإعدادا لبرنامجها لغزو الفضاء مثلما تفعل أى قوة عظمى.

وقالتها وهى تحدد موقفها من النظام العالمى الجديد الذى تشكل بعد انهيار الاتحاد السوفيتى، فقد رفعت صوتها عاليا بشعار: لابد من تعدد الأقطاب العالمية، ولا لهيمنة دولة واحدة على العالم.

ما هو سر حيوية الصين وتقدمها وتجاسرها على حقائق العالم الجديد؟

السر ببساطة هو: قادة الصين منذ دنج شياو بنج هم أصحاب رؤى جديدة متطورة متغيرة لتناسب مراحل التطور التى تمر بها الصين، ففى وقت من الأوقات رأى الساسة الصينيون أن انهيار الاتحاد السوفيتى السابق، وتفكك تحالفه مع دول أوروبا الشرقية، وسقوط الشيوعية فيها ليس دليلا على فشل الاشتراكية، وأن أسس وقواعد البناء الاشتراكى ذات الملامح الصينية صالحة للتقدم والبناء وقد وضع هذه النظرية دنج شياو بنج، وها هى تؤتى ثمارها وأزهارها.

ولكن بعد هذا التطور المذهل الذى تحقق فى الصين، واتخذ ملامح رأسمالية لا لبس فيها ولا غموض، هل مازالت الصين تنتهج النظام الاشتراكى؟

لا يمكن لأحد أن يقول إن الحزب الشيوعى الصينى، الذى يقوم على أكتاف وعقول قرابة الخمسين مليون عضو، أصبح فى خبر كان، ولا أن يقول إن هذا الحزب يريد أن يهدم نفسه بنفسه. فالحزب - إلى الآن على الأقل - هو الحزب الذى يقود هذه الدولة الكبيرة التى قوامها مليار و ٢٠٠ مليون نسمة، ولا يمكن أن يتخلى عن مسئولياته ببساطة، على الرغم من أن مؤسساته وهياكله تتحلى اليوم بمرونة غير مسبوقة.

لكن المستقبل قد يأتى معه بالكثير، خاصة فى وجود التقدم والتحديث، والارتفاع المطرد فى مستوى المعيشة، والاقتراب من روح العصر فى الأذواق، بل حتى فى الأزيا.. ومع ذلك فإن الثقافة الصينية القديمة تطبع فى نهاية المطاف كل شىء، بطابعها الذى تصير له الغلبة، بما يؤدى إلى بقاء الصين ويساعدها على تجاوز كل المحن.

الصين فى نهاية القرن العشرين ظاهرة لافتة للنظر حقا، وهى تلفت النظر فى جميع مناحى تطورها السياسى والاقتصادى والاجتماعى والثقافى والعسكرى والعلمى. ولذلك رأيت وضع هذا الكتاب لنقترب نحن العرب من الصين بينما نراها تقترب من العالم، ونحن جزء منه

المراجع

1- China in the Twenty - First Century:
Politics, Economy and Society, Edited by Fumio Itoh, United Nations University Press, 1997.

2- China Unfinished Economic Revolution, Nicholas R. Lady, Brookings Institution Press, 1998.

3- Things Chinese and their Stories, Du Feibao Hong Su, China Travel Press, 1994.

4- Selected Documents of the 15th CPC National Congress, New Star Publishers, 1997.

5- Le Volcan Chinois, Ursula Gauthier, Vent et Poussiere, Denoel, 1995.

6- Understanding China's Socialist Market Economy, John Wong, Times Academic Press, 1993.

7- China and the Chinese Overseas, Wong Gungwu, Times Academic Press, 1991.

8- China the Next Superpower: Dilemmas in Change and Continuity, Geoffrey Murray, China Library, 1998.

9- Understanding China: A Guide to China's Economy, History and Political Structure, John Brayan Starr, Hil and Wang, New York, 1997.

10- China's Ocean Frontier, Greg Austin, Australian National University, 1998.

11- China under Communism, Alan Lawrence, Eric Evans and Ruth Henig, University of Lancaster, 1998.

12- A Cultural Tour Across China, Qiu Huanxing, New World Press, Beijing, China, 1993.

13- China : Facts and Figures, New Star Publishers, China, 1998.

14- A History of Chinese Civilization, Jacques Gernet, Cambridge University Press, 1982 (Reprinted 1983, 1985, 1986, 1988, 1989, 1990, 1993, 1995).

15- Chinese Round Allout, Jonathan G. Spence, W.W.Norton & V Company Inc., 1992.

16 Chinese since Tainamen, Editor: Lawrence R. Sullivan, M.E. Sharp, 1995.

17- Looking for China, Judy Seuls, Red Deer College Press, 1996.

18- China and its Neighbours, International Journal, Canadian Institute of International Affairs, Volume no. 3, Summer 1995.

19- A New China Strategy, Kenneth Libertal, Foreign Affairs, Volume 74 no. 6, 1995.

20 For A Strong China, Bryce Harold, Foreign Policy, no. 94, Spring 1994.

21 China Changing Shapes, Gerald Segal, Foreign Affairs, May - June, 1994.

22- China and Strategy, Shulong Chu, Orlis: A Journal of World Affairs, Spring, 1994.

رقم الإيداع ١٦٦٩٣ / ٩٩

الترقيم الدولى I.S.B.N. 977-320-027-2

مطابع الأهرام التجارية - قليوب مصر

الصين

معجزة نهاية القرن العشرين

هل سيكون القرن ٢١ هو قرن الصين ؟ وهل ستنجح الصين فى أن تكون الدولة العظمى الأولى فى العالم متخطية الولايات المتحدة ؟ وهل ستنجح "الشيوعية بعد التعديل" فى الصين فى المنافسة مع الرأسمالية ؟ لماذا أصبح الاقتصاد الصينى حاليا الثانى بعد أمريكا وقبل اليابان ، ولماذا تخطت صادراتها ١٠٠ مليار دولار ؟ هل بدأت سلبيات المجتمع الرأسمالى تسيطر على الصين ؟ ما هى الشرور الستة التى تواجه التنمية فيها ؟ لماذا انتحر مليونا شخص خلال السنوات الست السابقة ؟ لماذا أصبحت نسبة كبيرة من النساء يرفعن شعار " رجل واحد لا يكفى " ، وكيف يمكنك شراء امرأة بـ ٣٥٠ دولارا فى الصين ؟ هل ستسئ الصين الحسابات مثلما فعل صدام حسين ؟ ما هى الحريات المتاحة لعشرين مليون مسلم و ٢٣ ألف مسجد فى الصين ؟ لماذا لم تعد الصين تعتبر إسرائيل امتدادا للإمبريالية ؟ .

عن هذه الأسئلة وكثير غيرها يجيب الأستاذ إبراهيم نافع رئيس مجلس إدارة ورئيس تحرير الأهرام ونقيب الصحفيين المصريين ورئيس اتحاد الصحفيين العرب ، فى دراسة موسعة كتبت بأسلوب سلس من خلال زيارات ميدانية لربوع الصين ومتابعة تطورها على مدى سنوات طويلة ، وبالاطلاع على معظم ما كتب عنها ، وعلى نحو يسهل معه استخلاص النتائج بالنسبة لمنطقتنا العربية فى أكثر من مجال له أهمية حاسمة .

الناشر



مركز الأهرام للترجمة والنشر
مؤسسة الأهرام

مطابع الأهرام التجارية - قليوب

التوزيع فى الداخل والخارج :
وكالة الأهرام للتوزيع
ش الجلاء - القاهرة